Nakhlah, Rufa'il
Maqālāt naqdiyah

مقالات نقدية على ادبنا العصري

بقلم الاب رفائيل نخله اليسوعي

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

مطبعة الاحسان في حلب

سنة ١٩٥٢

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
2258
7179

الرسم الذي على غلاف هذا الكتاب هو للرسام

الفريد بخاش

المقدمة

قد نشرنا حول سنة ١٩٣٩ ، في الصفحة الادبية الاسبوعية من جريدة « البشير » البيروتية ، عدة مقالات انتقدنا فيها بعض اشهر ادبائنا المعاصرين من اهل لبنان ، العراق ، مصر وتونس ، فبذلنا الجهد لنميز بالسداد والنزاهة اللائقين بالناقد ، الغث والسمين في المواضيع التي عالجوها وفي كيفية تعبيرهم عنها . ثم اضفنا الى تلك المباحث نظرات عامة في اجود انواع النثر والشعر العصريين ، وفي اسباب انحطاط النقد الادبي بين ابناء جيلنا الناطقين بالضاد . قد تحاشينا في كل ذلك عن ابداء آرائنا على وجه مجرد ، جاف ، ينفر منه اكثر القراء ، ويُجيز لجميعهم الشك في صحتها . بل دعمناها دائماً بامثال عديدة متنوعة ، تلذ لخيلة المطالع وتثير عواطفه ، فتشوقه الى مواصلة قراءة هذا الكتاب ، وتمكّنه من نقد نقدنا ، اذا كان واقفاً على اصول الادب الحقيقي ، التي اتفق عليها وعمل بها نوابغ الادباء في كل عصر ومصر .

عبّر لنا كثير من قراء مقالاتنا المنشورة في « البشير » عن استحسانهم اياها وشدة التذاذهم بها ، فاقدمنا على طبعها حين سنوح فرصة موافقة ، لتعميم فائدتها ولادامة تأثيرها . وقد اقتضى المنطق ان نجعل المقالات النقدية في صدر الكتاب ونُلحق بها المباحث العامة في ادبنا العصري ، لان هذه مؤسسة على الاولى وخلاصة ما فيها من التحليل الدقيق .

لا يخفى عن ذوي الثقافة العالية ان اقطار الشرق العربي في جيشان آراء واحزاب متعاكسة ومتحاربة منذ فجر هذا القرن ، وعلى الاخص بعد ختام الحرب العالمية الاولى ، وان ميدان الادب من المعتركات التي حمي فيها وطيس القتال الى الدرجة القصوى بين المحافظين المصرين على تقليد الاسلاف

في المعاني والمباني ، والمجددين المتجاسرين على كسر عدة قيود قديمة ، لجعل ادبنا صورة حية لحياتنا الحاضرة ، ولرفعه الى مستوى آداب ارقى الشعوب ؛ اما نحن فمن المجاهدين في صفوفهم لايقاننا ان التطور الدائم ضربة لازب لكل حي ، وان الادب في مقدمة مظاهر حياة الافراد والشعوب ، فجموده في مجرد التشبه بنوابغ كتّاب العصور الغابرة هو في الحقيقة موته وتلاشيه .

من ثم لا يخامرنا ادنى شك في كون المحافظين الذين لا يرون في الادب سوى نسخ المواضيع والتعابير القديمة ، مع اجراء تغييرات سطحية لا تمس جوهرها ، يعدّون عشرات من آرائنا النقدية مضادة لاصول الادب العربي ، ولو كانت مطابقة لسُنن الآداب الغربية . تلك النظرية فائلة كل الفيلولة . كما ان قواعد النحت الفني لا تختلف باختلاف المواد المنحوتة او الاقطار والاعصار ، كذلك لا تتغير اصول الادب الصحيح بتنوع اللغات التي هي مادته ، ولا بتغير الزمان والمكان .

قد بنينا نقدنا على تلك الاصول الراسخة الثابتة ، غير مكترثين لاستياء المقلدين العاجزين عن ابتداع ادب عصري حي ، ولا لحنق المدعين التجديد والابتكار مع سوء فهمهم كنههما ، ولا لامتعاض بعض ذوي الشهرة الواسعة والمعجبين بهم ، لكوننا قد تجرأنا على كشف عيوب انشائهم . لم يكن رائدنا في تأليف هذا الكتاب سوى الحقيقة والانصاف والشجاعة ، لاجل المدافعة عن مبادىء الادب الجدير باسمه الشريف . واملنا وطيد ، بعون الله تعالى ، ان يكون تصنيفنا هذا حجراً في بناء صرح الادب العربي المستقبل .

حلب ، في ٦ آب ١٩٥٢

رأي الاديب الشهير ادوار مرقص

من اعضاء المجمع العلمي الدمشقي ، في مؤلف هذا الكتاب

وقد ابداه في مقالة نشرتها جريدة « البشير » البيروتية في ٣٠ تموز ١٩٣٩

اقول اني اول المستنكرين ، كما استنكر الاب رفائيل نخله والسيد ميخائيل نعيمه ، ان يكون ادبنا العصري ادباً لفظياً محضاً ، لا اكثر ولا اقل ، اي ان يكون قشراً يليه قشر ثم قشر ، وليس بها شيء من اللباب ... والآن ابواب الامل لا تزال مفتوحة امام عيوننا ، اذا اردنا دخولها ، ولا تكون الا على طريق الخاصة المنتقاة من ادبائنا باستخدام الجرأة والصراحة في اعطاء كل ذي حق حقه بالنقد والتقريظ ، غير مندفعين مع التيار بمراعاة شهرة مصطنعة ؛ فاذا فعلوا ، فما الفرق بينهم وبين العامة ؟ اذا كان العامي يُنزل الخاصي الى دركته ، عوض ان يدفعه الخاصي الى درجته ، فهناك البلاء الاعظم والطامة الكبرى . ومما يطيّب النفس ويعزيها ان قليلين بين رجال القلم عندنا ـ ومنهم الاب رفائيل نخله والسيد ميخائيل نعيمه ـ اخذوا منذ سنوات يقومون بما عليهم من هذا الواجب الادبي والقومي معاً . فاذا زادوا على اشواطهم اشواطاً في هذا السبيل ، اقتدى بهم في الجرأة والامانة رجال آخرون قد يقلون عنهم علماً وفهماً وان قصروا عزيمةً وهمةً ؛ وحينئذ تصبح ومضاتنا نوراً وهاجاً ، فينتصر الحق ويزهق الباطل ولو رويداً رويداً .

تنبيه خطير للقراء

١ً قد ذكرنا نصوص الادباء على علاتها ، كما وجدناها في مؤلفاتهم المطبوعة ـ ٢ً جعلنا عنوان كل مقالة او قصيدة بين مزدوجين وعددناه مؤنثاً ـ ٣ً وصلنا شطري بعض الابيات الطويلة لتجنب التزاز كلماتها ـ ٤ً اذا كانت حركة الرويّ الكسرة ، فيجب تقديرها في القراءة ، وان لم تُطبع ـ ٥ً النقط الثلاث تدل على اهمال قسم من النص المذكور .

القسم الاول

نقد بعض الادباء المعاصرين

حافظ ابراهيم

ان شهرة شاعر النيل الواسعة تغني عن تعريفه ، وقد اقيمت له في شتى انحاء العالم العربي عدة حفلات تأبينية بعد موته الواقع سنة ١٩٣٢ . كان ـ رحمه الله ـ قد دخل المدرسة الحربية في القاهرة سنة ١٨٩٠ وترقى الى منصب ضابط ، ثم اكب على مطالعة دواوين مشاهير الشعراء ، فمال عن دولة السيف والمدفع المضطربة الى ميدان القريض الهادىء ؛ وقد ترك خدمة الجيش المصري سنة ١٩٠١ .

نشرت كبرى الصحف قصائده ، ولا سيما السياسية والوطنية ، ثم جُمعت في مجلدات ديوانه الثلاثة المطبوعة سنة ١٩٢٢ ، وقد ظهر بعد وفاته « ديوان حافظ » حاوياً طائفة جديدة من منظوماته .

من تصفح ذينك الديوانين فلا بد ان يشاهد تطوراً بطيئاً متواصلاً ، تحرر به شعر حافظ تحرراً تدريجياً من قيود انتحال الاقدمين في مواضيعهم وتعابيرهم . كان في اول عهده بالنظم غائصاً في لجج المدح والرثاء مثلهم . نجد في المجلد الاول من ديوانه القديم نحو خمسين صفحة في تعظيم الخديوي عباس حلمي ، اكثرها تزلف وتملق بل خطل وثرثرة ، وقد خص ايضاً بحصة وافرة من بخوره الكثيف الخانق ، السلطان الاحمر عبد الحميد ، وهو في اوج مجده وبطشه ؛ فلما دارت عليه الدوائر وثلت عرشه ، انحى عليه حافظ بالطعن الشديد في « فتنة الاستانة » .

اما المراثي فانها تشغل زهاء اثنتين وثلاثين صفحة من ذلك الديوان ، وهي لا تخلو من التصنع والمبالغة ؛ وقد وقف على شكوى صروف الدهر ومعاتبة الاخوان نحو خمسين صفحة ، وعشرين على القصائد الخمرية ، اقتداء بمجون ابي نواس .

كل تلك المواضيع التافهة في معانيها احقر من ان تلفت نظر الناقد ، ولا سيما انها نظم شخص حديث العهد بالشعر ، عاجز عن الابتكار ، فلا محيص له عن لوك اقوال السلف من دون هضمها واستخلاص جوهرها المغذي لتحويله الى دم جديد ، يوجد حياة جديدة ، بعد اطراح العناصر النخرة ، الميتة والمميتة . بطول معالجة القريض ومخالطة ائمته المجددين في مصر ، من امثال خليل مطران ، احمد شوقي ، عباس العقاد ، محمد تيمور ، زاد حافظ فهماً لكنه الشعر ، القائم على ركني الحيوية والابتكار ، فجعل يُعرض عن المواضيع القديمة ، البالية ، مقتبساً الهامه على الاخص من محيطه المصري ، وهو اشبه ببحر هدار ، تتلاطم فيه امواج التقلبات السريعة ، السياسية والاجتماعية .

وقف شاعر النيل مدة اعوام وقفة الراصد المضطرم بلهيب الوطنية ، بين غماره الهائجة ، فوصف لنا مظاهر ثورانها وفترات ركودها ادق الوصف في قصائد كثيرة ، صادقة اللهجة ، حادتها ، بعيدة الاصداء في اقطار العروبة ، فاضحت كأنها فصل حي منظوم من تاريخ بلاده في الثلث الاول من القرن العشرين ، رافعةً صاحبها الى مرتبة سامية بين مجددي شعرنا العصري . هذا هو حافظ الحقيقي ، وتلك شخصيته الناتئة ، الجديرة بالاعتبار والتحليل النقدي ، بعدما خلع اسمال شخصيته الكاذبة ، المستعارة من الاقدمين . نزل في ميدان الوصف ، فبرز فيه تبريز مصور المشاهد الواقعة تحت النظر ، لكنه مع مهارته في ذلك الفن الطريف العسير ، لم يتوفق في اتقان التعبير توفقه في مواضيع الوصف ومعانيها .

لا نكاد نرى حادثاً سياسياً ذا شأن ولا حالة اجتماعية خطيرة لم يمثلها لنا في شعره ، وكثيراً ما يُفرغ وصفه لها في قالب التوبيخ اللطيف او الهجو اللاذع ، فانه يرى بنظره الثاقب عيوب مواطنيه . وجد اكثرهم ، حتى الادباء ، غير متضلعين من لغة الضاد ، التي شُغف بحبها وفُتن بمحاسنها منذ صباه ، فعيرهم بذلك في « لسان حال اللغة العربية » ، حيث تصيح بهم هي ذاتها :

ارى كل يوم في الجرائد مزلقاً ... من القبر يُدنيني بغير اناةِ[1] ...
ايهجرني قوم - عفا الله عنهمُ - ... الى لغة لم تتصل برُواة ؟
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى ... لعاب الافاعي في مسيل فُرات ،
فجاءت كثوب ضم سبعين رقعةً ... مشكلة الالوان مختلفات !

في « الزوجية » يرثي لتفاقم انتشار الخلاعة بين شبان القاهرة ، الغادين والرائحين في حي الازبكية المشهور بكثرة مواخيره :

افي الازبكيـة مثوى البنـين ، ... وبين المساجد مثوى الابِ ؟

يعيب المصريين بتوانيهم في الاشغال وبانقسامهم في السياسة ، فينذرهم في « آلامنا وآمالنا » اندار الحزم والرشد :

هلاك الفرد منشأه توان ، ... وموت الشعب منشأه انقسامُ ؛
وإنّا قـد ونينا وانقسمنا ، ... فلا سعي هنـاك ولا وئام ،
فساء مقامنـا في ارض مصرٍ ... وطاب لغيرنـا فيها المقام !

في « الامتيازات » يستهزىء بفرط هيامهم في ظواهر العظمة مع قعود اكثرهم عن السعي وراء المآثر المؤدية اليها ، وقد بالغ في تعبيره مبالغة واضحة :

وهـل في مصر مفخرة ... سوى الالقاب والرتبِ ؟ ...
اروني نصف مخترع ، ... اروني رُبع محتسب ...
ومـاذا في مدارسكم ... من التعليم والكتب ؟
ومـاذا في مساجدكم ... من التبيـان والخطب ؟
ومـاذا في صحائفكم ... سوى التمويه والكذب ؟

في مقدمة العاهات المصرية التي وصف لها العلاج الشافي ، حرمان البنات نعمة التعليم والتهذيب ؛ ولله دره من قائل :

الام مدرسة اذا اعددتهـا ، ... اعددت شعباً طيّب الاعراقِ .

---

(١) النقط الثلاث تدل في كل هذا الكتاب على ضربنا صفحاً عن بعض ما يلي ، لكونه اقل دلالة على ما نريد اثباته .

لم يكتف بتحريض الاغنياء على بذل اموالهم عند حدوث النكبات الكبرى ، كما فعل في « حريق ميت غمر[1] » ، بل قد رأى في الفقر المدقع الضارب اطنابه بين طبقات الشعب السفلى ، وباءً يهدد كيانه ، فاهاب بارباب السلطة في « غلاء الاسعار » :

ايها المصلحون ، اصلحتمُ الارض وبتّم عن النفوس نياما ؛
اصلحوا انفساً اضر بها الفقر واحيا بموتها الآثاما !

من جهة اخرى لاحظ غرق ثروات فاحشة في مضاربات المصفق فقال :

مضاربات هي المنايا ، ورُسلها احرف البروقِ ! ...
قد اتلفت انفس البرايا باسهم الغدر والعقوق .

تلك نموذجات من اهم مواقف شاعر النيل بازاء شرور بلاده الناجمة عن نقائص ابنائها . على ان نظره لم ينحصر في حدود اصلاح المصريين ، بل تعداها الى ابعد الآفاق ، مهيئاً لقريحته الخصبة مادة شعرية جديدة ، يستخرج منها عبراً بليغة لمواطنيه . يجدر بنا ان ننوه ، في هذا الميدان ، بشجاعته في انتقاد سياسة الانكليز الاستثمارية لوطنه . في « وداع اللورد كرومر » ـ وهو السفير البريطاني الذي بقيت مصر سنين عديدة رهن اشارته الآمرة الناهية ـ رماه هو وابناء امته بهذا اللوم العنيف ، لعبثهم بمصالح المصريين الحيوية :

وانك اخصبت البلاد تعمداً واجدبت في مصر العقول تعمدا !
قضيت على ام اللغات ؛ وانه قضاء علينا او سبيل الى الردى !
ووافيت والقُطران في ظل راية ، فما زلت بالسودان حتى تمردا ،
فطاح كما طاحت مصوّع[2] بعده وضاعت مساعينا باطماعكم سُدى ...
وحاولت اعطاء الغريب مكانةً تجر علينا الويل والذل سرمدا !

---

(١) اسم مدينة صغيرة في الدلتا ، تعني القسم الشمالي من القطر المصري .
(٢) ميناء صغير تابع لاريثرية (Érythrée) في جزيرة من جزائر البحر الاحمر .

في هذه القصيدة ذاتها لم يخش ان يرشق ذلك الجبار بسهم السخرية هاتفاً :

فلِمَ لا نرى الاهرام، يا نيل، مُبيَّداً وفرعون عن واديك مرتحلاً غدا ؟

قد وقف حصة من شعره على توثيق علائق حسن الجوار التي تربط مواطنيه من عهد عهيد باهل لبنان وسورية . في « الامتان تتصافحان » يصف تلك الآصرة المتينة العرى ويقدم للمصري الداريّة ، القليل الجسارة والمخاطرة ، مثال الهمة والاقدام في شخص المهاجر اللبناني :

يمضي ولا حيلة الا عزيمته ، وينثني وحُلاه المجد والذهب !

كذلك يصف اجمل مآثر الوطنية في « غادة اليابان » ؛ لامها لائم على قصدها خوض المعارك ، وهي تجهل فن القاء القذائف ، فاجابته مفحمةً :

انا ان لم احسن الرمي ولم تستطع كفّاي تقليب الظُبى ،
اخدم الجرحى واقضي حقهم واواسي في الوغى من نُكبا .
هكذا الميكادُ قد علّمنا ان نرى الاوطان اماً وابا ؛
ملك يكفيك منه انه انهض الشرق فهز المغربا !

« في فتنة الاستانة » من ابدع قصائده ؛ يشمت فيها بانهيار صرح عز الطاغية عبد الحميد ، مقارناً اياه بافول نجم سعد نابوليون الاول ، فيخاطب ذلك السلطان قائلاً :

مُشبعَ الحوت من لحوم البرايا ومُجيع الجنود تحت البنودِ ،
كنت ابكي بالامس منك ، فما لي بتّ ابكي عليك ، عبد الحميد ؟
فرح المسلمون قبل النصارى فيك ، قبل الدروز ، قبل اليهود !

الحق يقال ؛ قد اجاد حافظ في وصف الاحوال النفسية ، على انه دون ذلك الاتقان بمراحل في وصف الحوادث ، الذي كثر ما يشينه التصنع والمبالغة ، مثلاً في « زلازل ايطالية » ، « المارتينيك » وقصيدته على الحرب الروسية اليابانية . نعترف مع ذلك بان قصيدتيه « الكساء » و « دولة السيف

ودولة المدفع » لا بأس بها .

قد فرغنا من الكلام على اهم المواضيع التي عالجها حافظ ، وهي وحدها كافية لاحصائه بين نوابغ شعرائنا العصريين ، الذين مهدوا سُبلاً جديدة رحبة لقريضنا الناهض . اما تعبير شاعر النيل فهو كامل العروبة المحضة والوضوح ، لا تجد فيه ادنى اثر للعجمة واللكنة ولا للغموض والتعقيد . مع ذلك لا مندوحة لنا عن التصريح بان فيه عدة مغامز صادرة من فرط تقيده باساليب مشاهير اسلافه الشعراء ، من دون التمييز الكافي بين غثها وسمينها . اخذ عن طائفة منهم التصنع في الوصف ، فقال في قصيدته على عودة الشيخ محمد عبده من سفر ، ان البحر

يتجلى كأنه صُحف الابرار منشورةً بيوم المآبِ ،
وضياء الامام يوضح للرُبّان سُبل النجاة فوق العباب .

يقول عن الليل البهيم :

كأن دياجيه صحيفة مُلحد ، تُخط بها اعماله ومثالبهْ !

يسمي الخمرة « زوجة ابن المزن » ويقول لها « عصروك من خدي سُهيل خلسةً » ، ويعلم المطلعون ان سهيلاً نجم ساطع .

فضلاً عن ذلك التصنع نصطدم احياناً كثيرة بالمبالغة الفاحشة ، كقوله في شخص شديد الاسى :

..... اذا تنفس عادت فحمة الليل جمرةً من ضرامِ ،
واذا أن كاد ينصدع الافق وتعتل دورة الاجرام .

قال عن اذيال ثياب السلطان عبد الحميد : « لها فوق اجرام السموات مسحب » . يقضي العجب من تقدم العلوم والاختراعات في عصرنا فيقول عنه :

وان شاء زعزع شُم الجبال ، فخرت لاقدامه سُجّدا .

مراثي حافظ على الاخص مشحونة بامثال تلك المبالغات المضحكة : ينبئنا في رثاء عثمان بك السيد اباظه ان الشمس ودت

... لو انها من افقها هبطت وآثرت معه سكنى القفر والبيد .

يُفقده الوله رشده في ندبه للشيخ محمد عبده ، فيصيح يائساً :

سلام على الاسلام بعد محمد ، سلام على ايامه النضرات ،
على الدين والدنيا ، على العلم والحجى ، على البر والتقوى ، على الحسنات !

بجانب التصنع والمبالغة ـ وكلاهما غلو ، الاول في الكيفية والثاني في الكمية ـ نرى في شاعر النيل عيب الافراط في الخيالات المبتذلة ، وهي اشبه بزهور كانت نضيرة عند قطفها ، فاذبلها تداول الايدي المتواصل . حافظ ضعيف الابتكار في هذا الميدان ، وما شذ من شعره عن ذلك الحكم قليل لا يُعتد به . من اجمل تلك الفلتات القلمية قوله عن جرائد بلاده :

كانت صماماً للنفوس اذا غلت فيها الهموم ، فاوشكت ان تزهقا .

وفي شأن التضييق على النساء المسلمات بحبسهن بين جدران مساكنهن :

ليست نساؤكمُ حُلى وجواهراً خوف الضياع تصان في الاحقاقِ !

وفي وصف الهمة القعساء التي امتاز بها اهل الولايات المتحدة :

ووثبتم الى الحياة وثوباً ، ونفضتم عنكم تراب القبورِ .

نؤاخذ ايضاً شاعر النيل على تعلقه المفرط بمئات من الالفاظ المماتة ، وان لم يحرص عليها حرص بعض معاصريه كاحمد شوقي ومعروف الرصافي .

قال خليل مطران عن حافظ ، بعدما عاشره دهراً وتقصى مكنونات شاعريته : « له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى ؛ وفي اقصى ضميره يؤثر « البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى ؛ فاذا فاته الابتكار حيناً في التصور ، لم يفته في التصوير . » نشاطر شاعر القطرين رأيه هذا اذا كان قد عنى باجادة اللفظ كمال العروبة والوضوح ، وباجادة المعنى الابتكار في اساليب التعبير ، ولا سيما في الخيالات . اما اذا قصد باللفظ كل صفات التعبير ، وبالمعنى مجموع المواد الشعرية التي عالجها حافظ ، فاننا نخالف رأيه كل المخالفة ، مصرحين بان شاعرية عشيره اسمى بمعانيها منها بالمباني ، وان لم تكن هذه عارية عن

بعض المزايا الفريدة ، ولا سيما العروبة والانسجام والوضوح باسمى درجاتها . على كل حال نرى ان اعظم مفاخر شاعر النيل انه ، بين شعراء جيلنا ، من امهر الذين صوروا بالنظم احوال محيطهم السياسية والاخلاقية ، مسخرين تلك الموهبة النادرة لخدمة وطنهم، فجمعوا في شعرهم جمال فن هو امير الفنون وجلال فضيلة من اسمى الفضائل .

احمد زكي ابو شادي

في « اطياف الربيع »

ابو شادي شاعر مصري شهير مولود سنة ١٨٩٢ . شُغف بجمال القريض منذ حداثته ، ولم يحُل درسه الطب وتعمقه في البكتريولوجية دون الاكباب المتواصل على النظم ، فنشر عدة دواوين اذاعت صيته في العالم العربي ، فلُقب بشاعر الشباب . سنة ١٩٣٢ انشأ مجلة « ابولو » الشهرية ، المختصة بنشر انواع الشعر العصري والمباحث النثرية المتعلقة به ، وهي اول مجلة على ذلك المنوال في الشرق العربي . قد اهدى لنا نسخة من ديوانه « اطياف الربيع » المطبوع سنة ١٩٣٣ ، فرأينا ان نبدي ما انطوى عليه من المحاسن والمساوىء .

يتضح فوراً عند تصفح ذلك الديوان ان تسعة اعشاره نسيب . في عدة قصائد يستمد الناظم موضوعه الغزلي من « الميثولوجية » ، كما في « زيوس ويوروبا » ، « افروديت وادونيس » ، « بلوتو وبرسفون » . في قصائد اخرى يتوخى وصف محاسن الطبيعة ، فلا تلبث ان تملي عليه ابيات النسيب ، كما نرى في « رسالة الربيع » ، حيث يخاطب محبوبته مشيراً الى ذلك الفصل

الجميل وقائلاً عنه :

ولمحتـه متهللاً ، متوثبـاً ، فرأيته عرف الجمـال لديك .

نلاحظ مثل ذلك الاستطراد في « زهر الليمون » وغيرهـا مما يطول تعداده . وايم الحق لم نر لاحد شعرائنا العصريين ديواناً غائصاً في الغزل الى هذا الحـد الغريب ، ولا سيما في ذلك النوع من الغزل الشائن كل الشين لسمعة صاحبه ، بل لمقام الشعر والفن ، فقد تجاوز حدود الدين والآداب . ذلك ما نرمي الى اثباته باوضح البراهين ، منتهزين هذه الفرصة السانحة لبيان الشطط الفاحش الذي يقع فيه الانسان ، ولو اديباً وشاعراً نابغة ، اذا ارخى العنان لشهواته الجامحة .

ان غزل ابي شادي خلاعي في عدة قصائد ، ومن جملتها غير واحدة يصف فيها حمام النساء في خليج ستانلي (Stanley) المجاور للاسكندرية ، ولا سيما « شاطىء الاحلام » . نربأ بقلمنا ان يذكر شيئاً من تلك الابيات القبيحة التي يندى لها خجلاً كل ابي لم يبذل ماء وجهه . ولم يقف الناظم عند ذلك الحد من التهتك والاستخفاف بقرائه ، بل تعداه بادراجه في ديوانه عدة صور لنساء عاريات ، مما لا تجيز الحكومات الاسلامية نشره في الصُحف ؛ فبئس الشعر وبئست صوره ! لا يأنف ابو شادي من التصريح عشرات المرار بان حب النساء ليس ديدنه فقط ، بل دينه وعبادته ؛ ولولا احترامنا القراء لاتيناهم من شعره بعدة امثلة على ذلك . يقول في مطلع « ساعة الاحياء » : « الآن ارفـع للجمال صلاتي . » يصيح بمعشوقتـه في « التصوف » : « واليك انت تعبدي وسجـودي . » بالمعنى الكفري عينـه يهتف كالسكران الفاقد رشده « خمر الحب ايماني » ؛ وكان الاحرى به الا يدنس اسم الحب – وهو من اشرف الاسماء – باطلاقه على الهوى الحيواني المحض . كثيراً ما يدنس ايضاً كلمة « معبد » باستعمالها للدلالة على مراتع عهارته ؛ كفت شاهداً على ذلك « ليلة في المعبد » الحاوية وصفاً بذيئاً يفهم اللبيب موضوعه . اما

الدرجة القصوى التي تمتد اليها خلاعته الوقحة فهي تشبيه المحبوبة بخالقه ؛ عز وجل عن تلك المقارنة الكفرية . اليكم بيتاً من « الفنان » :

واستوحي معانيها كأني ناظرٌ ربي .

خلاصة القول ان ابا شادي يعد المرأة خيره الاسمى والهه الحقيقي ، فلا يخجل من المجاهرة المكررة الى درجة اضجار القارىء بتلك الزندقة . ها كم ما صرح به في « امرأة الابد » :

المرأة الدنيا بحال واحد ، في صورة الاحسان والحرمانِ ؛
اخذت عن الابد القصيّ الوهةً وتعيش مفصحةً عن الديان .

بل يقول في « عودة طائر » ، حيث يصف ليلة رقص ، انه قد اخذ من جمال بنت حواء تألهه ؛ ينادي تلك الليلة هذا النداء الغريب بل الجنوني :

طولي الى الابد القصي ، في روعة لا تنتهي ؛
قد اسلس الحسن العصي ، فاخذت منه تألهي .

لا بدع بعد تلك المجاهرات باعلانه ان المرأة هي منبع الفن ، بل ان ما حرمه الله من الفواحش على عامة الناس هو محلل لخاصتهم من ارباب الفن ؛ قد فاه بذلك الهتر الهاتر في قصيدته « الى افروديت » :

كل الحرام حلال للفنون ؛ فما غير الفنون له في الدهر سلطانُ .

ثم يرخّص لبني آدم قاطبةً في ارواء عطشهم الى الملذات ، فينشد في « العناق » :

لو انهم عرفوا الحياة وسرها ، عبّوا ، فما في الحب غير طهور .

مع تلك الآراء الاباحية المرذولة لا يملك ابو شادي ذاته عن الاقرار احياناً بجنون خلاعته ؛ « ليلة في معبد » تحتوي ذلك الاعتراف الذليل :

فلما ضمنا الحب ـ وكم للحب إعجازُ ! ـ
طرحنا العقل حين القلب وثّاب ونهّاز .

بل يبوح لنا مئة مرة بان شهوة الجسد قد افضت به الى اوخم العواقب؛

وفي ذلك عبرة لمن يعتبر . في « الدموع » يصور لنا فؤاده الرازح تحت اعباء الكآبة :

قلب يلوح كأنه في انسه ، وهو المحجَّب مأتمٌ في عرسه !

في « الغروب الثائر » يصيح لدى مشهد الشمس الدامية على الافق :

هذي دمائي استُنزفت وعلى السماء حدادي . . .

ثم يقول في القصيدة ذاتها :

من ظن اني مُسعَد في نشوتي فهو الضريرْ .

وفي « نشيد الالم » :

عصارة روحي اغاني العذابِ بشعري ، وكم في البكاء ابتسمْ .

وفي « نسيم الصباح » :

عانيت في عمري الشجا اضعاف ما غنّيت في غزلي وملء مراحي .
اني الاسير وان عُددت محرراً في عالم حالفت دون فلاح ؛
هذي حياتي كلها تعب على تعب واتراح على اتراح !

يكرر تلك النجوى في « معابد الحب » :

معابد الحب ، ما لي كلما ظفرتْ روحي بحظ ارى صبحي من الظُلَم؟

« بين المروج » صيحة من اعلى صيحات يأسه المبيد :

والحب يعلم انني في غمرة وعواصف من قسوة الايامِ ،
احيا باشجان تُميد رواسياً وتُميت كل رجائيَ البسّام !

نجد مثل ذلك الحزن الشديد والقنوط العقيم في « حزن الفجر » و « الفراش الهائم » وغيرهما ، مما يحول ضيق المقام دون تفصيله . في « نور ولهب » يُسر الينا بان انواع ملاذ الارض عاجزة كل العجز عن اشباع نفسه ، وفي « راهب الدير » يغبط الانسان الذي قاده ذلك الجوع الاليم الى التجرد عن حطام الدنيا واستقاء السعادة الحقيقية من منهلها الوحيد ، وهو حب الله والاكباب على خدمته . لعل تلك القصيدة درة ديوانه اليتيمة ، لا ند لها

فيه ، فلا يسعنا الاحجام عن ذكر عدة ابيات منها :

لمحتـه رانيـاً شطر السماء ، كما ... لمحته بشعـور اليـأس يرمقني ؟
لمحتـه وانا في الاسر اغبطـه ؟ ... فهل ترى هو بـين الاسر يغبطني ؟
نُعمى التجرد من لي ان الوذ بها ، ... فكم بهـا من امان لامرىء فطن !
سئمت كل غرور استعز بـه ، ... واشتقت ما يشتهي الصوفي من زمني!
يا راهب الدير ، هذي وقفتي حزناً ... ارنو الى ملكـوت الله حيرانا ،
وانت ترقب مثلي عالماً عجباً ؟ ... شتان بين مدى اللحظين ، شتانا !
اني لاحمل اعبـاءً منوعـةً ، ... واحمل الهم كفرانـاً وايمانا ؟
فهل تحملت مثلي للشجـا الماً ، ... وهل تعذبت من اتراح دنيانا ؟
يا راهب الدير ، حولي للحياة مُنى ... وكم حيـالي من اللذات الوانا !
زهدتها ، وانا القاسي على املي ، ... وكم يُميت ويحيي الحظَ فتّانُ !
وصار كل رجائي في الحياة غنى ... عن الحياة ومن عزوا ومن هانوا !

ان الايمان العملي بوجود الله تعالى وبروحانية النفس البشرية يكبح جماح الشهوات ، فان الامرين على طرفي نقيض . فمن رذل الشريعة الالهية واطلق العنان للغرائز العمياء ، يشعر شعوراً بديهياً بضرورة المطابقة بين امياله ونظريته في شأن الحياة وغايتها ، فلا بدع بان يتدهور في هاوية المادية المطلقة ؛ ذلك ما نلاحظه بكل الجلاء في ديوان ابي شادي . بيد ان العجب العجاب في شخص مسلم مثله ، يدعي الثقافة العالية ، انه لا يأنف من المجـاهرة بتلك الماديـة ، مع ان محور الدين الاسلامي القول بوحدانية الله وبخلود النفس . قصيدته « امنا الارض » تشهد بمجرد عنوانها انه ينتمي بكل كيـانه الى التراب . بل انه لا يستحي من الاقرار بانه يعبد الارض الـتي الهها بجنونه الفاحش ، فيصيح بها :

القاك في كنف السكوت عبادةً ... واقبّل الترب الذي يحييني !

يصرح في « مأتم الدنيا » بان الموت غايتنا الاخيرة :

اتيناهـــا ضيوفاً ثم جادت لنا بالموت من دون السؤالِ ؛
فدعني منصفاً ، دعني اناجي مفاتنهـــا إذن قبل ارتحال .

يبوح بتلك الدهرية ذاتها في « اليد البخيلة » :

لا اكذب الله ، اني لن اعيش سدى حتى ارى في الجنان الخمر والحورا ؛
بل اوثر العيش في دنياي محتملاً اذى لها ، ان غنمت الحب موفورا .

لا يخشى زوال الثرى حول قبره ، زاعماً ان مرقده الاخير ينتقل الى غمار البحر ، وقد اماط لنا الستار عن ذلك السر الغامض ، الذي اهتدى هو وحده اليه ، في « الحياة الكونية » :

نمضي الى حضن المحيط اذا غدا عيش الثرى بدداً او اندثر الثرى .

من المضحكات المبكيـــات انه ، بعد لفظه تلك الخزعبلات بلهجة الفيلسوف المتعمق في كنه الحياة ، يدعي هذا الادعاء المتعجرف :

ومن يحيا حياة العشب لم يظفر باغواري .

فرغنا الآن من تحليل غزل ابي شادي المادي الخلاعي ، المستغرق نحو تسعة اعشار ديوانه ، وقد صبغه بصبغته الشائنة . اما سائر انواع الشعر فلم يعالجهـا الا ندرةً . الوصف عنده دون الجيد ، فانه اغنى بالعواطف منه بالخيالات ، وغير مبني على المشاهدة ، مع كونهـا اساسه الوحيد . نجد ذلك العيب الكبير في قصيدتيه على بور سعيد والمنصورة ، ثم في « ميلاد الربيع » و « المعبد المعتزل » . مع ذلك قد اجاد الوصف مراراً قليلة تـكاد تُعد على الاصابع . في « الحُراس » ـ وهي كنـاية عن سور من الاشجـار المحيطـة بروضة ـ يقول لها في الدور الاخير :

وبقيت انت اسيرةً للارض ، تحمين النباتْ
من كل عصف للرياح وكل سهم للضيـاءْ ،
وتُعرضين جمـالك المأمول في وجه الممات ،
يا للضحية ! هكذا الدنيا تهاويل الفناءْ !

نجد ايضاً بعض الابيات الوصفية الجميلة في « الشمس الغريقة » :

وقفنا على اليم عند الغروبْ ، وكم في الغروب اسى للقلوبْ !
فاسمعنا الماء صوت الشجي ، ورف على النور روح الكئيب ،
وقد عثرت في خطوط الضياء فتاة السماء بموج عجيب ،
فاشعلت البحر من سحرها ؛ وما سحرها غير روح الاديب .

في هذا الشطر الاخير تصنع واضح يزيل تلاحم المعنى . يرى القراء في المثلين المذكورين تأييداً لصحة رأينا ان العاطفة غالبة على التصوير المحض في وصف ابي شادي ؛ ولا بأس بذلك على شرط الاجادة .

وصف النفس غير الغزلي في حكم المعدوم لفرط ندوره . خير نموذج له « ايليا وصموئيل » التي ختمها ابو شادي بهذه الابيات الحسنة ، الشافة عن شعور نبيل قلما نجده في « اطياف الربيع » :

رب طفل رعته ام حنون واب في كفاح عيش شقيّ ،
وتولاه هادياً من تولى وحباه بعطفه الابوي ،
واثاروا فيه الرجولة والنبل وصدق التجمل الروحي ،
صيرته الاقدار من قادة الفكر نبياً او في مقام النبي .

بجانب النزر اليسير من الشعر الوصفي نعثر على بعض القصائد الوطنية الحارة ، التي نراها حلية في ديوان قد تعطل بسبب استهتار صاحبه وماديته الوحة . من اجودها « منازل النيل » ؛ دونكم مطلعها الشائق وما يليه :

منازلَ النيل،من اعطى الغريب مدى هذي العهود ، فاحياه وافناني ؟
انا ابن مصر ، انا الباكي للوعتها ، انا المخلد نجواها بالحاني ؛
انا الذي اتناسى ما انوء به لكي اعبّر عنها ملء احزاني ،
فان افراحها ليست سوى فرحي وان اشجانها همي واشجاني !

في « اليأس الساحر » يرثي لعدم اتحاد مواطنيه فيقول :

تخذوا التنابذ ديدناً وتفرقوا جرحى التخاذل تحت جيش ظافر ،

وتقاذفوا تُهم الهوان كأنما غنموا اذا اقتسموا هوان الخاسر .
مَن مُبلغٌ احداثهم وشيوخهم ان التناحر مأرب للناحر ؟

نجد ذلك المعنى عينه في « سماسرة الهوان » . فضلاً عن المنظومات الوطنية السابق ذكرها نجد عدة ابيات مطربة في « بلادي » و « سباق « الاموات » و « عيد الوطن الاقتصادي » .

تعترينا اشد دهشة في تصفح هذا الديوان الفائحة منه اكره روائح التهتك والدهرية ، اذ يقع نظرنا على « صلاة الصباح » ، وهي القصيدة الدينية الوحيدة التي بين دفتيه . يا للمفاجأة ! ايصلي ابو شادي ؟ ومن تُرى الاله الذي يُصعد الى عرشه الاسمى بخور دعائه وسجوده ، بعد ان افرغ جعبة صبرنا بتكريره المسئم انه ابن الارض وان المرأة الهه الوحيد ؟ لعمري ان التفسير السديد لذلك التناقض الواضح ان الشاعر يتكلف المادية الصرفة ، لا عن ايقان مدعوم بالحجج الدامغة ، بل لتبرير انهماكه في المعاصي . فمتى صحا من سكرته وتحررت نفسه من ربقة شهواته ، استعاد رشده المفقود واعترف بوجود الهه الحقيقي وخالقه العظيم القدير اعتراف كل انسان لم يُمس بالجنون . « صلاة الصباح » وليدة تلك اليقظة المباركة ، وفيها من سمو جمال العواطف والخيالات ما يكاد يشفع بعض الشفاعة في مساوىء الديوان العديدة ؛ فلا بد ان ننصف ناظمها بادراجها هنا بحذافيرها :

غردي ، يا طيور ؛ ان صلاتي لالهي من نفس ينبوع لحنكْ .
استبين الالحان كالجدول الجاري ؛ فهل كان في صلاة بفنك ؟
ما احب الجمال في وقفتي هذي امام الغصون ، والفجر راني !
كل شيء عليه من مسحة الخالق حُسن منوَّع الاحسان !
ما احب الشروق ، والشمس ما زالت كنعسانة ، تعاف الصباحْ ،
ثم ترمي نقابها في شعاع وشعاع وتستطيب المراح ؛
فاذا بالوجود يرنو اليها في اغتباط ، كما رنت للوجود ،

واذا بالنفـــوس تخشع للخـالق من وحي نـوره الممدود !

اما المدح والرثاء فلا يمثل كلاً منهما في « اطيـاف الربيع » سوى قصيدة واحدة ، مما يستحق له الناظم اوفر الثناء .

نكتفي بذلك القدر من النقد لمعاني الديوان ، فنضيف الآن بعض الملاحظات الموجزة في شأن كيفية التعبير . لغة ابي شادي صحيحة في الغالب ، يشوبها اللحن بين حين وآخر . هي على غاية الانسجام ، لكنه مشوه في عدة قصائد بالابهام والغموض . الخيالات المبتكرة كثيرة ، بيد ان معظمها لا يتجاوز الحد الاوسط ، والتصنع الذميم يدب في ابيات عديدة : في « الشرق الهادىء » بزعم الناظم ان جميع ما نراه في الفجر امم

انشدت دعـوة الصبـاح ، فلبى ذلك الصبح من اسار الليالي .

نثني على ابي شـادي للتجديد غير اليسير الذي احدثه في الاوزان الشعرية . طوراً يقسم القصيدة الى ثلاثيات ، تتألف كل واحدة من ثلاثة ابيات لها قافية مختصة بها ، وتارةً يبتكر اوزاناً جديدة بتفاعيلها ولا يجعل كل بيت منهـا شطرين . مرةً يغير القافيـة بعد كل بيتين ، واخرى يقسم القصيدة الى قسمين او اكثر ، على وزن واحد معروف ، بيد ان لكل قسم قافيته ، مما يُطرب الآذان .

يليق بنا في الختام ان نلخص رأينـا في ديوان « اطياف الربيع » ، فنقول انه ، مع ما فيه من المحاسن الجزئية ، التي لا سبيل الى انكارها بدون بخس الناظم حقه ، ديوان مشحون بالغزل الخلاعي وبالمزاعم المادية ، بعيد كل البعد عن جوهر الشعر المحض ومراميه السامية .

معروف الرصافي

غني عن البيان ان الرصافي من اشهر شعراء العراق المعاصرين كالزهاوي ؛ له ديوان طُبع في بيروت سنة ١٩٣١ ، ينطوي على ٥١٤ صفحة كبيرة ، فهو من اغزر الدواوين مادةً ، وقد عُني الناظم ، على غير عادة زملائه ، بتبويبه وفقاً لانواع القصائد ، مما يسهّل على الناقد تحليل ضروب المواضيع التي عالجها . يتضح اول وهلة انها ذات تنوع شديد ، يفوق ما نراه في اكثر الدواوين الحديثة . النوع الاول منها هو الفلسفي ، وقوامه البحث عن اصل الانسان ، ملك الكون الهيولي ، وعن غايته القصوى . على ان فلسفة الرصافي في ذلك الشأن الخطير كلها ارتيابية ، ومن ثم سلبية ، لا تأنف من المجاهرة بجهلها التام لمعنى حياتنا الارضية . في قصيدته « من اين الى اين » يقول :

خرجتُ من ظلمة لاخرى ؛ فما امامي وما ورائي ؟
ما زلت من حيرة بامري معانق اليأس والرجاء !

وفي « نحن على منطاد » :

لبقاء تُقلّنا الارض في تسيارها ام تقلنا لنفاد ؟

ثم يقسره الصدق على الاقرار بان شكه في اهم المسائل الحيوية شديد الايلام لعقله التواق الى معرفة الحقيقة ولقلبه الظامىء الى السعادة الكاملة ، فيصيح في « كلمة معتبر » :

ونحن كالماء جرى نابعاً ، لكن علينا خفي المنبعُ . . .
كم نشرب الظن فلا نرتوي ، ونأكل الحدس فلا نشبع !

مثل كل الارتيابيين ينتحل المذهب المادي لكونه لا يحول ادنى حيلولة دون قطف زهور هذه الحياة ، اطاهرة كانت ام مدنسة . لا يستحي البتة من اعلان ماديته الملتثمة بلثام شفاف من الظن ، في قصيدته « بين الروح

والجسد » ، حيث يقول :

ولستُ اظن ان الروح تبقى اذا مُحيت من الجسد الرسومُ .

ثم يزيد كفراً باندفاع منطقه الفائل ، الذي لا يقدر ان يُخرج من تلك المقدمات الكاذبة سوى نتائج مماثلة لها ، فيصرح بان كل الاديان ليست سوى اضاليل من تلفيق بعض البشر المحتالين ، وقد ادعوا انها مُنزلة للتمويه على السُذج واضطرارهم الى قبولها ، فيقول محاولاً تبرير الحاده انه ليس من الذين يودون اخفاء الحقيقة - وكيف يؤكد معرفته اياها وهو ارتيابي قُح ؟ -

ولا ممن يرى الاديان قامت بوحي مُنزل للانبياء ،
ولكن هن وضع وابتداع من العقلاء ارباب الدهاء ؛
ولست من الالى وهموا وقالوا بان الروح تعرج للسماء .

من اراد شرب السم الزعاف ، فلا بدع بان يموت منتحراً . كذلك من سمم نفسه بتلك المادية المطلقة ، فهو يقتلها حتماً بحرمانها اكبر ملذات الحياة ، فانها كلها روحية محضة ، بل دينية ، ناجمة عن اتحاد عقلنا بالله بواسطة الايمان واتحاد قلبنا به على طريق المحبة العملية القائمة بحفظ وصاياه المقدسة. توم الرصافي ، كآلاف من امثاله الماديين المتحذلقين ، انه يورد نفسه موارد السعادة الكبرى باعتاقها من نير الدين ، فعاد بخُفي حنين ، يائساً متشائماً ، لا يرى عيشته الفارغة الاثيمة جديرة بان تُعاش ؛ وقد عبّر مراراً عن خيبته المرة في ديوانه :

فلو كنت في هذا الوجود مخيَّراً وفي عدمي ، لاخترته غير نادم ...
اري الخير في الاحياء ومض سحابة بدا خُلَّباً ، والشر ضربة لازم !

في النهاية تضيق مذاهبه الى حد كونه يأبى الانتساب الى البشر ، فيقول لقارئه :

دع الاناسيّ وانسبني لغيرهم ؛ ان شئت للشاء ، او ان شئت للبقر !

زه ، زه ! بل بئست المادية الكافرة ، التي اعمت بصيرته عن فهم سمو مقامه الانساني ، فجعلته يتمنى الانحطاط الى الحيوانية !

يضيق نفس المطالع بين تلك القصائد المادية ، وان لم تكن عديدة ، فيتنفس الصعداء اذ يصل الى النوع الثاني من شعر الرصافي ، وهو الاجتماعي . هنا يبدي الناظم شفقته الرقيقة على المظلومين او المهملين من اخوته البشر ، وقد خص بحصة وافرة منها النساء المسلمات ، فوقف على معالجة ادوائهن باباً كاملاً من ديوانه ، « النسائيات » . يرى - ونعم الرأي - ان المرأة هي اساس رقي المجتمع :

ولم ار للخلائق من محل يهذبها كحضن الامهات !

ثم يصرح بان استعبادها يؤول حتماً الى نفخ روح العبودية والذل في صدور ابنائها :

الم ترهم امسوا عبيداً لانهم على الذل شبّوا في حجور اماء ،
وهان عليهم حين هانت نساؤهم تحمل جور الساسة الغرباء ؟

من ثم يطلب منح المرأة كل انواع الحرية المعقولة ، ولا سيما حرية التعلم والتهذب ، فينشد هازئاً بمن يعدون الجهل حرزاً حريزاً لفضيلتها :

قد جعلوا الجهل صواناً لها من كل ما يدعو الى المأثمه .

يتهكم ايضاً على الذين يعزون الى البرقع تلك القوة الواقية :

الوجه ان كان الحياء نقابه ، اغنى فتاة الحي ان تتنقبا .

يطلب اطلاق الحرية للمرأة في اختيار رفيق حياتها ، الامر الذي لا يمكن ان يتم بسوى معاشرته وقتاً كافياً ، لمعرفة خله وخمره :

قلب الفتاة اجل من ان يُشترى بالمال ، لكن بالمحبة يُجتبى . . .
واذا الزواج جرى بغير تعارف وتحابب ، فالخير ان تترهبا .

يرفع صوته محتجاً على عادة الطلاق ، التي جعلت المرأة العوبة بين يدي زوجها ، يلتذ بها حيناً ثم ينبذها للتنعم بغيرها :

وهي حبل الزواج ورق حتى يكاد ، اذا نفخت له ، يذوبُ .

فضلاً عن اشفاقه على المرأة التاعسة ، يُفيض الرصافي حنانه على الفقراء ولا سيما اليتامى ، فقد وقف على هؤلاء عدة قصائد : « ام اليتيم » ، « اليتيم في العيد » ، « اليتيم المخدوع » ، « الارملة المرضعة » ، « من ويلات الحرب » . يرثي لتيتم آلاف من الاطفال الارمن الابرياء بذبح الاتراك لآبائهم ، فيقبّح فظائع اولئك السفاحين للدماء الزكية :

لئن ملأوا الارض الفضاء جرائماً ، فهم اجرموا والدين ليس بمجرم !

يصف شقاء الفقراء ويثير الرحمة نحوهم في « الصيف » و « الشتاء » . في « الفقر والسقام » يصور لنا اشد اهوال الفاقة ، وفي آخرها يصيح بالاغنياء القساة القلوب :

كم بذلتم اموالكم في الملاهي ، وركبتم بها متون السفاه ،
وبخلتم منها بحق الله ! ايها الموسرون ، بعض انتباه ؛
افتدرون انكم في تباب ؟

لا يكتفي بابداء شفقته على النساء والفقراء ، مع حث مواطنيه على اصلاح احوالهم ، بل يرمي في القسم الثالث من قصائده الاجتماعية الى معالجة بعض عيوب محيطه العراقي . في « العادات قاهرة » يوضح وخامة عواقب السكر وفرط شرب التبغ ، فيقول :

ان الدخان لثان في البلاد ، اذا ما عُدت الخمر اولى في البليات !

قد لاحظ ان كثيراً من الشرقيين لا يحسنون استثمار مواهبهم العقلية ، فيوعز الى « المتعلم » ان يكون اختصاصياً في ما يختاره من انواع العلوم والمهن . في « الفنون الجميلة » يحض الشرقيين على إحلالها من حياتهم القومية المحل السامي اللائق بها ، مبيناً شدة تأثيرها في تجميل معيشتنا وتسكين اوجاعنا في منفى الارض :

ان الذي جعل الحياة رواعداً ، جعل الفنون من الحياة بروقا .

في « رقية الصريع » يثور ثائره على الحكومة التركية البائدة :

اضحت مناصبها تباع وتشترى ، فغدت تفوّض للغني الاجهل ؛
تُعطى مؤجلةً لمن يبتاعها ، ومتى انقضى الاجل المسمى يُعزل ،
فيروح يشري ثانياً ، وبما ارتشى قد عاد من اهل الثراء الاجزل .

يوجه النصح الرشيد « الى المتقاعدين من ضباط الجيش » ، محذراً اياهم من شرور البطالة :

ان الحياة ليقظة فعّالة ؛ فالراقد الكسلان فيها بائدُ . . .
في الحرب طاب لكم جلاد ، فلتطب في السلم اعمال لكم ومقاصد .

« على الخوان » فيها وصف دقيق للشريه وحثه على القناعة :

فداو سقام جوعك عن كفاف ، فاكثار الدواء هو السقامُ .

النوع الثالث من قصائد الرصافي هو الوطني ، وقد عالجه قبل نيل بلاده استقلالها السياسي . في « تنبيه النيام » يتشكى من جور الحكومة التركية ، فيصيح غاضباً عليها وعلى جمود رعاياها العراقيين :

عجبتُ لقوم يخضعون لدولة يسوسهمُ بالموبقات عميدها ؛
واعجب من ذا انهم يرهبونها ، واموالها منهم ومنهم جنودها !

في « سوء المنقلب » مقابلة بين عز بغداد القديم وانحطاطها على عهد الاتراك ؛ نجد ايضاً مثل ذلك في « ايقاظ الرقود » . « في سبيل الوطنية » نداء لتعزيز الصناعة العراقية ، تمهيداً للطريق المؤدي الى الاستقلال :

افما تري اهل البلاد تقيدوا للغرب من حاجاتهم بقيود ؟

« في سبيل الوطن » دعوة الى اتحاد النصارى والمسلمين في حب الوطن:

اذا جمعتنا وحدة وطنية ، فماذا علينا ان تعدد اديانُ ؟

حين اعلان الدستور التركي الذي افسح للرعايا المحل الجدير بهم في سياسة بلادهم ، عبّر الرصافي عن شدة ابتهاجه لذلك الحادث الخطير في قصيدته « بعد الدستور » . تلك الوطنية المضطرمة قد اسمعتنا اجمل الحانها في « النشيد

الوطني » ؛ اليكم نموذجاً من اجمل ابياته :

نحن خوّاضو غمار الموت ، كشّافو المحنْ ؛
ما لنا غير اكتساء العز او لبس الكفن !
نبذل الارواح ، نفديها لاحياء الوطن ؛
هل سوى الارواح للاوطان في الدنيا ثمن ؟
يا ضلال الالى لم يكونوا الفدى ! ان نمت نحن ، فلتحي اوطاننا !

النوع الرابع من شعر الرصافي هو الوصفي ، على انه قلما يجيد معالجته . احياناً يشبّه الحسّيات بالمجردات ، مما يعاكس اصول الادب الراقي ؛ من امثال ذلك قوله :

ان الزهور تكنهن براعم مثل العلوم تجنهن صدورُ .

كثيراً ما يشين وصفه التصنع المفرط ، مثلاً في تصويره هذا للشمس الغاربة :

تهتز بين يد المغيب كأنها صب تململ في الفراش عليلا .

او في قوله عن الراقصة :

بسمت كوكباً ومرت نسيماً وشدت بلبلاً وفاهت خطيبا .

ربما بلغ اقصى حدود فساد الذوق بقوله على قصر التهمته النار :

يا ايها القصر ، مذ امسيت محترقاً ، ابكيت في البحر اسماكاً وحيتانا .

نجد مثل ذلك التكلف القبيح في « الساعة » ، « لبنان » ، « ذكرى لبنان » ، « وقفة في الروض » ، « الحرب في البحر » ، « في القطار » . اجود قصائده الوصفية « الشتاء » ، « في ملعب كرة القدم » ، « حبذا النوم » ، « الشارع الكبير في بغداد » حيث يقول :

هو ان رُش جاش وحلاً ؛ وإلا جاش نقعاً على الوجوه مُثارا .

النوع الخامس في ديوان الرصافي هو التاريخي ، بيد ان مادته قليلة ، تكاد تنحصر في خمس قصائد ، اجلها « هلاكو والمستعصم » ، « في

سلانيك » ، ولا سيما « وقفة عند يلدز » حيث يصف لنا ابدع الوصف سقوط الطاغية عبد الحميد ، فيصيح بقصره المقفر :

كنت مأوى العُلى ، مثار الدنايا ، مهبط العز ، مصدر الاذلال !
كنت جُبّاً ، واي جب عميق ، بالعاً للنفوس والاموال !

نرجح ان تلك القصيدة هي الدرة اليتيمة في ديوانه .

النوع السادس من شعره هو السياسي الممثل في نحو ثلاثين قصيدة ، جمعها الناظم في باب خاص ، على ان كثيراً منها لا يحتوي تفصيل الحوادث السياسية، بل تلميحاً سريعاً مبهماً اليها ، او مجرد التشكي من سوء الاحوال . قد وجدنا بينها ما ليس فيه ادنى علاقة بالسياسة ، مثل « العلم والعلَم » و « في المدرسة الحربية » . من اهم القصائد السياسية المحضة « ولسن بين القول والفعل » ، « الى بطل الشرق الاكبر » (يعني مصطفى كمال اتاتورك) ، « الوطن والجهاد » حيث ينحي باللائمة على سلطان مصر حسين كامل ، لكونه اتفق مع الانكليز لمقاومة تركية. في عدة قصائد من هذه الفئة يطعن بلهجة عنيفة في السياسة الاستعمارية البريطانية في العراق والهند ، والايطالية في طرابلس الغرب .

اذا القينا نظرة عامة على معاني ديوانه ، وجدنا فيها تنوعاً غير يسير ، على ان آراءه الفلسفية مادية محضة ووصفه كثير التصنع . الخلاصة ان اجود شعره هو الاجتماعي ، الصادر معظمه عن شفقته الحارة النبيلة على المنكودي الحظ في محيطه ، ولا سيما النساء المسلمات والفقراء . اما تعبيره فهو ممتاز بعروبة محضة ، قلما يدانيها مدان بين المعاصرين ، تدل على كمال تضلعه من اوضاع العربية وسهولة تصرفه فيها . بيد اننا نلومه اشد اللوم على فرط استعماله الالفاظ المماتة الخشنة ، وقد اضطر الى تفسيرها في حواش كثيرة تضخّم ديوانه بدون ادنى فائدة ، مضيفة اليه شبه قاموس من مئات الكلمات المهجورة ، التي كان الاحرى به ان يتركها نسياً منسياً من ان يحيي رممها .

فضلاً عن ذلك العيب نرى الشاعر العراقي كثير الابتذال في خيالاته ؛ واذا حاول الابتكار ، تدهور في فساد الذوق ؛ مثال ذلك قوله في وصف بوارج الروس :

مذ بنوها لهم كنيسة حرب ، تخذت كل مدفع ناقوسا .

وفي وصف مصائبه الفادحة وقوة جلده بازائها :

كم اغرقتني الليالي في مصائبها ، فعمت فيهن من صبري كدُلفين.

وفي حث مواطنيه على طلب العلم :

سيروا الى العلم فيها سير معتزم ، ثم اركبوا الليل في تحصيله جملا .

اذا تجنب السقوط في هوة فساد الذوق الفاحش على الاخص في الشعر، فكثيراً ما يزل به قلمه الى المبالغة الطفلية المضحكة ، التي هي اليق بروايات الف ليلة وليلة منها بديوان شاعر عصري . كفى شاهداً على ذلك قوله عن الحرب انها « تدك السهل والجبلا » ، وعن نهضة العرب في ماضي العصور ان « الافلاك قد خضعت لها في دورانها » ، وعن نور ساطع « انه علّم السُحب البرق » ، وعن صرح شامخ ان « الدهر يمد عنقه الى شرفته » .

يتضح من التحليلات السابقة ان شاعرية الرصافي هي دون شهرته بمراحل ، في المواضيع والتعابير ، على ان ديوانه من خير النموذجات على شعر الدور الانتقالي ، الذي نحن فيه . كثير من ادبائنا المعاصرين يحاولون التحرر من ربقة تقليد الاقدمين بالابتكار التام في المعاني والمباني ، وهم في الحقيقة مقيدون بها ، مجذوبون اليها بقوة كامنة فيهم ، شبه الحجر المرشوق في اعالي الجو ، لا يلبث ان ينحدر الى الارض بتأثير ثقله .

سعيد ابو بكر

قد رسخ فينا ، نحن اهل الشرق العربي الادنى ، الايقان ان سكان المغرب العربي اعني طرابلس الغرب ، تونس ، الجزائر ومراكش ، قضت عليهم صروف الزمان بعدم الاكباب على درس ادبنا القديم والاحجام عن ايجاد ادب جديد خليق بالذكر . في الواقع لم نر في محيطهم ، حتى الآونة الاخيرة ، شيئاً تسوغ نسبته الى الادب ، سوى بعض الجرائد والمجلات التي يتضح لنا اول وهلة ركودها في مستوى دون الذي ادركته صحافتنا بمراحل، فكأنها تمتمة الطفل الرضيع بالنسبة الى كلام الفتى البالغ اشده ، بل كأن تلك البلاد موات بين ارياف ادبنا العصري الملأى بانواع الزهور النضيرة والثمار اليانعة .

فما اشد ما كان دهشنا واعجابنا حين عثرنا على ديوان « السعيديات » لشاعر تونسي مفلق ، وهو سعيد ابو بكر ، يبشرنا شعره الحي المبتكر ، المتقد اتقاداً بنار الحمية والوطنية ، بانبلاج فجر جديد للادب العربي في قطره .

وُلد سعيد في مدينة مكنين في تونس سنة ١٨٩٩ ، وتخرج في مدرسة قرآنية على النمط العصري . ما كاد يأخذ قسطه من دراسة لغة الضاد حتى احس بميل شديد الى الشعر ، فاكب منذ حداثته على قراءة دواوين طائفة من شعرائنا المبرزين ، ولا سيما خليل مطران ، شوقي ، حافظ ، بشارة الخوري ، دموس ، الملاط ، الزركلي والزهاوي . شرع ينظم القريض ، وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره ، فنشر في صُحف بلاده قصائد كثيرة ، معظمها وطنية ، رمى بها الى ايقاظ العاطفة القومية في قلوب مواطنيه ، فكان لها صدى بعيد في انحاء تونس وما جاورها من اصقاع المغرب العربي .

قد اذاع في تونس مثل شعرنا الحديث بمواضيعه الحية المتنوعة ، الصادرة من اعماق النفس ، لا من اسلة اللسان او اليراع ، فاحدث في سامعيه

وقرائه مثل هزة الكهرباء طوراً وانقضاض الصاعقة تارةً . لم يكتف باطلاق القريض من قيود المواضيع المبتذلة ، الباردة ، العقيمة ، بل حرره ايضاً في عدة قصائد من كبول وحدة القافية ومن عبودية الاوزان القديمة . ارهف احسانه ضرب الكمنجة حسه الموسيقي ، فقاده الى الابداع في نغمة الشعر ، فكان اول شاعر تونسي صاغ القريض على اوزان جديدة ، اقدم على استنباطها ومهر فيه مهارة اشهر شعرائنا الاميركيين ، من امثال ميخائيل نعيمه ، رشيد ايوب ، ايليا ابو ماضي ، نسيب عريضه ورشيد سليم الخوري . لم يبال بانتقاد المتعنتين اللاذع ، بل ظل مثابراً على جهاده النبيل لتحرير الشعر في وطنه ، فما لبث ان نشر مبادئه السديدة ، فحذا حذوه رهط من ائمة الشعراء في قومه .

هذا هو النابغة الذي اتيح لنا اكتشافه، وذلك ملخص حياته الادبية، على ان نظرة سريعة سطحية لا تكفي لمعرفته حق المعرفة وإحلال جهاده الشعري محل التقريظ اللائق به ؛ فلا بد من امعان النظر في ديوانه « السعيديات » لازاحة النقاب عن بدائعه .

قد طالعنا كل قصائده ، فاخذ منا الاستغراب كل مأخذ اذ لم نجد بينها شيئاً من نوع المدح او التهنئة ؛ اما الرثاء فتمثله قصيدة ، لا غير ، وكذلك الغزل . امر يُقضى منه العجب ، ولا سيما ان اكبر شعرائنا في الشرق الادنى قد جعلوا لتلك الابواب مكاناً رحباً في دواوينهم ، فكانت حصتها من الالهام السامي يسيرة في الغالب . لا يأبه سعيد ابو بكر لمثل تلك المواضيع التافهة ، فان شغله الشاغل حبه المضطرم لوطنه الصغير تونس خصوصاً ، ثم لوطنه الروحي الكبير ، الشرق العربي ، عموماً . تلك العاطفة المزدوجة ، ولا سيما بمظهرها الاول ، هي لحمة ديوانه وسداه ؛ ولو لم يوفق توفيقاً خارق العادة في تنويع التعبير عنها ، لاصاب قارئه الملل بعد مطالعة بعض قصائده . انما الوطنية في روح الشاعر كوتر من اوتار العود ، تُخرج

منه انامل العواد الحاذق نغمات عديدة .

فكرة الوطن ، الشغف به ، الغيرة على انتشاله من وهدة الذل واغرائه بالسير الحثيث في نهج المعالي ، ذلك هو المنهل الصافي الذي يستقي منه الشاعر التونسي الهامه ، فلا يكاد يدور في خلده ان يرد غيره من موارد القريض . مهما لفت انظاره من مشاهد الحياة او طرق مسمعيه من ضجتها المزعجة او الحانها المطربة ، فلا بد ان يحرك في اعماق روحه وتر الوطنية الحساس ، السريع الاهتزاز ، فتصعد الابيات من فؤاده الى شفتيه كنيران البركان المنفجر بغتةً ، وتندفق على محيطه كالحمم المتأججة ، المحرقة ، المندفعة كالسيل الجارف .

يشاهد طفلاً في مهده ، لا يكاد يميز ابسط الاشياء الماثلة امام عينيه ، فيحرضه على حب الوطن ، مبيناً له فرط انحطاط قومه وصائحاً به :

نما الخطب فينا ، فكن رجلاً ؛ وهاك اليراع لنفع الوطنْ !

في قصيدته « ايها الشعراء ، الى نهضة بالشعب قبل مماته » يناشد ارباب القريض ان يُعرضوا عن الثرثرة الموزونة ، واقفين فنهم السامي على اقالة الوطن من عثرته ، ويرشدهم بهتاف الحفيظة الثائرة

الى خدمة الاوطان ؛ قد ضيّع العلا بنوها وحادوا عن كمال وسؤدد !

يخاطب وطنه التاعس ، الراسف بقيود الهوان ، وقد الف بنوه الصغار وصُمت آذانهم عن نداء الساعين لتحريره ، فيقول له :

انت لي غير الرزايا لم تجد ، وانا غيرك حباً لم ارد !

في « الفتاة الباكية » يصور لنا وطنه برمز صبية اذبلت الشدائد شبابها النضير ، فساقتها الى مهاوي القنوط ؛ يحن اليها ويستطلع طلعها ، فتجيبه بصوت خنقته العبرات :

انا الغصن في زهر الشباب ، يقصه بقادومه الحطاب ، وهو مولولُ .

انا تونس الخضراء ؛ ويك ، الى متى عن السير في نهج العلا تتغافل ؟

كـأنك لا تلقى المعرّة اذ ترى بـلادك في خطب ولا تتقلقل !

يرى « زهرة فوق نعش » ، فيتذكر من فوره ان شعبه ميت مكفن بظواهر الحياة ، فيربأ بالزهرة ان تنفحه بعبيرها ، ويردعهـا عن ذلك الاسراف بقوله :

فلا تكوني جمالاً على صدور الرقـود !

كل تلك القصائد الوطنية وكثير من نظائرها ، مثل « افق الرزايا » ، « في سبيل الدستور » ، « انشودة الاعمى » ، « الوفاق الوفاق ! » ـ ومجموعها نحو ثلثي الديوان ـ ليست اقـوالاً موزونة مقفـاة ، بل صيحـات عالية ، متواترة ، لها رنة الحماسة الآمرة والناهية في صياح القـائد بجنوده الفاتري الهمة ، يدفعهم الى حومة القتال ؛ ونسمع فيها احياناً لهجة يأس الصائح باخيه الاعز ، وقد رآه فجأةً على حافة الهاوية .

بيد ان نظر سعيد الثاقب يتعدى آفاق وطنه التونسي الصغير ، جائلاً في انحاء وطنه الروحي الاكبر ، الشرق العربي ، فيراه على غير ما يتمنى له من سمو المقام ورقي الحضارة بين اقطار العالم المتمدن ، فيهيج ذلك المشهد المحزن وطنيته الكبرى الشرقية ، فلا يجتزىء بالنوح على تأخر الشرق وتفاقم بلاياه ، بل يستنهض حمية ابنائه للتضافر على رفع شأنه بين الامم العظيمة ، المسيطرة على اقدار بقية الشعوب . من ابدع آيات نظمه في هـذا الميدان « الشرق والسماء » ؛ يمثل فيها الشرق شاكياً الى السماء سوء مصيره ، بعد عزه الباذخ في ماضي العصور ، هاتفاً هتاف الحفيظة والاباء :

امثلي جدير بالاهانـة والشقـا ، وفي جسدي روح المعزة والفخر؟...
ايمكن ان اغدو الاسير ، ومقلتي تشـاهد في الاوكار حرية الطير ؟
اذن أنزلي فوقي صواعق نقمة ، فخير لديَّ الموت من ذلك الاسر !

بلهجة قاسية ، لاذعة ، يعيّر الشرقي بقعوده عن طلب المعالي ، خوفاً من وعورة مسلكها :

ايها الشرقي ، دُم في رقدتك ريثما يبدو لعينيك الصباحْ ! . . .
انت لا تدري لمعنى خلقتك غير كون الجسم والاعضا صحاح !...
انت من ادنى خيال تختفي ؟ انت روح ذللوها بالجمادْ !

كما سبقت الاشارة ، النغمة السائدة في موسيقى الشاعر التونسي المفلق انما هي تلك الوطنية المزدوجة ، التونسية والعربية . تلك العاطفة الملازمة لقلبه ، المتأصلة في اعماقه ، السارية في دمائه ، هي التي ابدعت لابناء لغة الضاد ديوانه الحي ، المطرب ، المستفز . هي التي اوحت اليه بحث مواطنيه على رفع مستوى المرأة التونسية ، بمنحها نصيبها الوافر من العلم والتهذيب ، كما فعل في قصائده « المرأة والاخلاق » ، « الزنبقة الذابلة » ، « ضحية الطمع » ، « المرأة والعلم » ، « حجور الامهات » ، « السجن الكبير » . هي التي مالت به الى العطف على فئة من اشقى ابناء قومه ، كاليتامى والمظلومين ، فخص بهم بعض منظوماته ، مثل « اليتيم » ، « حياة اليتيم » ، « ليلة في اصطبل » ، « حادث سوق الاربعاء » .

خلاصة القول ان وحدة الالهام الوطني المنبثق من روح مشتعلة بحب وطنيها ، التونسي والشرقي ، والتعبير عن ذلك الشعور النبيل بلهجة هاتفة ، نارية ، وتنوع شديد في المواضيع والخيالات ، بل في الاوزان ايضاً ، كل هذه المزايا تجعل سعيداً ابا بكر في مقدمة شعرائنا النوابغ الذين صاغوا القريض لاسمى غاياته ، ولا سيما لاثارة العاطفة الوطنية في آلاف من الشرقيين ، قد صلّبت قلوبهم الاثرة وعصور العبودية للاجانب ، فعدوا الوطن من سقط المتاع .

خليل مطران

قد احدث خليل مطران ، بجسارة مدهشة ، انقلاباً عظيماً في شعر اهل زمانه ، بل في الشعر العربي على وجه الاطلاق . حين دخل ميدان القريض ، كان هذا الفن ـ وهو ملك الفنون الجميلة قاطبةً ـ قد هوى عندنا الى اقصى دركات الانحطاط . كان اكثره تافهاً بمواضيعه ، مبتذلاً بتعابيره ، يكتفي اصحابه المتشاعرون بان يستظهروا شعر الاقدمين ، منتزعين منه رقعاً يضمون بعضها الى بعض ويؤلفون بها منظوماتهم الخالية من الحقائق السامية والعواطف النبيلة والخيالات الجديدة ، فليس لها ، والحالة هذه ، من الشعر الا اسمه .

وقف خليل مطران باكياً ، نادباً ، متوجعاً امام قبر الشعر العربي ، يتنشق مرغماً روائح الانحلال الكريهة ، الفائحة من جثته الهامدة ، فنفخ فيها نفخة شديدة من روحه العبقرية ، فبعث من اللحد ذلك الميت المكفن منذ قرون بكفن الجمود والابتذال . نظم قصائد عديدة ، معدنها الشعر المحض من الطراز العالي ، شعر الحقيقة والخيال والشعور باسمى معانيها ، شعر لم يألفه قط العالم العربي العصري ، فانقسم عند سماعه الى فئتين ، احداها اقلية زهيدة من المعجبين به ، والاخرى اكثرية ساحقة من النافرين المتعنتين . ولم تزل الاولى تتكاثر والثانية تتضاءل الى ان طار صيت الشاعر البعلبكي المجدد في كل آفاق العالم العربي بل في المهاجر ، فاقر له اعلام الادباء بالنبوغ في فن القريض .

قال حافظ ابراهيم في شأن مطران : « هو في طليعة اولئك الذين « خرجوا عن افق التقليد وصدعوا قيود التقييد ، واوسعوا صدر الشعر « العربي للخيال الاعجمي ، وافسحوا فيه للقصص وتصوير الحوادث ، « وطوفوا لسرد وقائع التاريخ ، ففتح بذلك فتحاً جديداً ، شن به الغارة على

اهل الحفاظ والتمسيك . »

ما الذي جدده مطران في الشعر العربي ؟ كل شيء ما عدا الاوزان . جدد المواضيع والتعابير ، فحسبه بذلك فضلاً ومجداً عظيمين ، يخلدان اسمه في تاريخ ادبنا الناهض .

اكب على النظم ، وهو في شرخ الشباب ، ثم احجم عنه « لانكاره طريقته وجهله حقيقته » ، كما اعترف في مقدمة ديوانه ، « ديوان الخليل » المطبوع في القاهرة حول سنة ١٩٠٨ . ثم عاد اليه ، « وقد نضج الفكر واستقلت له طريقة في كيف ينبغي ان يكون الشعر » ، فاصلحه وانعشه بعبقريته النادرة وجرأته المدهشة . رأى جُل المواضيع الشعرية ، ان لم نقل كلها ، قد انحصرت في دائرة ضيقة ، سافلة ، خانقة ، دائرة الغزل التافه ، والتزلف الى سراة القوم بمدح الاحياء منهم ورثاء الموتى ، والنوح العقيم على اطلال مجد العرب الاقدمين . اين الشعر الحقيقي من هذه الترهات ؟ رأى ذلك الانحطاط المخجل ، فلم يبق امامه متوجعاً ، مطرقاً ، مكبل اليدين ، بل عقد نيته على اقالة عثرة قريضنا ، وادرك ان الاصلاح الحقيقي يتناول جوهر الاشياء قبل اعراضها ، فاقدم على تجديد كنه الشعر ، نعني مواضيعه .

ما الشعر الامثل ، اذا سبرنا غوره ، سوى فكرة سامية او عاطفة شريفة تجسمت في حادثة او مشهد او خيال ، فاصبحت بذلك التجسد قادرة على هز نياط القلوب ، بولوجها من ابواب الحواس . كل ذلك قد فهمه مطران بنظره الثاقب ، بل اخرجه الى حيز الوجود في ديوانه ، فجاء حافلاً باجمل القصائد الروائية والوصفية والخيالية ، منطوياً في الغالب على مغزى سديد او شعور نبيل رقيق . يضيق المجال عن خوض ذلك العباب ذي الهدير الموسيقي المطرب ، فنجتزىء بالاشارة الى بعض امواجه الثائرة البديعة الالوان ، تنعكس على جنباتها اشعة الحياة ودياجيها على التوالي ، بتنوع وابتكار عجيبين .

من احسن قصائد مطران الروائيـة « فاجعة في هزل » و « زفاف ام جنازة ؟ » تهولنا فيهما مفـاجآت الحمام لبني آدم الغائصين في لجج المسرات والملاهي . « نابوليون الاول وجندي يموت » يتجلى فيها تنازل عاهل عظيم ووفاء جنديه الباسل . « مقتل بزرجمهر » يرينا فرط استبداد ملك جبـار غشوم ، واقصى دركات الاستعباد والذل في شعبه . على هذا المنوال ذاته حاك شاعر القطرين القصـائد « ان من البيان لسحراً » ، « شهيد المروءة » ، « العصفور » ، « وفاء » ، « العقاب » وعشرات من امثالها .

اما وصفه فهو نسيج وحده بدقة التصوير وحرارة العاطفة المندمجة في لحمته وسداه ، سواء اكان مقتبساً من حوادث التاريخ ام من مشاهد الطبيعة ام من الامور اليومية المبتذلة ، فيصوغ منها الشاعر المفلق جواهر قريضه . من طالع وصفه لمعركة واترلو الشهيرة ، فكأنه قد شاهد حومتها الرائعة بين دوي البنادق وقصف المدافع . من قرأ « قلعة بعلبك » خُيل له انه يعاين ابنيتها الجليلة واعمدتها الهيفاء الشاهقة ، هندستهـا المعجزة ، منحوتاتهـا الفاتنة ، وما تجسم في كل تلك البدائع الفنيـة من عظمـة الفينيقيين وسمو حضارتهم . في قصيدة « الاهرام » نرى ذواتنا منذ مطلعها قـد انتقلنا بغتةً ، بقوة مخيلة الشاعر المندفعة بنا كريح هوجاء ، الى القرون القديمة التي زانت فيها وادي النيل تلك الصروح الجبارة ، المنتصبة على توالي الاجيال ، شاهدةً على كبرياء الفراعنة وذل رعاياهم

صُفر الوجوه ، نادياً جباهم ... كالكلإ اليابس ، يعلوه الندى ؛
محنيةٌ ظهورهم ، خُرس الخطى ، ... كالنمل دب مستكيناً مُخلدا ؛
مجتمعين ابحراً ، منفرعين انهراً ، ... منحـدرين ، صُعّـدا .
اكل هذي الانفس الهلكى غداً ... تبني لفـان جدثـاً مخلّدا ؟

ذلك التصوير الحي ، البديـع الاشكال والالوان ، الآخذ بمجـامع القلوب ، كثيراً ما نجده في ديوان الخليل ، مثلاً في « تشييع جنازة » ،

« وداع وسلام » ، « عود من الصعيد » ، « وفاة الملكة فيكتورية » ، ولا سيما في « المساء » التي نعدها من اجمل ما نظمه نوابغ الشعراء في اشهر لغات العالم .

لا تحتاج مخيلة مطران القديرة الى اقتباس مواضيع شعره من الحوادث او المشاهد ، فانها تستطيع اخراجه من خزائنها الحافلة بانواع الآيات ، كما نرى في « السور الكبير في الصين » ، « النرجسة » ، « الزهرة » ، «فنجان قهوة» ، « الطفلة البُويرية » و « مغيب في البزوغ » . حتى في معالجة المدح والرثاء اللذين تدعو اليهما الشاعر بعض الظروف ، يبذل قصاراه في حلهما من ربقة التقليد والابتذال ، للتعبير بواسطتهما عما يدور في خلده من افكار عالية وما يخفق في قلبه من عواطف نبيلة . مثال ذلك ما جاء في آخر رثائه لاسماعيل بك عاصم ، وكان قد مات غريقاً :

وبما نقمنا من صروف زماننا ، سيُديلنا منها القدير الدائمُ ؛
ان الذي وارى شقيقك فاختفى فيه ، ولم يعثر عليه الرائم ،
سيغوله بحر الفناء كقطرة ويُسيغه العدم الشروب الهاضم!

تلك التفاصيل الموجزة ما هي سوى حفنة من كثيب التجديد الرائع الذي احدثه شاعر القطرين في مواضيع القريض ، وقد توخاه بهمة قعساء لا تهولها العقبات ، وبنبوغ نادر المثال تحتم على الد الخصوم تعظيمه ؛ فلا بدع بقول مطران في آخر مقدمة ديوانه : « لذلك عملت وذلك منتهى ما امّلت ، « فان الناس ركب شقاء وسفر[1] هيماء ؛ فما اسعد حاديهم - وهو الشاعر - « اذا حدا ، ان يحس لنغماته ، عند اخوانه في المسير رنة وصدى . »

لقد اوضحنا ان مطران نفخ روح الحياة ، بل حرارة الشباب ، في جثة الشعر العربي الراقدة منذ عصور في جمود الموت ، وقد صنع تلك المعجزة على الاخص بتجديد المواضيع الشعرية وجعله في دائرتها رواية الحوادث التاريخية ووصف المشاهد الطبيعية الى غير ذلك من المواد الحية الشائقة ، التي لا قوام

(١) سفر ، بفتح السين وتسكين الفاء ، جمع سافر المرادفة لمسافر .

للشعر المحض بدونها ، كما نرى في ارقى الآداب الغربية . قد احدث مثل ذلك التجديد المدهش ، الذي تقتضي صعوبة انجازه جيلاً كاملاً من الشعراء المفلقين ، لا فرداً من نوابغهم ، في اساليب التعبير الشعري ، بجسارة وحسن ذوق في الابتكار جارى فيهما اعظم شعراء الغرب .

الابتذال في التعبير من اكبر شوائب الانشاء النثري ؛ فكيف يطيقه القريض ، وهو اجمل انواع الكلام ؟ قبل مطران كان شعراؤنا المحدثون يلوكون على الدوام اقوال زملائهم الاقدمين ، فتخرج من افواههم تافهة ، منتحلة ، يمجها الذوق السليم ولا يشفع فيها رونق الوزن والقافية ، لان جمال الاعراض لا ينوب قط مناب حسن الجوهر . كانوا لعجز مخيلتهم وسوء فهمهم سنن الادب ، يزعمون الابتكار في التعبير ، ولا سيما في الخيالات ، خروجاً شائناً على عروبة اللغة ، ومن ثم على بلاغة الانشاء ؛ فلا تزال الجبال « شامخة » في قصائدهم ، والنسيم « عليلاً » والزهور « نضيرة » والظلال « وارفة » ، كأن هذه الصفات ضربة لازب في موصوفاتها ، بل كأن الطبيعة الرائعة بدوام التنوع في حياتها وحركاتها ، قد جمدت جمود قرائحهم العقيمة .

بجرأة مدهشة قد شن الشاعر البعلبكي الغارة على ذلك الجمود المحاول التنكر بادعائه احترام اللغة وتقاليدها ، وما هو في عين البصير سوى نوع من اقبح انواع الكسل العقلي والادبي . قد اعلن له مطران حرباً ضروساً في مقدمة ديوانه حيث يقول انه عاد الى نظم الشعر بعد الهجر الطويل موافقاً زمانه على ما يقتضيه من الجرأة في الالفاظ والتراكيب « لا يخشى استخدامها « احياناً على غير المألوف من الاستعارات والمطروق من الاساليب » .

ليس الفضل بالقول الفارغ والادعاء الكاذب ؛ لقد اخرج مطران في قصائده التي تحصى بالمئات ، ذلك البرنامج الجسور الى حيز العمل ، على وجه لا يترك زيادة لمستزيد . هذا ما نقصد الآن ايضاحه بكثير من الشواهد الجلية ، قاطفين من بستان ديوانه بعض اجمل الزهور ، ليطرب القراء

بعبيرها اللذيذ المنعش .

من افتن حُلى التعبير الشعري الخيال ، ولا سيما اذا لبس حُلة التشابيه والاستعارات الجميلة المبتكرة ، الخالية من التصنع ، فانه حسن زائف . خذ « ديوان الخليل » وتصفّح اية قصيدة وقعت تحت نظرك ، تجد فيها شبه معرض صغير من تلك الحلى النفيسة ، التي ظل شعرنا الحديث عاطلاً منها الى اواخر القرن التاسع عشر . سواء اوصف مطران مشاهد الطبيعة ام مواقف النفس البشرية ، ام احقر الاشياء المبتذلة ، فانه يمثلها تمثيلاً حياً كأنك تراها امامك ، ويعبر لك عن محاسنها الظاهرة ورموزها الخفية تعبيراً جديداً بديعاً ، لا عهد لك به ، ولو قرأت كل قصائد اسلافه المبرزين واستظهرت جميع ابياتها . اليك بعض الامثلة على ذلك الابداع النادر في تصوير مطران للاحوال النفسية . يصف سهده الاليم بقوله :

أرى مثل سهديَ في الكوكب ؟ احل به مثل ما حل بي ؟
يهيم هيامي من وجده ويهرب من مهده مهربي ،
ونجتاز هذا الفضاء الرحيب الا بنا ، فهو لم يرحُب .

يقول عن آخر كلمات محتضر شرب كأس الاحزان حتى الثمالة :

كلمٌ كستهن الكآبة لونها ، فحكين انوار الزوال غروبا .

يقابل راحة القبر بعناء الحياة ، فينشد :

القبر افضل للفتى من مضجع فيه يقلّب موجَعاً تقليبا ،
وجلامد الارماس اهون محملاً من ان يحمّل مثلهن كروبا .

يصور لنا حرص والد حنون على صيانة حياة ابنه المدنف ، بقوله له :

أنشقه روحك واسقه ما قطّرته مقلتاكْ ،
واجعل ضلوعك دفئه ، وغذاءه باقي قواك ،
واخبأه خبء العين في الجفنين ، ما شاءت مُناك !

يبوح لنا بخوفه من الحمام ، وهو على حافة قبر جديد :

وقفت على القبر الذي انت نازلهْ وقوف جبان باديات مقاتلهْ !

يصف لنا حالة الضنى الشديد التي افضى به اليها مرض ثقيل الوطأة :

قلبٌ اذابته الصبابة والجوى ، وغلالةٌ رثّت من الادواء ؛
والروح بينهما نسيم تنهد في حالة التصويب والصُعداء ،
والعقل كالمصباح يغشى نورَه كدري ويُضعفه نضوب دمائي !

مفاجأة الفرح للملهوف ، بعد طول اساه ، هي في نظره

كشموس ايام الشتاء ، اذا انجلت ، عاد الضياء مضاعَف اللألاء .

يقول عن الطفلة المرحة التي لا يقر لها قرار :

كل مكان تكون فيه يقلقه وثبها مرارْ ،
كأنها طائر حبيس في قفص يبتغي الفرار .

يصف اثارة اللطف لكامن الآمال في قلب البائس ، بقوله :

ويقيم الآمال في النفس كالنور يُحيل البزور زهراً انيقا !

يسخر بذل شعب راض بالاستعباد ؛ فيصيح :

واذا اذبت الشحم عن اجسامهم تعباً ، فان نفوسهم لا تتعبُ !

ويصور لنا رثاءه امام ملكه الغشوم :

يُبدون بشراً ، والنفوس كظيمة يجفلن بين ضلوعهم اجفالا ؛
تجلو اسرتهم بروق مسرة ، وقلوبهم تدمى بهن نصالا .

يصف سحر البيان بقوله لاحد المحامين البلغاء :

رب جمع وقفت فيه خطيباً ، انصتت في صدوره الاكبادُ ؛
هكذا البحر يملأ الحسَ روعاً وجلالاً دويّه الهدّاد ؛
هكذا السيل قاذفاً ماءه المبيض ، حتى يُظن فيه اتقاد !

يبدي مثل تلك المقدرة العجيبة على ابتكار مئات من الخيالات والاستعارات ، في وصف محاسن الطبيعة . بل نراه في طليعة شعرائنا القليلين الذين ذاقوا جمال الكون المادي واستطاعوا تفصيل روائعه والترنم

بها . تأملوا وصفه لنرجسة ذابلة :

ذبلت وحلاها الندى ، فكأنها عينٌ اسال الحزن منها مدمعا .

يصور لنا انعكاس انوار المصابيح في بُحيرة روضة :

وضياءٌ يموج في الماء حتى لنراه كأنه متلاطمْ .

يصف لنا تنوع الوان اشعة شمس الربيع باختلاف مهابطها :

تبعث الشمس باهرات شعاع تغتدي في انحدارها شبه رُبد ،
فهي في الافق تارةً مسحاتٌ من بهار ، وتارةً نثر ورد ،
وهي بين الغصون نسجٌ دقيق من نضار يشف عن لازورد .

يصور لنا حمارّة القيظ الثقيلة الوطأة في صعيد[1] مصر :

اوقد الصيف في الصعيد لظاه ، فأجف الحقول والآجاما ،
وغدا الناس بين جو كثيف متردٍّ من الغبار غماما ،
وفلاة كأنما الرمل فيها شرر مُد ، لمعةً واضطراما .

يرى الباخرة التي تمخر في عباب البحر ليلاً

كأنها في سعة الفضاء جنازةٌ لميّت الاحياء ،
بمشهد من عالم الاضواء ، في مترائى البحر والسماء .

يشاهد في البحر الهائج ، المتلاطم الامواج ، رمزاً لاضطراب روحه ، وهي فريسة البلايا والاحزان :

والبحر خفّاق الجوانب ، ضائقٌ كمداً كصدري ساعةَ الامساء ؛
تغشى البريةَ كدرةٌ ، وكأنها صعدت الى عينيَّ من احشائي .

يرى في غروب الشمس احتضار النور الزائل ، فيقول عنه :

اوَ ليس نزعاً[2] للنهار وصرعةً للشمس بين جنازة الاضواء ؟

ويُذكره افولها قرب الاجل المحتوم ، فيهتف بقلب كئيب :

مرت خلال غمامتين تحدراً وتقطرت كالدمعة الحمراء ؛

---

(١) الصعيد اسم اطلقه المصريون على قسم بلادهم الجنوبي — (٢) نزاع .

فكأن آخر دمعة للكون قد مُزجت بآخر ادمعي لرثائي ،
وكأنني آنست يوميَ زائلاً ، فرأيت في المرآة كيف مسائي !

عبقرية ابتكاره تتجلى على الوجه الاكمل في مقدرته على تنويع وصفه لشيء واحد ؛ وكثيراً ما نرى ذلك في « ديوان الخليل » . حسبنا ان نذكر ، تأييداً لرأينا ، بعض ابياته في شأن الموت ، وقد سماه في احدى قصائده « الهجعة السوداء » . يقول في رثاء فيكتورية ملكة انكلترة :

كأن نجوم الليل حراس نومها ، وانوارها شبه الدموع تسيل ؛
كأن بزوغ الشمس بعد احتجابها ، لتنظر حال الحسن كيف تحول !
كأن جنود البر سارت بنعشها جبال رمال تعتلي وتهيل !

وعلى وفاة اميرة مصرية :

فقد صعدت نفس الاميرة في الضحى الى الله ، واستُودعتمُ صدف الدر .

وعلى اخترام الموت لفتاة :

وقبّلها فاستل جوهر روحها ، وابقى على رسم كبعض الدمى الغُر !

وعلى راهب عاجلته المنية في شرخ الشباب :

صلى صلاة الصبح من عمره ، ثم على الاثر صلاة الغروبْ !

يرثي صديقاً فيصور في بيت واحد سرعة زوال حياته :

اقبلتَ من عدم ورحت مسلماً ، فمودعاً ، فمفارقاً ، فرميما !

يصف لنا جشع الموت في اغتياله الدائم لآلاف البشر :

وما القبر الا حلق غرثانَ هاضمٍ من الموت ما يُلقى به ، فهو غائلهْ !

تلك نموذجات عديدة لآيات ابتكار مطران في التعبير الخيالي ، ولا يفوقه فيه اشعر شعراء الغرب ذوي القصائد الخالدة . ذلك الابتكار المدهش يساوي ابداعه للمواضيع اللائقة بالقريض والمفسحة اوسع مجال لتحليق المخيلة وتسامي الفكر . ما الفائدة من ايجاد مادة جديدة للنظم ، اذا افرغها الناظم في قوالب التقليد والابتذال ؟ بذلك التجديد الجريء للمعاني والخيالات قد

انهض شاعر القطرين قريضنا الحديث من كبوته ، فرفعه الى مثل مستواه عند ارقى الشعوب . وان حذا حذوه عدد غير يسير من شعراء جيلنا في انحاء العالم العربي ، فله فضل القائد الفطن المقدام ، وحسبه مأثرةً جليلة تخلّد اسمه في تاريخ ادبنا الحديث .

بشارة الخوري

من يجهل بشارة الخوري من الواقفين على حركة ادبنا العصري ، ولو لم تظلهم سماء لبنانه الصافية الزرقة والشفافة الضياء في اكثر الاحيان ؟ يعرفونه كل المعرفة ، ليس بصفة منشىء جريدة « البرق » فقط ، وقد اسسها سنة ١٩٠٨ في بيروت صحيفةً اسبوعية ، فصارت يومية سنة ١٩١٩ ، ثم تحولت الى مجلة اسبوعية سنة ١٩٣٠ ؛ بل يعرفونه ايضاً بلقب الاخطل الصغير ، فانه شاعر غزير المادة ، شديد الابتكار في كثير من قصائده المنتثرة في صُحف العالم العربي ومهاجره . انما غايتنا الآن نقد ذلك الشعر ، فقد وقع منه تحت نظرنا عدد كاف من النموذجات المختلفة لنبدي فيه رأينا .

عالج بشارة بدرجات متباينة من الاجادة اكثر انواع الشعر العصري ، وفي مقدمتها الروائي ، الذي وصف لنا به غابر الحوادث ادق الوصف ، تنعشه عواطف الناظم الحارة ، فكأن شطراً من الماضي قد برز امامنا في نور الحياة ، خارجاً من ظلمات الموت والخفاء . من اجمل قصائده في هذا الميدان « آتيلا والشاعر » ، يصور لنا فيها ذلك الفاتح الطاغية ، القتول والهدّام ، تصويراً بديعاً بايجازه ، قائلاً عنه انه لم يكن « سوى نقمة الله وسيف الغضب ، ملأ الايام هولاً ودماً ! » اتاه ذات يوم شاعر من الرومان ، يتزلف اليه بتعظيمه وتمليقه ، فاستاء الجبار من نفاقه وفرط تذلله .

قال آتيلا : « اجمعوا لي حطباً واربطوا من فوقه هذا الغبي . » ...
« ويك ! » ناداه « لئن ترجع الى الكذب ، احرقك جزاء الكذب ! »
لو بُلينا باتيلا ساعةً ، لشكونا من نفاد الحطب !

في ذلك البيت الاخير ما فيه من التهكم المضمر اللاذع بقوم من بني الشرق قد بالغوا في تعفير وجوههم امام العظماء استجداءً وطمعاً بحمايتهم القديرة .

كذلك قد ابدع كل الابداع في « سقوط السلطان عبد الحميد الثاني » . في هذه القصيدة من ادق تفاصيل الوصف ما ينافس ريشة ابرع المصورين . بعد احياء مشاهد ظلم ذلك العاهل المستبد لرعاياه ، وهبوطه من اوج عزه الى مهواة الذل والاسر ، يخاطبه الشاعر بهذه اللهجة البليغة المؤثرة :

كنت تُبكي ، فصرت تبكي ، وعهدي بك ، عبدَ الحميد ، غير بعيد !
يا ليالِيه في سلانيك ، قولي لليالي في يلدز[1] : « لن تعودي ! »
يا ليالِيه ، لا تُريه ضحاياه ، فتعروه رعشة الرعديد ؛
وارحميه ، فالشيخ هاو ، وما للشيخ من طاقة على التسهيد .
كان بالامس ، والبرايا عبيد ، فغدا اليوم صاغراً للعبيد !

رواية « عروة وعفراء » الشعرية جديرة ايضاً بان تحصى بين فرائد القريض القصصي الحديث ؛ من لم يطالعها كلها فلا يسعه ان يقدرها بواسطة الابيات القليلة التي يقسرنا ضيق المقام على الاجتزاء بايرادها . موضوع تلك القصيدة ان الفتى عروة قد وعده عمه وعداً كاذباً بان يزوجه بنته عفراء ، وانما سبب تلك المماطلة فقر الشاب . ثم اراد عمه ابعاده حتى يعقد لسليلته قراناً آخر ، فاشار على عروة بالسفر الى الشام سعياً وراء تجارة رابحة ، وانتهز فرصة غيبته لاختيار زوج آخر لعفراء ، وهو اثالة الوافر الثروة .

---

(١) اسم قصر من قصور السلاطين في الاستانة . يقتضي وزن هذا البيت لفظ هذه الكلمة - وهي تركية ، معناها كوكب - بتنوين الجر .

بلغ عروة ذلك النبأ الفاجع ، فطارت نفسه شعاعاً ، بل كان هول تلك المصيبة سبب موته العاجل . فاستأذنت عفراء بعلها في ان تحج قبر قريبها ورفيق صباها ومحبوبها الوحيد ، فنزل عند رغبتها . هنا ينشد الاخطل الصغير في ختام تلك الرواية الشعرية :

فما هي غير بعض ثوان ——————

حتى رأيتَ بقبر عروةَ بانةً محنيةً ـ وا لهفتا للبان ! ـ

وسمعت اية زفرة وشهدت اية ثورة ولمست اي حنان !

« وا عروتاه ! » ولم تُتم نداءها حتى ارتمت ، فاذا هنا ميتان !

ضموا الفتاة الى الفتى في حفرة ، من فوقها غصنان ملتفان :

روحان ضمهما الهوى فتعانقا وتعاهدا ، فتعانق الكفنان !

« الريال[1] المزيف » آخر مثال فتان نذكره من ذلك النوع الروائي . يقص علينا الخوري في تلك القصيدة حادثاً اليماً جرى في وطنه ابان الحرب العالمية الاولى . امرأة تركها زوجها في الفقر المدقع وانضوى الى الجيش ، وكانت لها طفلة كاد المرض يوردها حتفها ، وقد حال املاق امها دون شراء الادوية اللازمة . ثم سام عرضها نذل رآها في ذلك الموقف الحرج غنيمة باردة بين يديه ، فاوهمها الشيطان الرجيم وحنانها الوالدي سواغ الانقياد لذلك المجرب الوغد ، فسقطت في حبالته . بعد قضائه نهمته ارادت تخفيف آلام بنتها بالريال الذي باعت به ماء وجهها ، فاذا هو زائف ؛ فيا لمرارة خيبتها ، وقد زادت فدح عارها ! هي رواية حادث مبتذل قد شاهد الملوان آلافاً مؤلفة من امثاله ، على ان قريحة الشاعر قد صاغت به قصيدة من اجمل القصائد ، رائعة باجادة الوصف وبكثرة الخيالات الجديدة ؛ دونكم ابياتها الاولى :

ويح الفقير ! فما تراه يلاقي ؟ سُدت عليه منافذ الارزاق ؛

(١) اسم قطعة من النقود المصرية تساوي عشرين غرشاً مصرياً .

عصفت به وبسربه ريح الشقا ، فتساقطوا كتساقط الاوراق !
فاذا بصُرتَ به ، عجبت لشمعة كالزعفران تجول في الاسواق ؛
علق المجاعة مص بعض دمائه ، وتعسّف الحكام مص الباقي !
اخذ الشقا يدها فسارت خلفه ، والليل ممدود على الآفاق ؛
سارت فماس الخيزران بقدها ، ورنت فذاب السحر في الاحداق !
وتلوح آثار النعيم بخدها كالفجر قبل تكامل الاشراق .

لبشارة الخوري في الشعر الوصفي المحض تُحف من ذلك الطراز العالي الذي ذكرنا شيئاً من بدائعه في الروايات . هاكم بعض اجمل ابياته « في شاب مسلول » :

عيناه عالقتان في نفق كسراج كوخ نصف متقد ...
تهتز انمله ، فنحسبها ورق الخريف اصيب بالبرد ...
يمشي لعلته على مهل ، فكأنه يمشي على قصد[1] ،
ويمج احياناً دماً ، فعلى منديله قطع من الكبد ! ...
قطع تقول له « تموت غداً » ، واذا ترق تقول « بعد غد » !
والموت ارحم زائر لفتى متزمل بالداء مغتمد !

اما اجمل قصيدة له في الوصف ، من التي عثرنا عليها ، فهي « المهاجر » ، وان لم تخل من بعض الشوائب . جمالها قائم على الاخص بوفرة الخيالات المبتكرة الطبيعية . يقول الناظم في اولها مخاطباً المهاجر :

اشجاك انك رائحٌ لا ترجعُ ، وهواك والاوطان بعدك بلقعُ ؟
متلفت ؛ ما تبتغي ؟ متوجع ؛ ما تشتكي ؟ متنصت ؛ ما تسمع ؟
تلك الزغاليل التي غادرتها جف الثُدي وماتَ عنها المرضع !
لا الريش مكتمل ، ولا اوكارها خُضر ولا السجع البكيّ[2] يشفّع[3] !

---

(١) القصد من الموسج ونحوه هو اغصانه الناعمة — (٢) الكثير البكاء — (٣) تقبل شفاعته .

ولكنت تسفك ناظريك ليرتووا وتُذيب قلبك في يديك ليشبعوا !
جرس الكنيسة لو تكلم لاشتكى ولبان فيه ، مذ نأيت ، تصدع !...
الجوزة الخضراء بعدك صُوحت[1] الا وُريقات تكاد تودع ،
تفضي الى النسمات في غدواتها عما تكابد في نواك وتجرع ،
لو في الالى خذلوك بعض حنانها ، لتقصفت جزعاً عليك الاضلع !...
لله انت مغرّباً[2] ومشرقاً ، تذريك عاصفةٌ واخرى تزرع ،
حتى اندفعت ، فكل صخر روضة - سلمت يداك - وكل افق مطلع ،
وفتحت فتح العبقرية تاركاً في مسمع الدنيا صدى يترجع !

قد اجاد الخوري صوغ الشعر الوطني اجادته الرواية والوصف ، ولا سيما في نشيد لبنان ذي الوزن السريع كخطى جيش حامل على العدو ، او كصيحات عالية متتابعة مثل قصفات الرعود ، ملتهبة بنار الحماسة ، ملؤها الافتخار بمجد لبنان والغيرة على الذود عن حماه . هاكم لازمته ودورين منه:

لبنانْ ، لبنانْ !
حرمَ الارز ، علمَ المجد ، وطن الاحرارْ ،
سلامْ !
الجمال رصّعا بازاهير رُباكْ ،
والجلال توجا بمصابيح هُداكْ !
واليراع والحسامْ في الملمات الجسامْ ،
كل آنْ ، كل آنْ
ذائدان عن عُلاكْ ، حارسان للواكْ !
نحن في السلم ابتسامْ وصفاء ووفاءْ ،
واكفٌ من غمامْ ووجوهٌ من حياءْ ،
واذا دق النفيرْ ، نملأ الغاب زئيرْ

(١) جففتها الشمس او الريح - (٢) المغرّب هو المتجه الى الغرب .

وحـديداً ودخانْ !

مات من رام اذاكْ ، عاش من مات فداكْ !

تلك اجمل انواع الشعر الـتي عالجها الاخطل الصغير ، وكثيراً ما بلغ فيها ، ولا سيما بالطبيعية والابتكار ، ذروة من النبوغ لم يدركها معظم شعرائنا العصريين . على انه لم يتمالك عن الاقتداء بهم في نظم قصائد المدح والرثاء عند سنوح الفُرص ، وهي اكثر من ان تُعد في الشرق العربي . والحال ان كل خبـير في كنه القريض وسمـو غايته بعلم العـلم اليقين انه بعيد عن المدح والرثاء بُعد الثُريا عن الثرى ، الا في بعض الظروف النـادرة التي يفيضان فيها عفواً من اعماق فؤاد الشاعر ، لا من شفتيه او اسلة يراعه فقط . بذلك الاكثار من تعظيم الاعيان في حياتهم وندبهم بعد مماتهم ، قد ضم الخوري الى درره اليتيمة ، الجديرة باعجاب الثقات ، كمية كبيرة من اللؤلؤ البهرج الذي لا يروق سطوعه الا عيون الاغرار . من امثـال خطل الاخطل الصغـير قصيدته للترحيب بملك العراق الطفل ، فيصل الثاني ، عند قدومه الى لبنان للاصطياف سنة ١٩٣٩ . نجد فيهـا من انواع المبالغة والتصنع ما يوهمنا ان ناظمها ليس بشارة الخوري ، الشاعر المبدع الصادق الشعور ، بل سمياً له . في البيت الثاني يخاطب سيارة الضيف الجليل ، صائحاً بهـا ، وهو لا يأبه لتكلفه المضحك :

يا سليل البخار ، كم من فـؤاد ود لو كان بين جنبيك وقدا !

ثم يتطرق بمثل ذلك التصنع الى ذكر النكبة الـتي اودت بحياة والد فيصل الثاني ، وهو راكب سيارته في احدى ليالي نيسان ١٩٣٩ :

يا ابن من اذهل النجـوم اذ انقض شهابـاً على الـثرى وتردى ،
ما نسينا جرحاً على الليل ، امست فحمة الليل منه جمـراً وندا !
قطعت شعرهـا الكـواكب كي تمسح جرحـاً وكي توسّد خـدا ،
وانحنت كل نخـلة كجنـاح اخضر الريش ، ودّ لو كان زندا .

نجد تلك العيوب ذاتها في رثاء الخوري لوديع عقل :

العبقرية ، ما حييتَ ، جنايةٌ ؛ فخذ الذمام لها من الالحـــاد ؛
تمشي على حسك الصدور وشوكها وتُلف بعد الموت بالاوراد !

وايم الحق اننا لعاجزون عن تصور حقيقة ذلك المشي الغريب . ثم يبدي الناظم رأياً اغرب ، فيزعم ان العدم خير الانسان من الحياة :

تالله ما معنى الوجود ـ وحكمه حكم الفناء وامره لنفاد ـ
الا مشقات الطريق الى الثرى بين الاسى وتفتت الاكباد !

ان حياتنا ليست خيراً من العدم فقط ، بل هي من اسمى عطايا خالقنا الحنان ، اذ ننال بحسن استثمارها حق مشاركته الى الابد في سعادته الفائقة كل الادراك ؛ ولا نظن الخوري الا على هذا الرأي . يقصد تعظيم وديع عقل ، فيلجأ الى المبالغة المقرونة بالتصنع في الخيالات :

ايقام وزنٌ للبيان ، وقد رمى سهم المنية منه قلب الضاد ،
فتقطعت مهجٌ وفاضت اعينٌ رمت الخدود بكل اوطف[1] صاد ؛
مطرٌ كما انتثر الجمان على اللظى وتكسر البلور[2] في الاجياد !

لا نرى مثل تلك المغامز في رثائه لنصير المرأة الشهير ، المرحوم مختار بيهم . فنعلل ذلك بكون الشاعر قد اخرج ذلك الرثاء من صميم فؤاد مفعم باحر عواطف الاجلال والمحبة للفقيد العزيز ، فأتت قصيدته مضطرمة بلهيب شعوره ، مزدانـــة بابدع حُلى الابتكار الطبيعي ، ولا سيما اذ يندب بيهم قائلاً عنه :

الذي كان خادماً لبلادهْ الذي كان جذوةً تتوقدْ ،
الذي كان صافياً كالغدير ، الذي كان ماضياً كالمهنَّد !
الهميني ، يا ربة الشعر ، شعراً كالنور والنارْ ،
كالهوا ، كالاطيار ، كالفكر حراً ، كنفس مختار !

---

(١) نعت للسحاب الداني الى الارض ـ (٢) البلور استعارة بمعنى الدمع .

كالاعاصير ، ان دعته البلادُ وخافت العـــار ؛
كالازاهير ، ان دعاه الوداد وحرمة الجـار !

حبّذا الرثاء الصادق ، الآخذ بمجامع القلوب ، فانه آية في نوعه !

قد اطلنا الكلام في تحليل معاني شعر الاخطل الصغير ، مع التمييز بين غثها وسمينها . اما تعبيره فهو على جانب عظيم من العروبة ، بغض النظر عن بعض فلتات قلمه السيال ، كاستعمال جوانح بمعنى اجنحة ، ووديان بدلاً من اودية . نجد ايضاً في انشائه من الوضوح والانسجام ما يستحق اوفر التقريظ ، ولا سيما ان اكثر شعرائنا ذوو مؤونة يسيرة من هاتين المزيتين ؛ ولا بدع بذلك فان الغموض والتعقيد لا يُتعبان قرائحهم المتكاسلة ، فيصوغون عشرات من الابيات بدون عناء يُذكر ، ناسين او متناسين ان قيمة السلعة المادية او الادبية تقاس بما كلّف إحداثها من جهد الاتقان .

يسرنا ايضاً اشد السرور ما نشاهده في الغالب عند بشارة الخوري من الابتكار في الخيالات ، مما يندر وجوده عند غيره بهذه الدرجة العالية ؛ وقد ذكرنا في الصحائف السابقة امثلة عديدة على ذلك الابداع . بيد ان نزاهة النقد قد اضطرتنا الى مؤاخذته على تصنعه في هذا الشأن ، ولا سيما في القصائد التي لم تتفجر كينابيع الماء الزلال من قلبه النبيل الرقيق ، بل قد اخرجها من ثغره او قلمه في مواقف المدح والرثاء ، وكذلك في الوصف غير المبني على دقة المشاهدة بل على جماح المخيلة ، كقوله في وصف زحلة ونهرها ونجد البقاع المتاخم لها :

اسرفت في فتن الجمال كأنما تخذ الجمال على ذراك منابرا ...
والنهر روح العاشقين ودمعهم ، مُلقى على قدميك ، يلهث خائرا ؛
سالت جراحات الهوى في صدره ليلاً ، فقبّلها النسيم محاذرا .
والسهل يحلم ، منذ كان ، بزورة لبس الحليّ لها ندى وازاهرا ،
لو كان يمكنها الزبى ، لتسابقت لاعزها ، تسعى اليك حواسرا ،

وتقطعت خُصل الحسان ونُثّرت بدل الكروم على التلال غدائرا .

خلاصة القول ان بشارة الخوري ذو شاعرية ممتازة في جوهرها ، محلاة في الغالب بالابتكار الطبيعي في قصائده الصادرة عن الهام صحيح ، على انها تنحرف احياناً بالناظم الى المواضيع المبتذلة التي لا يحثه وجدانه على معالجتها ، بل الفُرص السانحة والحفلات المقامة . فلو مال عن النوع الثاني من شعره الى الاول ، لارتفعت منزلته في عين الثقات وزادت حصته ، الوافرة على كل حال ، في اعلاء مستوى قريضنا العصري .

شبلي الملاط

ليس من الادباء من يجهل شبلي الملاط الشاعر اللبناني الغزير المادة ، السريع الخاطر ، الكامل العروبة . قد مثّل جبل الارز في وادي النيل في بعض اسواق عكاظ العصرية ، ونشر في بيروت سنة ١٩٢٥ « ديوان الملاط » الحاوي في قسمه الاول طائفة غير يسيرة من شعر اخيه تامر .

هو كثير المدح والرثاء ، فنجد نحو خمس عشرة قصيدة من هذين النوعين في ديوانه ، وهو عدد فاحش اذا قيس الى بقية انواع القريض التي عالجها . لا نضيع الوقت في انتقاد ثنائه على بعض العظماء العائشين على سطح الغبراء او الراحلين الى الديار الابدية ، لاننا نعده عند الشعراء قاطبةً من الشعر المبتذل ، الذي حان لنا نحن الشرقيين ان نوصد ابوابه ونطرق غيرها بدافع الالهام الحر النبيل ، فيمسي قريضنا براءً من تهمة التزلف السافل والانتفاع الذميم .

قلما يقف شبلي نظمه على وصف الطبيعة ؛ وان اقدم على ذلك في بعض المواقف ، فعلى وجه العرض . لكنه يجيد احياناً وصف الحوادث والاحوال

كل الاجادة . من اجمل ابياته الوصفية ما جاء في « مطوقة القطرين » حيث يصور لنا اهوال الحرب العالمية الاولى :

اعزز على عصر التمدن ان يرى ... جو السلام مابدّاً بقتام ،
ومن الجبال على البحار صواعقاً ، ... ومن القذائف للصدور روامي ،
ومن الصوافن للعجاج صواهلاً ، ... ومن الصوارم للنجيع ظوامي !
ارق الممالك في العيون تمدناً ... اوفى مُعدّات ليوم صدام .
ومن البلية ان نرى همجيةً ... طُليت دهان تمدن نمّام ؛
بينا ننادي بالسلام ، اذا بنا ... نمشي على جثث تُدق وهام .

قد ابدع كذلك في المقابلة بين هناء الموسرين وضيق المعدمين ، وقد صاح بالفريق الاول في « مجاعة رومية » :

هم للانين على الشقاء ، وانتمُ ... لحفيف ثوب او رنين سوار .
هم يرشفون من الدموع ، وانتمُ ... بين الكؤوس ورنة الاوتار .
هم ينزعون الى الرغيف ، وانتمُ ... تتناولون الخبز بالقنطار .
هم بين اشواك الحياة ، وانتمُ ... فوق الصدور منابت الازهار .
انتم باثواب الحرير ، وهم كما ... وُلدوا ؛ وان سعدوا ففي اطمار .

الملاط مشغوف بحب وطنه ، ميّال الى الترنم بمجده التليد والطريف؛ فلا بدع بان نرى في ديوانه بعض القصائد الوطنية الحارة اللهجة ، الشديدة الوقع في القلوب ، مما يثير فينا الاسف لقلتها . « على ذكر اول ايلول » تحوي هذه الابيات الرائعة ، التي موضوعها عيد استقلال لبنان :

قد رد مجداً على لبنان من قدم ... وذكر الناس بعضاً من معاليه ،
ايام كانت مواضيه له لبداً ... والدهر يحذر ان تُنضى مواضيه ،
ايام كانت مغانيه ممنّعةً ، ... وحولها اجماتٌ من عواليه ،
ايام كانت عن الدنيا وما نفثت ... من السموم مصونات غوانيه !

يصور لنا في القصيدة « ومشيتما علمين في علم » رمز الراية اللبنانية

القديمة ، الحاوية ارزة في بياض العلم الفرنسي ، الى عهد الصداقة القديمة بين بلاده وفرنسة ، فتجيش عاطفته الوطنية وتنفجر من اعماقها هذه الابيات البديعة :

دفن الزمان بارزتي قِدَماً ... مجد الشباب وحكمة الهرم ،
وصبرتُ والاجيال ذاكرةٌ ... ما في الثرى من ذلك الشمم ،
حتى شهدتُ اليوم معجزةً ... ورأيتها بُعثت من العدم !
ان كان فرّق بيننا زمنٌ ... ماضٍ طويناه على الم ،
فاليوم عارٌ ان نعود الى ... ضيم حملناه من القدم ،
عار يزلزل دونه جبلي ... ويضيق ساحله عن الرمم !

شبلي وطني صميم ، فلا يملك نفسه عن اشد الاعجاب بالابطال الذين خاضوا غمار الاهوال في سبيل عز بلادهم المهددة بالنكبات . « من لبنان الى مصر » موقوفة على تعظيم البطل المصري الخالد سعد باشا زغلول ، الذي وضع باكبر التضحيات حجر الاساس للمملكة المصرية الحديثة . من افتن ما ورد في هذه القصيدة وصف حماسة الطلاب المصريين وجهادهم لاعلاء شأن قُطر الفراعنة :

وفي المدارس اشبال كأنهمُ ، ... وقد غلوا بدم حُر ، مشاعيلُ !
لا السيف ثان ولا التهديد عزمتهم ، ... ولا دم حول ما شاؤوه مطلول !

اما نوع الشعر الذي نرى قريحة الملاط مائلة اليه بجاذبية يندر العثور عليها بين شعرائنا المحدثين ، فهو الرواية المسهبة ، الكثيرة الحوادث ، ولا سيما الغرامية ؛ نشهد للناظم بالمهارة في سردها ، بغض النظر عن شيء من التطويل التافه الممل في بعضها . يحتوي ديوانه خمساً من تلك الروايات ، يشغل مجموعها نحو خمسين صفحة ؛ ها كم بعض التفاصيل في شأنها .

« الوردة الذابلة » تمثل لنا صبية ماتت في ريعان صباها لفرط حزنها اذ وقفت على سوء سلوك والدتها المبيحة عرضها . « الجمال والكبرياء » تقدم لنا

بنت صياد ، ساحرة الجمال ، اسكرتهـــا خمرة الكبرياء ، فظلت ترد كل القاصدين تزوجها ، ومن جملتهم ابن صياد هام بهـا اشد الهيام ، فاعرضت عنه . ذات يوم ركبت زورق ابيها ، فجرى لهـا من الحوادث الفجائية ما جعلهـا في خطر الغرق ، فانقذها منه ذلك الفتى وعالج اغمـاءها حتى صحت ، فراعها بذل ذاته بعد رذلها اياه ، وشبّت فيها نار حبه ، فصاحت به : « انت لي وانا لك ! » فاجابها هذا الجواب الخشن المذل : « لم اكن نحوك الا محسناً ، لا محباً » ، ثم ابتعد عنها .

« خولة بنت الازور واخوها ضرار » هي صفحة من اجمل صفحات تاريخ العرب ، ولعلها رواية شبلي المثلى لرشاقته في سرد حوادثها العديدة . تصف لنا بطولة خولة اذ خلصت من الاسر اخاها ، بعد معركة بيت لهيا ، حيث كان يقود جيش خالد بن الوليد في محاربة وردان ، صاحب حمص ، الزاحف على دمشق .

« بين العرس والرمس » تبين لنـا ما يؤول اليه من سوء المغبة تزويج الفتيـات القسري باحد الاغنيـاء . « بين اليمن والشام » تدور حول ذلك المحور ذاته .

يتضح من هذه التفـاصيل ان لروايات الملاط مغازي سديدة ، نبيلة ، تنير بعض مسالك الحياة الوعرة بضياء المبادىء السامية ؛ فحبذا المرمى وليت كتّابنا الروائيين يحذون حذو شاعر الارز في ترقية النفوس ، عوضاً عن اسقاطها ، بوصف اقبح الشهوات والجرائم ، في مهـاوي الغواية الفاسقة ، المتسترة بنقاب الحب ، وهي ابعد شيء عن مكانته الرفيعة .

قـد حللنا المواد الشعرية في ديوان الملاط ، فلم يبق علينا سوى ابداء رأينا في شأن تعبيره . لا شك في انه ممتاز بالعروبة والتنوع ، فان الناظم متضلع من لغة الضاد ، وذاكرته الامينة حافلة بآلاف من مفرداتها الدقيقة المعـاني وجملها اللبقة المـأثورة . كل ذلك مزدان في اكـثر قصائده بحلية

الانسجام ، التي لا بد منها لسرعة فهم القارىء ، وعلى الاخص لطربه الكامل بجمال الشعر .

مع ذلك لا نرى تعبير الملاط خالياً من العيوب ، واكبرها الابتذال ، ولا سيما العجز عن ابتكار الخيالات ، والاكتفاء في اكثر الاحيان بتقفية آثار الاقدمين ، واعادة تشابيههم واستعاراتهم الهرمة ، البالية ، التافهة لكثرة ورودها ، فهي اشبه بالزهور الذابلة ، لا نضارة لهـــا تروق العين ولا عبير ينعش القلب . لا نزال نرى في ديوان شبلي تلك التعابير المبتذلة ، من امثال « تهادي الفتيات كأس البان » ، « مفاخرة زُهر النجوم » ، « المشي على هام الحقب » ، « الافترار عن مثل الدرر » ؛ ولولا الخوف من انجار قرائنا ، لذكرنا عشرات من تلك النموذجات . نرى عدداً غير يسير من نظائرها في مدح الملاط لنجيب بك سرسق :

ان يكُ المال سُلماً للمعالي ، فنجيبٌ اذاً برأس السُلمْ ؛
او يك العقل حلية ، فنجيبٌ يتحلى منـــه بعقـد منظم ؛
او يك الفضل للكريم وشاحاً ، فنجيبٌ ابو الوشاح المنمنم ؛
او يك العلم زينةً ، فنجيبٌ يزدهي منـه بالطراز المُعلم .

فضلاً عن ذلك الابتذال المفرط ، نجد في ديوان شبلي كثيراً من المبالغة المستهجنة في قريض شاعر عصري ، وان كانت مما يُغض عنه النظر في نظم القدماء ؛ اليكم بعض الامثلة على تلك المبالغة الفاحشة . يقول الشاعر في مدح الامير ميشال حبيب لطف الله « ما شئت نلت ، ولو أن السُهى سُؤل ! » ، وفي وصف حملة :

يتسابقون الى الفتوح كأنهم فوق السروج رواسخ الاطواد !

وفي وصف فتاة :

ولو أن البها استحال مُصلّى ، لم يكن غيرها به يتجلى !
ملكٌ فر من جنـان الخلود حاملاً راية الهوى للوجود . . .

ذلك شعر الملاط بحسناته وسيئاته ؛ ومن اكبر مغامزه ان اكثر قصائده قد نُظمت لفُرص سانحة وحفلات مُقامة ، كأنها المورد الوحيد او الامثل لالهام الشاعر ، حال كوننا لا نجد بين نوابغ شعراء الغرب ، الذين تُرجمت آياتهم الخالدة في اشهر اللغات ، شاعراً واحداً استقى معظم قريضه من ذلك الينبوع الشحيح ، السريع النضوب ، بل من الطبيعة والحياة ، يحاول حل الغازها فكر متوقد عميق ، ويخفق بافراحها واحزانها قلب شريف حسّاس .

حليم دموس

في « المثالث والمثاني »

نشر حليم دموس ، الملقب بشاعر البردوني ـ وهو نهر مدينة زحلة في لبنان ـ ديوانه « المثالث والمثاني » في جزئين ، صدر اولهما سنة ١٩٢٦ ، والثاني سنة ١٩٣٠ ، وقد ضمنهما عشرات من منظوماته التي طالعها الجمهور بادىء بدء في بعض اشهر الجرائد والمجلات . قرأنا هاتين المجموعتين بعين الناقد ، التي ينبغي الا يفوتها امر ذو بال من الحسنات ، فضلاً عن السيئات ؛ فها كم خلاصة ملاحظاتنا في شأن شعر دموس .

قد افسح المدح والرثاء مكاناً ارحب من اللازم ، على رأينا ، مع انه اضيق منه في دواوين كثير من رصفائه ، حتى المشاهير . وما يشفع في ذلك الاكثار بعض الشفاعة هو محاولة دموس الابتكار في ذلك النوع المبتذل محاولة ماهرة في الغالب .

معظم شعره الجدير باسم الشعر موضوعه الوصف . قلما يصف محاسن الطبيعة ببعض التفصيل ، الا في قصيدته « من مشاهد لبنان » المزدانة

بابتكار غير يسير في الخيالات :

صنين يُشرف من علُ في عزة المتمرد ؛
والغيم بين مفضّض ومذهّب ومورّد .

لقد ابدع كذلك في وصف عاصمة الامويين ، الغنية بآثار مجدها التالد :

دمشقُ ، احبك حب الشباب ، ففيك جمال الخلود ازدهرْ ،
فكم من قصور لخالي عصور ، وكم من رسوم وكم من اثر !
وكم من رموس ملوك عظام ، وكم من عظام بتلك الحُفر !
هنالك ساحٌ لاهل التقى ، هناك مزار ، هناك مقر ،
هنا بيت مجد سما وانطوى ، هنا ظل مُلك تبدّى ومر !

نسمع مثل تلك اللهجة في « وقفة امام قيسون » ، بيد ان شاعر البردوني اشد كلفاً بوصف الاحوال النفسية ، وقد يجيده كل الاجادة . يصف في « الطائر الازرق » بعض مناهل السعادة الحقيقية ، فيقول انها

في الموج عند هديره ، في النهر عند خريره ، في الطير حين تصفقُ ،
في الفكر وهو منسّق ، في النثر وهو منمّق ، في الشعر وهو مرقّق !
هو مقلة ترنو الى متوجع ؛ هو مهجة باخي الاسى تترفق !

يصف في « الامومة » اسمى حب طبيعي خفق به قلب انسان ، فيعظم الام مترنماً بمآثر بذل ذاتها الرائع :

لا خداعٌ في حبها ، لا ادعاء ، لا ملال ، لا نقمة ، لا استياء ،
لا نفاق ، لا ريبة ، لا رياء ؛ ان خير الصفات عند الامومهْ !

يصور بريشة الفنان البارع « الرائد » الذي انقبض صدره في محيطه المألوف المبتذل ، فتاق فؤاده الى فتح آفاق جديدة ، مستخفاً بما يعترضه في سبيلها من العقبات :

يطير الى القُطب الشماليّ صاعداً ، وفي البحر هول القبر في فجواته ،

ويهوي الى القطب الجنوبي هابطاً ، يشق حجاب الغيب في خطواته !

كما احسن وصف القمار والخلاعة وصف المشاهدة المحضة في « ليالي صوفر » ، قد اتقن تصوير الرحمة تصويراً خيالياً رمزياً في قصيدته الجميلة « ان في الرحمة لحناً خالداً » ، ويروقنا ما نجده من الدقة والابتكار في وصف « الطيار » و « المهاجر » .

بجانب تلك القصائد الوصفية ، التي يتضمن بعضها عبراً سامية ومغازي شريفة ، قد عالج دموس فئة من المواضيع التهذيبية المحضة . « يا ابنة اليوم ويا ام الغد » ارشاد محض يحث به الشاعر فتاة بلاده على اجمل الفضائل الموافقة لحالتها ، بل الضرورية لحسن قيامها بوظيفتها الخطيرة في المجتمع :

منك امي ، منك اختي والحليلهْ ، منك نرجو نزع آثار الرذيلهْ ،
منك نرجو لمع انوار الفضيلهْ ، يا ابنة اليوم ويا ام الغد .

« يا فتاتي » بمثابة عظة يحذر فيها الصبية من بهرج زخارف الدنيا ، لئلا تُضل عقلها وتفسد قلبها المطبوع على الطهارة وبذل الذات ؛ اليكم خاتمة تلك القصيدة ، وقد ضمت سمو الفكر الى جدة الخيال :

ارى ايامنا تأتي وتمضي كنغمة طائر وخرير ماء ،
ولا يبقى سوى ذكر جميل ، يفوح شذاه في هذا البقاء ؛
ففي اجسامنا معنى فناء ، وفي ارواحنا معنى الحياة !

يطربنا الاصغاء الى مثل هذه الابيات الحكمية المزدانة بعدة خيالات مبتكرة في « الحق للحق » ، « مكارم الاخلاق » ، « دولة الشعر اعظم الدول » .

في ميدان التهذيب نرى دموس اشد ولعاً واطول باعاً في اغراء سامعيه وقرائه بحب وطنهم لبنان ، العظيم بتاريخه ومركزه في العالم العربي ، وان يكن صغيراً بمساحته وثروته المادية ؛ يحرضهم على الاتحاد والتآخي ، فانهما الاساس الراسخ الوحيد لدوام استقلاله . قد عبّر عن هذا الرأي الرشيد في « ذكر اول ايلول » :

والعلم والدين شتى في طوائفه ؛ فهل توحّد اخلاق واميالُ ؟
شبابه من وراء البحر يرمقه ، ودمع من فيه هتّان وهطّال !
والماء يذهب هدراً في جوانبه ، والخير في الماء مثل الماء سيّال ؛
لا مال يكفيه ، لا فنٌّ يعززه ؛ ايستقل ولا فنٌّ ولا مال ؟

ارق تجلي عاطفته الوطنية المضطرمة في « ذكرى الشهداء » ، الذين امرت تركية الغاشمة بقتلهم ابان الحرب العالمية الاولى ، ولا ذنب عليهم سوى شغفهم بلبنانهم العزيز المفدى :

ذكريني ، يا ساحة الشهداء[1] ، ذكريني باخوتي الادباء ،
ذكريني !
ذكريني بنخبة الاحرار وازاهير روضنا المعطار ،
ذكريني !
شهداء عاشوا وماتوا كبارا ، وتواروا ليلاً كبرق تواري
عن عيوني !

تلك الوطنية الصادقة المتأججة يروعنا نداؤها العالي المؤثر في « الشاعر والعلم » ، « العيد في الوطن » ، « قبل ذلك » ، « الثروة بالثرى » ، « نشيد حزب التضامن الوطني » ، وكذلك في « لبنان ، يا جنة هذا الوجود » ، حيث يصيح بفتى بلاده :

تململ الشرق وعاف الكرى ؛ فانهض ، فتى لبنان ، كالناهضينْ !
واربأ باوطانك ان تُقهرا وكن لها الحصن المنيع الحصين !

بقدر حب الوطن يتجلى للعيان هيام شاعر البردوني باللغة العربية . رأى كثيراً من مواطنيه قد اهملوها ، بل نبذوها ، مائلين الى غيرها من السن الغرب ، ولا سيما الفرنسية والانكليزية ، فثارت حفيظته وهب يذود عن لغة قريش الجليلة الشيخوخة ، مترنماً بمحاسنها ومآثرها على عوده الشعري

(١) اسم ميدان في بيروت قتل فيه الاتراك شهداء الوطنية .

الرخيم ، لعله يوقظ اولئك النيام من سباتهم الطويل . وايم الحق قلما نرى ائمة القريض المحدثين ، ما عدا شاعر النيل والياس فرحات ونفراً سواهما ، يناضلون بمزيج رشيد من الحزم والرفق ذلك النضـــال النبيل . في « لغة الاجداد » يصف لنا دموس شغفه بلغة الضاد :

لا تلمني في هواهـــا ؛ انا لا اهوى سواهـا !
ما لقومي ضيعوهـــا ، فدهاها ما دهاهـــا ؟

في « الحنين الى بغداد » ، التي يلوح اول وهلة ان موضوعها بعيد عن العربية وازمتها الحديثة ، لم يتمالك عن هذه الصيحة :

لو لم تكن ام اللغات هي المنى ، لكسرتُ اقلامي وعفت مدادي !

في « لغتي » يحاول اشراب نجله ذلك الحب النبيل :

وانت ، يا ولدي ، يا من احب ومن اهفو له كلما وجه الصباح بدا ،
لا تعشقن سوى ام اللغـات وكن فيها ، كما اتمنى ، شـاعراً غردا ؛
فان نشأت ولم تعشق بلاغتهـــا ، لا كنت لي املاً ، لا كنت لي ولدا !

تلك بعض ابيات من اناشيد هيامـه بملكة الالسن الساميّة ؛ فلعل الصُم والمتصامين يسمعونها ، فلا يكون كالضارب على حديد بارد !

بجانب العاطفة الوطنية ، الـتي هواه للغة الضاد عنصر من عناصرها الجوهرية ، نشاهد في ديوانه عدة مجال لرقة شعوره الابوي ، مثلاً في قصيدته « سلوى » ، حيث يصف لنـا بنته ، صاحبة هـذا الاسم العذب ، وهي في عامهـا الاول :

دموعهـا طربْ ، بـكاؤها ابتسامْ ؛
جذلى ولا سبب ، غضبى ولا انتقام .

نُعجب بذلك الحنو الوالدي ، حين يصورها لنا « في عامها الثالث » ، وبحبه الشديد لزوجته في حديثه عن « الرصاصة الطائشة » التي كادت تُذبل زهرة شبابها الفاغمة النضيرة . تلك رواية شعرية قـد اتخذها وسيلة للتعبير

عن هواه لرفيقة حياته ، ولم نجد لها في ديوانه مثيلاً الا « في ثاب بيروت » ، مما يدل على عدم ميله الى القصص المنظومة .

قد اعرض عن معالجة المواضيع الفكرية المحضة ، لصعوبة افراغها في قالب شعري ، فلم يحد عن موقفه هذا الا في قصيدته « الما يحنْ للشعر ان يتجددا ؟» حيث يرثي امر الرثاء لسقوط معظم قريضنا العصري الى حضيض الثناء المفرط على الاحياء والاموات :

وقفنا بحور الشعر للمدح والرثا ، فضاع بليغ الوصف بينهما سدى ،
على ان اغراض الحياة كثيرة ، اراها من التمداح انبل مقصدا !

حسبنا بالملاحظات السابقة بياناً لانواع المواضيع التي تناولها دموس ؛ بقي علينا ابداء رأينا في صفات تعبيره . من اكبر مزاياه العروبة الصرفة مع الوضوح الكامل والانسجام اللذيذ ، فضلاً عن نبذ الالفاظ المماتة ، التي نراها في الانشاء كالحجارة الضخمة على طريق معبدة . من محاسنه ايضاً بعض الابتكار في الخيالات ، مثلاً في قصيدته « بين عامين » :

اطلَّ عام وانطوى كمُدرج في كفن ؛
وافى وحيّا ومضى كأنه لم يكن !
ولّى وهـذا غيره يطرق باب الزمن ،
ملثَّمٌ ، ملفَّعٌ ببُردة كالدمن .

نمدح إقدام دموس على ابداع شيء ، ولو يسيراً ، من الاوزان الرخيمة ، كما في قوله لبُنيّته :

يا سلوتي في خلوتي
وطُرفتي في غرفتي ،
ليحمك الرحمان !

من حُلى انشائه ما تسوغ تسميته المحاذاة ؛ نعني بذلك جعل شطري البيت متقابلين كلمة فكلمة ، ولا سيما على وجه التضاد ، كما في قوله :

فكل آت لنا في صدره امل ، وكل ماض لنا في صدره اسف !

اما المعايب فكثيرة ايضاً ، وفي مقدمتها الابتذال مقروناً بالمبالغة الفاحشة في قصائد عديدة . يقول مثلاً عن اللغة العربية :

نحن لولا الدين نهواها كما نهوى الالها !

وفي ترحيبه بوفد قادم من البرازيل :

قعد الموج بملقـــاكم وقاما ومشى لبنان وجداً وغراما !

وفي وصف القطار :

اثار دخانه في الجـو نقعاً ، كأن له على الافلاك ثارا ...

ولولا سلكه بلـغ الدراري وحلّق في نواحيها وطارا .

وفي رثاء سليمان البستاني :

دنـــا الى ثراه في مركب يجري ؛

يا من رأت عيناه بحراً على بحر .

لا نكاد تقرأ صفحة من نظم الشاعر بدون العثور على تلك الخيالات الهرمة ، البـالية ، التي هي احرى بان تُلقى في سلة المهملات ، من امثـال « جياد المنايا » ، « جيش الرزايا » ، « بلبل الشعراء » ، « غادة تحكي ظبياً » و « شمل الاحبة كعقد تنظم ثم انتثر » .

ان لم يشن خيالاته الابتذال التافه والغلو الطفلي ، فكثيراً ما يشوبها فساد الذوق على اوجه اخرى ، وعلى الاخص التصنع ، نحـو قوله عن الكتاب : « انت روض على يدي حملتك » ، وعن جراح شفاه بعملية ماهرة : « مباضع الطبيب اقوى من الاقلام » ، الى غير ذلك ممـا يطول بنـا تعداده ، كتلاعبه بالالفـاظ في مواضيع جدية ، خطيرة ، لا يليق بهـا ذلك العبث . يقول مثلاً في قصيدة بيّن فيهـا تقهقر التمدن الصحيح مـع تقـدم العلوم في عصرنا :

السلم يُضرب ثم يُطرح خارجاً والحـرب تقسم والمنية تجمع .

يتوهم ان من معجزات البيان كونه قد اشار في ذلك البيت الى عمليات الحساب الاربع . نرى مثل هذا الشطط في كلامه على المهاجرين :

اثن هجروا الربوع ، فكم اتوها على بحر الهوى فوق السفين !

وعن خلين قد حظيا باللقاء الشهي :

تجاورا بعدما طال النوى ، فهما لامٌ تعانقها في عطفها ألفُ .

تلك اكبر مساوىء التعبير في ديوان شاعر البردوني ، وهي غير يسيرة. اما مواضيع شعره ، فعيبها الواضح ، مع غض النظر عن الافراط في المدح والرثاء والتهنئة ، هو كون الناظم قلما يقتبس الهامه من صميم الحياة ، مع كونها مورده الاغزر والاعذب ، بل يطلبه في الغالب من الفرص السانحة لالقاء قصائده على الجم الغفير المحتشد في حفلات يدعو الى اقامتها انشاء جمعية او فتح مدرسة او استقبال ضيف جليل وما شاكلها . ان ذلك لعمري عجز شائن في القريحة ، ولا سيما الشعرية ، لا نجد له اثراً في نوابغ شعراء الغرب ، وقد فشا وتفاقم حتى بين اشهر شعرائنا .

فضلاً عن ذلك الفقر في الالهام ، نرى المواد التي عالجها دموس قليلة ، وان بذل قصاراه ليوهم القارىء انها كثيرة بثيرة . قد تذرع لذلك بحيلة لا تجوز على كل ذي عينين ، وهي حشو جزئي ديوانه بنحو مئتي صورة ، ليس لها في الغالب ادنى علاقة بقصائده . معظمها رسوم ادباء من عدة طبقات ، وبينها الوسطى والدون ، مصحوبةً بنموذجات من خطوطهم الكريمة ؛ ومن المضحك المبكي ان دموس لم يختر منها سوى ما يحوي احر عبارات التقريظ لشعره ! هنا يبلغ فساد الذوق اقصى مداه ، وقد اسقط الشاعر فيه فرط اعجابه بذاته .

اذا استطاع شاعر البردوني ان يُقنع السُذج ، بواسطة هذه الخزعبلات ، انه قد ادرك اوج الفن الشعري ، فالخبراء باصول الادب العالي احذق من ان ينخدعوا بها ، فهم يعدونه من الطبقة الوسطى ، طبقة الدور

الانتقالي الحاضر ، التي لم تكسر سوى بعض قيود تقليد الاقدمين ، فلا تزال ، مع بعض الابتكار في المعاني والمباني ، بعيدة عن الالهام الشعري المحض والابداع الكامل في التعبير ، اللذين نشاهد نموهما في نوابغ شعرائنا الاميركيين .

الياس ابي شبكه

في « القيثارة »

الياس ابي شبكه اديب لبناني معاصر، غزير المادة ، حار اللهجة ، نشر مقالات وقصائد عديدة في الصُحف ، وعرب بضع مسرحيات هزلية للكاتب الفرنسي الشهير موليار (Molière) ومؤلفين للشاعر لامرتين وروايتين لبرنردان ده سان پيار (Bernardin de St Pierre) . له ديوان «القيثارة» المطبوع في بيروت سنة ١٩٢٦ والحاوي كمية كبيرة من شعره . من مميزات ذلك الديوان ان كل مواضيعه تقريباً ليست مواليد الظروف السانحة والحفلات المقامة ، بل صادرة من اعماق روح الناظم ، كانشقاق الزهرة من كمها وتفجر الماء من ينبوعه . بعبارة اخرى هي شعر الشعور الصادق ؛ وانما اطلق العرب على القريض اسم الشعر ، وهو مرادف للشعور ، دلالةً على جوهره الثمين . بيد ان العاطفة المسيطرة على « القيثارة » ونغمة اوتارها المعتادة هي الحزن الشديد ، كما اعترف الشاعر بقوله :

تمر على قيثارتي نغمة الاسى ، فتصعد من اوتارها نغمة الشعر .

لا نزال نسمع من نفسه الرازحة تحت وطأة امر البلايا والاوجاع ، انيناً مراً ، فيه شبه حشرجة المنازعين ، متصاعداً من اعماق فؤاد ذبلت زهور آماله في ربيع الشباب ، فمزقته وادمته اشواك الخيبة المضنية واليأس

العضال . فعاف حياة ما فتئت تخدعه بسراب ملذاتها الباطلة ، فزادته عطشاً مذيباً الى السعادة التي يصبو اليها بكل قوى نفسه ، ويسعى وراءها باقصى جهوده ، وهي كالعنقاء خيال مبهم ، بعيد المنال ، ضاقت مذاهب الشاعر في محاولة ادراكه ، فقال في « ما بعد منتصف الليل » :

ان قلبي مأوى لكل عذاب ، قد اواه الضنى بلا استئذانهْ . . .
افعم الكون بالعذاب حياتي ، فلهذا تاقت الى اكفانه !

وفي « دعيني اموت » :

دعيني اموت ، فحظي التعيس هوى مع كوكبه الآفل ،
دعيني اموت ، فصخر رجائي تحطّمه موجة الباطل ،
وما كنت املّته سابقاً خُدعت به خدعة الجاهل !

مرض الحزن المزمن القتّال ، الذي صار اقسى الجلادين لنفسه الحساسة ، قد افضى به الى نشر ظلماتها الدامسة على البشر اجمعين ، فيُخيل له انهم مصابون بدائه العياء ، ويصيح كمجنون في قصيدته « بعيداً عن هذا العالم » :

هذي الحياة كمستشفى تنام به مرضى الوجود ولا تُشفى من الداء !

« الى الشبح البالي » حاوية ذلك التشاؤم في شأن اهل الارض طُرّاً :

هذا الوجود جُنينة مرغوبة ، قد غر فيها آدم التفاحُ ؛
هذا الوجود مشانقٌ منصوبة ، والظلم في ساحاتها السفاح !

من ابتُلي بذلك الداء الروحي وايقن انه عضال ، وتوهم ان جميع الناس اخوته يتضورون مثله من فرط الالم ، فلا بدع بان يشتهي الموت ويدعوه بالحاح شديد ، كما يتمنى آلاف المجروحين في المعارك الضربة القاضية على حياتهم الشقية . « ولما كبرت » تحوي التعبير الخشن عن ذلك التوق الحار :

فهذي الحياة ثمالة كأس سقاها رجيم الردى للوجودْ ؛
فدعني انلها بقايا جمادي لتمتصها حشرات اللحود !

يناجي الشاعر « جرس الحزن » في ذلك الشأن عينه ، فيقول له متوسلاً :

ايا جرساً في هوة الدمع ناحباً ، نحيبك الحان الطبيعة والعمر . . .
أصخ عندما الحفّار بعد تهدمي يعيد بقايا العفر منيَ للعفر . . .
ترحّم ولا تجعل رنينك محزناً ، ودُق بالحان الحبور على قبري !

نشاهد ثوران ذلك الحزن الدائم الفانط في عدة قصائد اخرى ، من جملتها « تذكارات وآلام » ، « انزعوا قلبي فاستريح » ، « مناجاة بلبل » ، « الدمعات الثلاث » . يبوح لنا الشاعر باساه الفادح المستولي على نفسه استيلاءً تاماً ، وذلك من مقتضيات صدق اللهجة في شاعريته . لكنه لا يكتفي بازاحة الستار عن كلوم قلبه الدامي ، المنازع نزاعاً لا نهاية له ، بل يكشف لنا بتواضع حميد سبب مرضه الروحي المزمن ، معترفاً بان روحه ضحية شهواته الجسدية ، اذ لم يستطع كبح جماحها . يقول عن شخصه في « ما لي جلَد » :

عبث الغرام به ولم يُبق السقام له جسدْ !

وفي « الدمعات الثلاث » :

ما لسلمى التي استبدت وما لي ؟ انا في الحب ميّت الآمال !
كنت امشي مع الهيام ، ولكن كنت امشي على طريق الضلال !

يخطو خطوة حديدة في طريق الاقرار بغوايته الفاحشة ، فيبوح لنا بتذلل مؤثر ان مهوى التعاسة الذي القته فيها اهواؤه الشرسة الطاغية ، لم يوقظ عزمه من سباته الطويل لالجامها واخضاعها للعقل السديد ؛ يقول عن قلبه المفرط الضعف في « لا ترحم » :

يشقى ولا يعلم ماذا بـه ؛ يذوب كالشمع ولا يعلمُ ؛
ورغم هذا عند مرأى الهوى يُقْدم كالنمر ولا يُحجم !

ثم تبلغ به الصراحة حدها الاقصى ، فيقر لنا ، بدون ان يندى جبينه حياءً ، بانه قد اعرض عن الاله العظيم ، خالقه وفاديه ، اعراضاً كاملاً ، وفضّل السجود لصنم اللحم بعدما اختاره الهاً . يقول لمعشوقته في « يا ليل

العمر ، متى غده ؟ » :

انسيت العبد ديانته ، فاغتاظ المولى سيده ؟
ديني قد رق ، فوا تلفي ! هل باق غيرك اعبده ؟

بعد كل تلك الاعترافات الذليلة ، المخجلة ، قد لخص لنا في « افاعي الفردوس » ـ هذا العنوان وحده دليل على اختلال عقله ـ غايته القصوى في الحياة . سداها ولحمتها الكفر المطلق والسفالة الحيوانية ؛ يصيح بمحبوبته المؤلهة :

جمّلي ليَ الجسدْ واسكبي ليَ الرحيقْ ؛
لا تفكري بغد ؛ قد يجي ولا نفيق !
ما لنا وللابد ؟ ان سره عميق !
الهوى ، اذا اتقد ، كان للبلى طريق .
فلنمت يداً بيد ولنغيّب البريق
بين شهوة الجسد والرحيق !

من الغرابة بمكان ، وقد ارانا الناظم روحه متمرغة في حمأة الادناس ، جاعلة ذلك النعيم اللحمي الرذيل مثلها الاعلى في الحياة ، مع اقرارها بهول ما يلده من امر الآلام ، ان نسمعه بين حين وآخر يفتخر بعلو تلك النفس ونقاوتها . هو لعمري كالسكران ، لعبت برأسه الخمر ، فيهذي هذياناً مضحكاً ويقول لنا في القصيدة الاولى من ديوانه :

ليَ نفس كالبحر ذات اتساع ، فلبابٌ يُلقى بها وقشورٌ ؛
تبصق الرجس عن عفاف وطهر ، واللآلي تبقى بها فتغور .

الحزن الثاوي على الدوام في قلب ابي شبكه ينشر سحائبه المتلبدة الحالكة السواد على قصائده الوطنية . لا يكاد يرى شيئاً جميلاً في لبنان ، فيظل ينحي باللائمة على اهاليه ، الرؤساء والمرؤوسين ، راشقاً اياهم بسهام هجوه اللاذع ، ذاماً فيهم الافتخار الباطل بالجدود ، حب السيادة ، العبث

بمصالح بلادهم ، الى غير ذلك من انواع المساوىء . يبدأ بذلك الطعن القاسي منذ اول قصيدة في « القيثارة » ، ثم يعود اليه في « ابنة الاجيال » ، « ورب كبير بلبنانه » ، « القضاء المفتون » و « العامل الثائر » حيث يقول :

لي موطن عاثت به اولاده ، فبكت حشاشته على اولاده ؛
يحيا امام عيونه جلاده ، ويموت لاثم قبضتي جلاده !

« يا بلادي » هي اجمل قصائده الوطنية ، مبتكرة الوزن ، حارة اللهجة ؛ ها كم نموذجاً منها ، تتضح فيه مبالغته الفاحشة في تعبير مواطنيه :

اينما سرتُ ارى الناس لدى ذكرك[1] دوماً يهزؤونْ ،
فهمُ منك ولكن جحدوا ، والناس قوم جاحدون ؛
وهمُ الابناء باعوا الام في سوق المزادْ ،
يا بلادي ! . . .
يا بلادي ، ان دعاني نسي التوراب[2] في تلك اللحودْ ،
وانطفت نار هيامي وخبا زيتي بمصباح الوجود ،
لا تعديني رماداً ، فهيامي في رمادي ،
يا بلادي ! . . .

يسأل « العرّافة » عن مستقبل وطنه ، فتجيبه :

عندما البغضاء تمسي مُهجاً تنسل الحب وتأوي الرجلا ،
عندما الارماح تمسي سككاً وفرند السيف يمسي منجلا ،
عندما الحاكم في عزته يُنجد الفلاح حتى يعملا ،
بشروا لبنان بالعز ، فما وطن عز بغير العمل !

في « اغنية المغيب » تصوير بديع لبعض مشاهد المساء في لبنان ، وهو ذو صبغة دينية محضة ، نقضي منها العجب لكونها نسيج وحدها في ذلك الديوان الذي نُفيت منه التقوى . في الدور الاخير من تلك القصيدة الجديرة

---

(١) يعني الشاعر ذكر بلاده — (٢) التراب .

بان تُعد بين جواهر قريضنا العصري المبتكر ؛ يخاطب الشاعر نفسه قائلاً :

إسمي الاجراس من قبة دير الراهبات ،
حمل الوادي صداها للنفوس الزاهدات ؛
فهي انّات صدور وبقايا زفرات
اصعدتها بائسات الدير قدام الصليب ؛
اسجدي لله ، يا نفسي ، فقد وافى المغيب !

يزيد استغرابنا لتلك العواطف الدينية السامية اذ نرى صاحبها المسيحي يحط مراراً عديدة من كرامة دينه ، بل يبوح بكفره وماديته بدون ادنى خجل . في « اغنية المجد » ذكر السيد المسيح الهنا المعبود بين المعري ولنين ، كأنه لا يمتاز عنهما امتياز الخالق عن الخليقة . « ولما تقيسون الصلاة » لا غاية لها سوى الطعن في الكاهن المسيحي ، الذي يسميه الشاعر ، على وجه التعميم ، الكاهن المأجور ، ويقول عنه :

النفس تطلب مرسلاً ، لا تاجراً واهي الضمير .

ينوح على انحطاط لبنان هاتفاً :

غدا وطن الاحرار سلعة تاجر تباع وتشرى خلسةً في المعابد .

يصف دموعه وعبرات عشيقته هذا الوصف الشنيع :

كان ذاك الدمع ماءً مُنزلاً عمّد الحب بدين العاشقين .

في « المجدلية والمسيح » قد بلغ استخفافه بفادينا الالهي مبلغاً فاحشاً ، فوصف علائقه مع تلك الخاطئة التائبة وصفاً ليس فيه ادنى لياقة بجلاله غير المحدود . فضلاً عن ذلك الهتك المكرر لحرمة دينه المقدس ، قد جره الكفر الفظيع الى محاكمة الله تعالى خالقه ومولاه ، والتجني على قداسته الفائقة كل ادراك ؛ ها كم بعض تجاديفه السافلة :

القلب جُرمٌ في حياة الفتى ، وصانع القلب هو المعتدي . . .
رب ، لِمَ انت تظلم الابرياء ، وتزيد العاني الشقي شقاءً ؟ . . .

هل خلقت الغني للمجد ، والبائس اوجدته تُرى للشقاء ؟

هذا الجدف على العزة الالهية - وهي اعلى من ان تصيبها سهام الحاده الطائشة - يدعي النبوة ، فينبئنا بانهيار صرح النصرانية بعد انتصاره مدة تسعة عشر قرناً على اشد هجمات الضلال والفساد ، فيصيح في هذيانه الجنوني :

كم من ديانات تمشت في الورى ، ذهب الزمان بها قُبيل ذهابه ،
ولسوف اديانٌ تخرّب ديننا وتقوم للايام فوق خرابه !

يجاهر بماديته التامة ، منكراً دوام نفسنا بعد الموت :

والكائنات لدى الردى العوبةٌ ، حتى الخلود يصير من العابه .

« يا بنت لبنان » من احسن قصائده ، القليلة جداً ، التي يحث بها النفوس على الفضيلة ؛ وما اغرب ذلك التحريض على لسان شاعر قد اعترف لنا مراراً بكونه عبد شهواته اللحمية ! يقول لفتاة بلاده ، وحبذا القول :

دعي سواك تبيع الثغر بالذهب ، فالثغر ما انشق كي يجنيْ على الادب ،
ولم يكن ضرب[1] الافواه ذا ثمن ؛ فلا تبيعي الهوى من ذلك الضرَب ؛
عُرفت طاهرةً ، فابقي مثابرةً ؛ لا تبدلي الفُل بالاشواك والحطب !

قد تقمص مرشداً في غير ذلك الموقف ، فقال في « ذكرى الآلام »

يا من ترى الدنيا بثغر فتاةٍ ، اياك ان تمشيْ على خطُواتي !

وفي مطلع « الفتاة الغادرة » ، التي يقصد بها ردع الشبان عن المهارة :

حاذر الحب؛ ان في الحب شرّاً ، فهو نار في القلب تصهر صهرا !

بيد انه من المضحكات المبكيات ان نجد في الصفحة التالية للقصيدة المذكورة شعراً ملتهباً بنيران الغزل في « اودّك ميتة » ، حيث يقول لحبيبته مي :

اودك في قبضة الموت صرعى لان حياتك تقضي عليَّ ،
وموتك ، يا مي ، عذب لديَّ ، فبالرغم يُلقيك بين يديَّ !

---

(١) الضرب بفتح الراء بمعنى العسل الابيض الغليظ .

امام ذلك التناقض المطلق بين مواعظ ابي شبكه وسلوكه نلوذ بكشحينا من القهقهة اذ نراه يتكلف الرثاء لحالة « الفضيلة » قائلاً :

بكت وهي صرعى من هموم تحيقها ، كبائسة في الناس ضاعت حقوقها !

واذ نسمعه « امام مهد سعاد » يعظم طهارة الاطفال بلهفة من اضاع درة يتيمة ، فوجد مثيلة لها عند غيره . . .

اكثر شعره ، كما قلنا ، في وصف كآبته ، التي هو رازح تحت وطأتها ، ثم في المواضيع الوطنية مصطبغةً بصبغة مُشبَعة من حزنه العضال وفرط نفوره من الحياة والاحياء . له ايضاً عدة قصائد غزلية محضة ، نخص بالذكر منها « الشبل الرابض » ، « ما انت من تراب » ، « القلب لا يُشرى » و « الو ! الو ! » وهي حديث تلفوني بين الحب وقلب الشاعر ، فيه من فساد الذوق ما فيه .

للمدح والرثاء حصة لا تكاد تُذكر في « القيثارة » ، مما يوجب الثناء على صاحبها ، ولا سيما انه مبتكر في ذينك النوعين من القريض اللذين كثر فيهما الابتذال ، حتى عند طائفة من المشاهير . يقول مثلاً في تعظيم خليل مطران :

بلادك هذي ، يا خليل ، فانها حليلتك الاولى ، اذا فخرت مصر ؛
فمن مائها رويّت شعرك ريّقاً ، وفي روضها شبّت قصيدتك البكر !

وفي رثاء سليمان البستاني :

النفوس الكبار تشق طويلاً بين جدران صدرها المفؤود ؛
هي مثل الطيور تخفق حيناً ثم تقضي في سجنها الموصود !

شعره الوصفي نادر ؛ لا نجد في ديوانه سوى اربع قصائد من ذلك الصنف ، وهي : « نارجيلتي » ، « ميروبا في الصيف » ، « الفقير » و « قبل الرحيل » التي يصف بها اخته الطفلة وطيشها وصفاً ظريفاً .

قد انتهينا من تحليل معاني « القيثارة » موضحين ان محاسنها ليست

سوى حفنة بجانب كثيب مساوئها . اما تعبير ابي شبكه فيشينه كثرة اللحن الغليظ ، الذي لا يسقط فيه تلميذ الصفوف العليا ، مثل « كان يمشي الطريق » ، « الجرح يُدمي » بمعنى يَدمى ، « جانح » عوضاً عن جناح ، « ابتني غير عاشق » والمقصود عاشق آخر ، « تلعب دوراً » المعربة حرفياً عن الفرنسية ، بدلاً من « تمثل دوراً » ، « هل ان فكرك من يراعك اسرع ؟ » مع استحالة ضم حرف التوكيد الى حرف الاستفهام .

اما الخيالات ـ وهي عنصر من اهم عناصر الشعر ـ فانها على جانب غير يسير من الابتكار الجدير بالتقريظ . يقول الناظم في وصف النوم :

كأن غطيط النائمين نواسمٌ يحركها الصفصاف فوق المقابر .

وفي « الشبل الرابض » :

جثم الليل باحضان التلالْ ، حالك البُردة ، منشور الظلالْ ،
نخضمٌ غرق الهم به ، فاعترى امواجه صمت الجلال !

يمثل لنا الفقير بهذه الصورة الجديدة ، الطبيعية :

بائسٌ والحياة تأنف منه ، كبقايا الحطام في الدأماء !

يصف لنا اماً ثاكلة ، وقد دفنت ابنها ، بقوله :

وكأن مقلتها سراج كاد يُطفأ بالزفير ...

يقول عن شفقة الطبيعة على الانسان التاعس :

بكت السماء ابن الشقاء بمدمع الزُهر الغزيرْ ،
والليل ذوّب في الضريح عواطف البدر المنير !

يجعل على لسان المجد هذين البيتين الجميلين :

فقُبلة المجد لم اضعها الا على حافة القبورْ ؛
من يطلب المجد في حياة فليشتر المجد بالزفير !

على ان آفة الابتكار ، ان لم يُحصر في حدود الطبيعية ، هي التصنع الذميم ، ولا سيما بشكل المبالغة الطفلية . يسوءنا التصريح بان ذلك الشطط

وما ينطوي عليه من فساد الذوق كثير في ديوان ابي شبكه . يقول لحسناء :

اود لرجلك ليل الوجود حذاءً مساميره الانجمُ .

لعمري يصعب علينا تصور سقوط شاعرية الناظم الى تلك الدركة ! يصف ضياء البدر في وسط الدياجي منشداً :

وارى ظلمة الدُجنّة ابليساً ، نجوم الفضاء من اعوانهْ . . .
والليل فيه قمر كامل كأنه عبد لنا اعورُ .

يصوّر لنا خيبة آمال المعوز على هذا الاسلوب الغريب ؛ شتان ما بين الغرابة والابتكار :

تتراءى له الكواكب طوراً كدنانير القيت في الفضاء ،
فيمد اليدين لهفاً اليها ، غير ان الفضا من البخلاء .

يصيح بشخص الحرية :

عشقتُك طفلاً يوم كنت نسائماً تهزين مهدي كالغلام المداعب ،
وقبّلت منك الثغر مذ كنت زهرةً تقطّرك الانداء عند المغارب .

وايم الحق لا نرى ادنى معنى مقبول في تشبيه الحرية بالنسمات وبالزهرة في هذين البيتين .

من محاسن التعبير الشعري في « القيثارة » ان صاحبها قد خرج احياناً بالعروض من اوزانها المبتذلة . نرى مثلاً قصيدتيه « اغنية المجد » و « تذكارات وآلام » مقسومتين الى ثلاثة اقسام على وزن واحد ، ولكل منها قافية مختصة به ، وفي ذلك ما فيه من زيادة رخامة الشعر في المواضيع الطويلة . « يا بنت لبنان » مركبة من ادوار ثلاثية الابيات ، وكل دور مستقل بقافيته ؛ « لما كبرت » و « الشبل الرابض » على النسق ذاته غير انهما رباعيتا الادوار . في عدة قصائد نلاقي ابتكاراً اشد وتنوعاً اوفر في الاوزان والقوافي ، مثلاً في « انزعوا قلبي فاستريح » :

اهجرْ[1] الكون ، فمصباح الوجودْ ليس فيه زيتْ ،
واطلب الانوار في مأوى الخلود ، في قصور الموت !
انزعوا منيَ قلبي رحمةً كي استريحْ ،
فانا ، ما زال حبي نامياً ، ابقى جريح !

يليق بنا ، بعد ذلك التحليل الدقيق لمميزات المعاني والتعابير في ديوان ابي شبكه ، ان نبدي رأينا فيه على وجه الاجمال . نقر للناظم بشاعرية حقيقية ، صادرة عن صميم فؤاده ، مهتزة بخفقاته ، حارة من غليان دمائه ، بعيدة عن المواضيع المبتذلة ، طامحة طموحاً موفقاً ، في احيان كثيرة ، الى الابتكار في الخيالات والاوزان . بيد ان تلك الشاعرية قد حادت في الغالب عن مهيع الحقيقة العليا والجمال الاسمى – نعني الفضيلة – فانها ملتقاها الوحيد وصلة اتحادها المتينة ، فضل الناظم في مجاهل الفجور والكفر المؤدية به حتماً الى مرض الحزن الشديد ، المزمن ، العقيم ، بل الى النفور الكامل من الحياة . فجاء ديوانه مُخمداً لعزائم النفوس عوضاً عن اضرامها ، وخافضاً مُناها نحو اباطيل هذه الارض الفانية ، بدلاً من الصعود بها على معارج الفضيلة الى الخيرات السماوية الدائمة .

الياس فرحات

الياس فرحات اللبناني في طليعة شعرائنا الاميركيين الذين لفتوا انظار العالم العربي بغزارة مادتهم وشدة ابتكارهم في المعاني والمباني ، بل الاوزان ايضاً ، وقد جاء شعرهم ابعد ما يكون عن التقليد الكسول والابتذال التافه ، صورةً حية لافكارهم وعواطفهم ومراميهم ، تُستشف باتم الجلاء من وراء

(١) هذا الفعل بصيغة الامر .

وشي الخيالات القشيبة . له في ذلك فضل مضاعف ، فقد اقر لنا في رسالة بعث بها الينا من نحو عشرين عاماً ، هذا الاقرار الظريف : « تركت « مدرسة الضبعة (كفرشيما) ، وانا في عامي العاشر ، ولم ارَ المدارس بعدئذ الا من الخارج . »

قد نشر من شعره « رباعيات فرحات » ثم « ديوان فرحات » ، المطبوع في مدينة سان باولو في البرازيل سنة ١٩٣٢ . قصدنا تحليل شاعرية الناظم ، فبنيناه على ديوانه فقط ، لا على الرباعيات ، لانها في ايجازها المفرط لا تطلق الحرية الكاملة لتحليق الفكر وتأجج الشعور .

كما درس فرحات اصول لغة الضاد على ذاته ، ولا سيما بكثرة المطالعة ، لا بين جدران المدارس ، هكذا تضلع من فن الشعر العسير ، فاصبح من اعلامه المعدودين . فهو ، والحالة هذه ، ما يسميه الانكليز a self made man ، ويجوز تعريبها بابن جهده . قد استقى مواد قريضه المتنوعة من مناهل جمال الطبيعة وحوادث التاريخ ، ولا سيما العصري ؛ فنعم المستقى ! ذلك ما يموح به لنا في مقدمة ديوانه الشعرية :

لئن كنت لم ادخل المدرسات صغيراً ولا بعد هذا الكبرْ ،
فذا الكون جامعة الجامعات ، وذا الدهر استاذها المعتبر !

بين ضروب الشعر العديدة قد اكثر من معالجة النوع الوصفي والتهذيبي والوطني والغزلي . لا نجد في ديوانه الضخم سوى اربع قصائد رثاء ، تثور في بعضها ، مثلاً في رثائه للبطل اللبناني يوسف كرم ، عاطفته الوطنية ؛ اما مدح الاحياء فلا نكاد نرى له اثراً . لا يمثل الشعر الروائي سوى قصيدة واحدة ذات نحو مئتي بيت بقافية واحدة ، لم يتمالك ان يزأر فيها زأرات وطنية عديدة طويلة ، تحول سرد حوادث قصته الى شعر غنائي شديد اللهجة ، قد تطايرت من لظاه شرارة فالهبت عنوانها هذا : « كل حر في دولة الظلم جان » . الاثر الوحيد للشعر الرمزي نجده في « رثاء بلبل »

حيث يندب فرحات نكد حياة شاعر الغصون ، ويرى في مصرعه الفاجع صورة حية لآلاف من بني الشرق يهملون شاعرهم ، بل ينقمون عليه انشاده ، متخذين منه ، لايراد صاحبه موارد الحمام ، عذراً اقبح من ذنب :

اماتك اموات القلوب من الظما ، وعندهمُ الماء النمير يسيلُ !
اماتوك اهمالاً وخافوا صنيعهم ، فسمّوك ميتاً ؛ لا ، فانت قتيل !

تلك الانواع الشعرية هي في ديوان فرحات بمثابة بعض الزهور النادرة في بستان حافل بالورد او الياسمين ، فلا نجد منها ما يساعدنا على التعمق في نقد قريحة الناظم . اما الانواع التي واظب على معالجتها فان فيها مادة وافرة لدقة تحليل تلك الشاعرية الناشئة ، التي لا يختلف اثنان من الثقات في صدق لهجتها ولا في قوة ابتكارها .

قد عالج فرحات الوصف واقفاً عليه حصة غير يسيرة من ديوانه ، على انه لا يكثر من وصف جمال الطبيعة ، فلا تصور ريشته بعض محاسنها الفاتنة الا عرضاً ، ولا سيما في غزلياته . لكن مداده لا يجف عن وصف الوان تباريحه المضنية ، يرسف بقيودها الضاغطة ويئن تحت احمالها الباهظة ، فيهتف في « خُلقت شقياً » :

سعادة نفسي ، متى نلتقي ؟ لعلك للآن لم تُخلقي !
الى كم اسائل عنك وابحث في مغرب الشمس والمشرق ؟
قطعتُ البحار وجزت القفار وحاولت جوب الفضاء النقي ،
وسائلت عنك الصبا والنجوم، فما نلت غير الاسى المحرق !...
خُلقت شقياً وعشت شقياً ، واحسب اني اموت شقي !

« بين البدر والبحر » و« الم وارق » تُسمعانا مثل هذا التأوه الشديد ، وكذلك « يا عيد » حيث يصيح من مهجره المحزن بوالدته النائية :

اماه ، ليت مع النسيم رسالةً تأتي فتُرجعني الى افراحي !
مرت ليالي العيد بي ، وكأنما وجه العبوس بوجهها الوضّاح !

يصف بمنتهى الدقة والابداع العاب صغره مع الصبيان والبنات ، فيُصعد الزفرات الاليمة على سرعة زوال افراحها :

مرت ليالي الانس والصفاء وانقلب السعد الى شقاء !

سواء اوصف حالته النفسية على عتبة الزواج في « وداع العزوبة » ، ام حياته في الارياف في « ثغاء الشاة » ، ام سياحاته التجارية في البرازيل في « حياة مشقات » ـ وكلها من الطراز العالي بكمال الدقة والطبيعية ـ فانه لا يزال يتشكى من فرط ثقل اعباء عيشه . طفح كيل بلاياه ، فتدفق في ديوانه انثات موزونة ؛ ومن جملة عوامل اساه المزمن ، الراسخ في اعماق روحه الطروب ، انحطاط الاخلاق وإحلال اكثر الناس الاصفر الرنان المحل الارفع في قلوبهم . هذا ما حدا به الى وقف عدد يُذكر من قصائده على تهذيبهم ومحاولة هدايتهم الى الصراط المستقيم ، لا على طريق الدين ـ فانه لا يفتأ يجاهر باحتقاره ، بوقاحة غريبة وسفالة شائنة ، مع انه في عين اكبر الفلاسفة ، كما في نظر عامة البشر ، الاساس المتين الوحيد للفضيلة ـ بل على طريق العلم ، الذي يرى فيه ، دون غيره ، الترياق الشافي لكل رذائل المجتمع ؛ وفي هذا الرأي الفائل من الهذيان ما فيه . لا يحق لمستخف بالدين كفرحات ، المنتهز كل فرصة سانحة في ديوانه للحط من مقامه ومن كرامة رجاله ، ان يدعي تقويم المعوج من اخلاق اخوته البشر . والحال ان شاعرنا الكافر يسند الى ذاته تلك الوظيفة العالية ، فيعرض نفسه للسخرية ولرشق موعوظيه اياه بهذا الجواب اللاذع : « يا طبيب انحطاط الآداب ، عالج ذاتك قبل معالجة غيرك ! »

لا ننكر مع ذلك ان في شعر فرحات التهذيبي آيات من الارشاد لا يشينها سوى بغضه الازرق للدين والتقوى ، المندلع لهيبه احياناً في ذلك الشعر عينه ، فيهدم بيُسراه ما حاول تشييده بيُمناه . يقول مثلاً في « عرس تجاري » :

لكن اخسر صفقة عُرفت بيع الفتاة وقلبها يشكو ؟
يا بائعي نفس منزهـة ، ان النفوس لربهـا ملك !

نصادف مثل هذه المعاني الجميلة في عدة قصائد ، منها « عجل الذهب » ، « قد يسبق الفقرُ الغنى » ، « متفجرات » ، « مُرة ولكنها حرة » ، « يا نجمة الليل » ، « المدينة في الليل » ، على ان ذلك الجمال زائف ، لان ادعاء بناء صرح الآداب على غير اساس الدين ضرب من الجنون كمحاولة تشييد قصور في الهواء ؛ ولذلك نعد عظات المصلح فرحات من نوع الهُراء .

لعمري انه لمن المضحكات المبكيات ان يدعي اصلاح بني جنسه وترقية اخلاقهم الساقطة ، وهو على شاكلتهم ، بل ربما فاق كثيراً منهم ضلالاً وعبوديةً لاسفل الشهوات ، نعني اللحمية ، وقد عظمها بل كاد يؤلهها مراراً عديدة في ديوانه ، بالغاً من فرط الهذيان مبلغ الاستعاضة بها عن الدين بكل ما فيه من عقائد سامية واخلاق طاهرة مقدسة . وبما ان الطبع يغلب التطبع ـ والعاطفة الدينية طبع بل غريزة راسخة في الانسان ـ لا يسع الشاعر المؤله اصنام اللحم الا ان يعترف لنا احياناً ، اذ يصحو من سكرات شبقه ، بفرط غوايته وتعاسة رقه في حمل نير الشهوات الذي لا اثقل من وطأته . يصيح في « الدمعة الخالدة » :

ما خُلقنـا ملائكاً بل اناساً تتبع النفس ، وهي تُغوي وتُغري !

وينوح في « زنبقة النهر الاسود » :

ويح الغرام ؛ لـكم يُمض وكم يضني وكم يُغوي وكم يُغري !
ارواحنـا في سوقـه سلعٌ معروضة علناً لمن يشري !

لم يخجل المدعي اصلاح البشر من هذا التصريح ، الذي لا يُقدم على مجاراته فيه ، على مرأى ومسمع من كل الناس ، الا المومسات . ثم يتجاسر بعد ذلك على تصويب سهام غضبه الى شبان عصرنا المنقادين لاقبح الشهوات ، هاتفاً بملء صوته :

ينشأ الفتيان منا للهوى اعبُداً ، والغيد للزيّ إماءْ !

نحو نصف ديوانه موقوف على ذلك الهوى بل الغوى ذاته ، مما لا نرى له مثيلاً في شعرائنا العصريين النوابغ ، ولا سيما الاميركيين . مهما تفنن في المعاني والخيالات الغزلية ، فان فرط نشوته بخمر العهارة المعتقة بين حنايا ضلوعه يُفقده رشده ويذهب بآخر آثار نبل شعوره . لا شك في ان انهماكه في اشباع الشهوات الجامحة قد ساقه الى ذلك الكفر الفظيع ، الهازىء بكل الاديان ، الذي لا يخفيه كالخرقة الملوثة عن نظر قرائه ، بل يرشقهم بقذائفه الصاخبة مئة مرة في ديوانه ، حتى في ابعد المواضيع عن الدين والآداب . لا يربأ بقلمه عن ان يستخدم كثيراً اسم الله ـ جل جلاله ـ واسم ابنه الوحيد سيدنا يسوع المسيح ، على وجه شديد الاحتقار والاهانة ، يُعد تجديفاً محضاً ، يتقح على ارتكابه مع انه مسيحي بميلاده وتهذيبه الاول . في روايته الشعرية « كل حر في دولة الظلم جان » ، التي حشاها بالكفر حشواً ، يسمي اخوته النصارى مُشركين لاعتقادهم سر الثالوث الاقدس . ينحي باللائمة على راهب غيور حثه على تعميد بنتيه ، بعدما اطال اهمال هذا الواجب ، فيقول له متهكماً :

عليك بماء الخضمّ فأقدم وعمّد ذويك !

لا يزال يُفيض على الاديان عموماً وعلى النصرانية خصوصاً سيول غضبه وشتائمه ، عازياً اليها وحدها بطء تقدم الشرق العربي في ميدان الحضارة . يقول مثلاً في ندائه الى « فرنسويي الشرق » ، وقد عنى بذلك طائفة من مواطنيه اللبنانيين :

تعجب قوم من تأخر حالنا ؛ ولو خبر الاديان ، لم يتعجب .
رمتنا بها الاقدار قدماً ؛ وليتها رمتنا بسيل يجرف الشيخ والصبي !

لا يزال يطعن في الاكليرس ، متعامياً عن كل فضائله وخدمه ، ناسباً اليه انواع المآثم ، رامياً اياه باستنزاف كل موارد البلاد ، من شمالها الى

جنوبها ، لفائدته الشخصية ، وبكونه قد « مشى على قلب الفقير ممكّناً خطواته » . يقول في « غلة الاغنام » :

ان الالى لبسوا السواد تنسكاً اربت جرائمهم على الارقام .

نظم قصيدة « الراهبة » برمتها ليسخر بزهدها السامي ، مدعياً انها قد اضاعت جمالها في سجن الدير . ينهال بالسب وانواع التهم الكاذبة السافلة على جماهير المرسلين الكاثوليك ، الذين هجروا اوطانهم ، مضحين بالنفس والنفيس لخدمة وطنه اللبناني ، بنشر الدين والعلم في كل ارجائه ، ولهم الايدي البيضاء في انشاء نهضتنا الادبية الحديثة . مع تلك العوارف المسبّغة ينفث فيهم سم كنوده الدنيء وتحامله الاعمى :

اذا فئةٌ بثوب الدين وافت ، توافيها بثوب العلم اخرى .
ثياب البر والارشاد صارت لجسم الشر والاحقاد سترا ؛
وجوهٌ للصلاح على جسوم جرت خلف المفاسد كل مجرى .
خذوا بعثاتكم عنا ، فانتم بها من كل اهل الارض احرى !

ثم يعود الى التعبير عن تلك العواطف السافلة ذاتها ، بل الى تلفيق مثل تلك الاكاذيب الفاحشة في « النسر الواقع » .

لم يجتزىء بان يأخذ على عاتقه مهمة هداية البشر الضالين الى جادة الفضائل ، وذلك باستئصال شأفة الدين وتوقير رجاله من افئدتهم ، بل ادعى تقويم وطنية اخوته اللبنانيين ، العوجاء والفاسدة على زعمه . لا يزال يصب عليهم وابل اللعنات في قصائد عديدة ، ناقماً عليهم محبتهم لفرنسة وثقتهم بها ، ملقباً اياهم تهكماً بفرنسويي الشرق ، حانقاً عليهم اشد الحنق لشدة حرصهم على استقلالهم القومي والسياسي ، الموروث من جدودهم الاماجد ، وابائهم كل الاباء ضم بلادهم الى سورية . يكاد يتميز من الغيظ وهو يُنكر على داود بك عمون ، ولا سيما على عميد لبنان الخالد الذكر ، البطريرك الياس الحُويّك ، مساعيهما الحثيثة الناجحة لدى الحكومة الفرنسية للحصول على كامل استقلال

وطنهما ، بل وطنه ، عن سورية . على هـذا النمط الغريب ينفجر بركان وطنيته الزائفة في احر منظوماته لهجة ، مثل « يا اهل لبنان » ، « ان تلو هامتهـا » و « كل حر في دولة الظلم جان » حيث يدعي النبوة ، فيصعق مواطنيه ، الخائنين على رأيه ، بهذا التنبؤ الهائل المُرعد لفرائصهم :

سوف تُمحى حـدود لبنـان بالسيف وتنظمّ بالنجيع القـاني !
فصله عـن بقية الشـام فصل محـزن من رواية العُبدان !

وايم الحق لا يسعنا ان نفهم كيف تعامى الى حد رميه بالعبودية اخاه اللبناني ، المصر على بقائه لبنانياً حراً كجدوده ، سالماً من وطأة نير يتوق الشاعر المدعي الوطنية احر التوق الى حمله ، بل يرى فيه لنفسه اسمى درجات النبل والمجد ؟ انما تفسير ذلك اللغز الغامض لا يصعب على متصفح ديوانه ، فان اللبنـانيين ، في نظره ـ وكذلك اهـل مصر ، سورية ، فلسطين ، العراق ، الجزائر ، مراكش وغيرهم من الناطقين بلهجات عربية شتى ـ ليسوا اقواماً مختلفة ، لـكل منهم مميزاته الخاصة في الجنسية ، التاريخ ، الدين ، الاخلاق ، الثقـافة والسياسة وغيرهـا ، بل هم جميعهم امة واحدة عربية ، جارت عليها الاقدار ، ففرقت شملهـا شذر مذر من الخليج الفارسي الى ابعد سواحل البحر المتوسط ؛ فـلا بدع بان يقول عنهم الشاعر اللبنـاني في « حيرام حيرام » : « لولا التعصب كانوا كلهم عرباً . »

يضرب هـذا الوتـر عينه في « تحية الاندلس » وفي « نحن عرب واولادنا افرنج » حيث يقول عن العرب :

انهـم اجـدادنا بالرغم مـن قائل إنا من العُـرب براءْ .

لا يزال ، هـو اللبنـاني المسيحي ، يتغـنى بمجد العرب جدوده ، على زعمه ، متناسياً حادثاً من اخطر حوادث تاريخ بلاده ، وهو انهم قد غزوها وفتحوها بحد السيف ، وقد اعملوه في رقاب اهاليها النصارى ، فصبغ هؤلاء بدماء استشهادهم الزكية وهاد لبنان وهضابه .

قد فرغنا من ابداء رأينا في انواع الشعر التي اكثر من معالجتها فرحات ؛ بقي علينا انتقاد تعبيره . تتجلى فيه مزيتان فاتنتان ، قد بلغ منهما مبلغاً رفيعاً ، قلما جاراه فيهما مجار ، حتى من نوابغ شعرائنا المحدثين ، وهما الابتكار والانسجام . فرحات من الد اعداء الابتذال ، وكأن يراعه ينبوع فيّاض بابدع الخيالات الجديدة الآخذة بمجامع القلوب . ها كم بعض الفرائد من ذلك العقد الفاخر ، وهي ابيات اقتطفناها من عدة قصائد ، كل منها قائم بذاته ، فلا علاقة له بما يليه :

سُترتْ معائبه الحلى ... كالقبر يستره الرخامْ . . .
يُتلى القريض على مسامعهم كما ... تُتلى الصلاة على مسامع كافر . . .
ويد الغني على الفقير ... كأنها احدى الملازمْ . . .
يمشي الاسى في داخلي متغلغلاً ، ... بين العروق كبضع الجراح . . .
وحلّت محل الرؤوس جيوبٌ ... لكل معاني الهدى فاقدهْ . . .
غاصت الشمس في الخضم وابقت ... فوقه ذيل ثوبها الارجواني .

يتضح من النموذجات المذكورة ان ابتكار الشاعر مزدان بحلية الطبيعية التامة ، التي قد ذهل عنها كثير من شعرائنا ، فاختلط عليهم الحابل بالنابل ، اي الابتكار الصحيح بالغرابة المستهجنة لتجاوزها حدود المشاهَد بل المعقول .

اما الانسجام في قريض فرحات ، فهو عجب عجاب ، ولا سيما اذا قوبل بانواع الغموض والتعقيد التي كثر ما تفاجئنا في قصائد بعض المشاهير من شعرائنا ، بغض النظر عن غيرهم ، فتخدش آذاننا تخديشاً اليماً ، يعكر صفاء تنعمنا بجمال المعاني ورخامة الاوزان . قد ذكرنا الاوزان ، فيجدر بنا الا نبخس فرحات حقه في هذا الشأن ، فقد جددها في كثير من قصائده تجديداً يشهد له بسلامة الذوق . اليكم مثالين من احسن ابتكاراته في الميدان الموسيقي ؛ هذا دور من « احدى الليالي » :

ليلة الانس والسرورْ اي نـــورْ
نورها الغامر الفضاءْ !
بدرهـا سيد البدورْ في الظهـــورْ
والتسامي والاختفـاءْ .

وهذا دور من « يا نسيم الصبا » :

يا نسيم الصبـا ، مرحبا !
ان هذا السهادْ والحزَنْ
من حنين الفؤادْ للوطنْ !
كيف اهل الودادْ في المحنْ ؟
كيف تلك الوهاد والربى ؟
يا نسيم الصبـا ، مرحبا !

خلاصة القول ان فرحات ذو شاعرية محضة ، ممتازة بحيوية المواضيع وتنوعها ، حاليةً بابدع حُلى الابتكار والانسجام في التعبير ، مع إبداع غير يسير في الاوزان المطربة . على اننا آسفون اشد الاسف لكونها قـد اوغلت كل الايغال في الغزل ، الخلاعي احياناً والمرخي دائماً للعزائم ، بل قد ضلت بصاحبها في مجاهل وطنية كاذبة ، مناقضة كل المناقضة للحقيقة والتاريخ . وضلالهـا الاعظم الذي لا يُغتفر ، ولا سيما في شـــاعر مطبـوع يدعي تهذيب قومه وترقيته ، انها قـــد دهورته الى اسفل دركات الكفر الفاحش الفظيع .

ايليا ابو ماضي

في ديوان « الجداول »

لا يجهل اسم ايليا ابو ماضي هواة الادب العصري ، ولا سيما الشعر الحديث ، فانه من اشهر اعضاء « الرابطة القلمية » في نيويرك ، وقد نشر ثلاثة دواوين ، وظهر كثير من قصائده في مجلات اميركة ، بل في صُحف الشرق العربي . طالعنا ديوانه « الجداول » المطبوع في نيويورك سنة ١٩٢٧ ، وبعد وزن محاسنه ومساوئه بميزان النقد النزيه ، لخصنا ملاحظاتنا في الصفحات التالية .

قال الفرنسيون : « الانشاء هو الانسان » ؛ يعنون بذلك ان الاول مرآة صادقة للثاني ترتسم فيها ملامح نفسه ، فيسهل علينا استشفافها وراء مؤلفاته ، وان لم نعرفها في ذاتها . هذا المبدأ السديد يتحقق في « الجداول » فانها ، مثل سميّاتها في الطبيعة المادية ، مرآة صافية بانسجام الشعر ، صقيلة بدقة التعبير ، تعكس لنا بكل الوضوح ما يجول في عقل الشاعر من الافكار وما يثور في قلبه الحساس من العواطف .

هو ذاته يلتمس من قارئه منذ اول قصيدة ان يجعل نفسه في اتصال وثيق بنفس الشاعر ، لتسري اليه كل اهتزازاتها :

هذه اصداء روحي ؛ فلتكن روحك اذنا !...
ان بعض القول فن ؛ فاجعل الاصغاء فنّا !

هذا ما توفرنا عليه ، محدقين الى مياه « الجداول » متشوقين الى التمتع باعلاقها ؛ وقد وجدناها عديدة ، مطربة بروائع الابتكار في التصوير والتعبير وما ينطويان عليه في الغالب من الحقائق الراهنة المتعلقة بعلم النفس ، وهو من اشهى العلوم والذها للانسان ، فانه يحدثه عن ذاته ، ويُزيح بعض السجوف عن اسرار كيانه الغريب الجامع في شخص واحد عنصرين دائمي التناقض :

الروح والمادة .

في هـذا القسم الجميل من الديوان نشاهد اوفـر التنوع في المواضيع والخيالات ، بل في الاوزان احياناً . يعبّر الشاعر عن شدة حبه لوالدته في القصيدة « هي » على اسلوب مستحدث كامل الطبيعية . في « العميان » – وهو نعت يرشق به زمرة المستخفين بالشعر – يبين لهم ضلالهم السافل بميلهم عن اسمى اللذات العقليـة الى مراتـع الحواس ، فيعنفهم على ذلك الغوى تعنيفاً ماضياً كالصوارم :

انما الناس من تراب ونور ؛

فبنـو النـور يعبدون النورا ، وبنو الطـين يعبدون الطينـا !

في « الزمان » يصف لنا ادق الوصف سرعة مرور الوقت او تباطؤه وفقاً لاختلاف احوال النفوس :

يمشي الزمان بمن ترقب حاجةً متثاقلاً كالخـائف المتردد . . .

ويكون اقصر ما يكون اذا الفتى مـدت له الدنيـا يد المتـودد .

في « اليتيم » يثير فينـا الشفقة على مرارة بؤسه في فجر الحيـاة ، بل ينعش املنا ان نجعله بالعطف والاحسان عضواً ممتازاً في جسم البشرية :

ربـما كان اودع الله فيـه فيلسوفـاً او شاعراً او نبيّـا .

ابو ماضي ذو كلف شديد بالشعر الرمزي ، وفي ذلك دليل واضح على قوة مخيلته ، تندد بالنـاس وتُريهم سخافتهم واثرتهم ، لا على اسلوب النظريات الجـافة والنصائح العابسة ، بل بواسطة الرموز الصائبة الظريفة ، كأنهـا انامل تشير عـن بُعد الى قروح النفوس ، بدون لمسها لمساً خشناً ينكأهـا ويُدميها . دونكم بعض النموذجات من ذلك الشعر الطريف .

« الحجر الصغير » مندمج في بناء سد ، على ان صغره وحقارته يحولان دون فهمه خطورة وظيفته . جعل يئن في صمت الليل على فرط ذله ، ويحسد الرخام المنحوت تمثالاً ، الماء الساقي الحدائق الغناء ، الارض المنبتة زهوراً

واثماراً ، الدر المتلألىء في اجياد الصبايا . يئس من حياته الخفية الوضيعة ، فقاده القنوط الى التغرير بها ، فهوى من مكانه منتحراً ، وبعد حين

فتح الفجر جفنه ، فاذا الطوفان يغشى المدينة البيضاء !

رأت « التينة الحمقاء » ان ليس لها بل لغيرها الفيء والثمر ، فاحجمت عن إثمارها لئلا يُدمن الناهبون نهبها ، فلم يُطق صاحب البستان عقمها ، فاستأصلها :

من ليس يسخو بما تسخو الحياة به ، فانه احمقٌ ، بالحرص ينتحر .

في « الضفادع والنجوم » يرينا الشاعر تلك الحيوانات البلهاء واهمةً ان الكواكب المنعكسة في مياهها جيش جرار زاحف عليها ، فحملت عليه حملة شعواء بنقيق هائل ، لم تكف عنه حتى انبلج الفجر وامّحت صُور الدراري ، فصاحت الضفادع نشوى بظفرها الخيالي :

ايها التاريخ ، سجّل اننا امة قد غلبت حتى النجومْ !

كل تلك القصائد وكذلك « السجينة » ، « المساء » ، « في الفقر » هي من الطراز العالي ، تتجلى فيها قريحة شاعر مطبوع ، ينبذ الانتحال والتقليد ، مقتبساً الهامه من صميم الحياة ، ذلك الينبوع الفيّاض الذي لا تنضب مياهه . فليت الشاعر المفلق بقي في ذلك المستوى الرفيع ، مجتذباً الى عليائه الشامخة آلاف النفوس الدابة على الحضيض دبيباً ، بل المتمرغة في الاوحال ! ان نحو ثُلثي « الجداول » تجري مياهها العكرة بسم زعاف ، سم المادية الغليظة ، المبنية على ارتيابه في اوضح الحقائق الجوهرية التي هي اساس كل الاديان ، بل التي يمتاز بها الانسان عن الحيوان . كأن الناظم قد تعامى عنها كل التعامي ، فسخّر شاعريته السامية لنشر شكه وكفره الفاضح بين اهل الضاد ؛ فبئس التسخير الشائن لشخصه ولفنه العالي !

في « الاله الثرثار » ـ هكذا يسمي الانسان ـ يساويه ، مع انه صورة الخالق الحية وملك الكون المادي ، باحقر العجماوات بل الجمادات ، فيصيح

به ، كأنه يوقظه من سبات الغواية :

انت جزء من الكيان وفيه كثراه ، كنبته ، كحصاه ،
كالورود التي تحب شذاها ، والبعوض الذي تخاف اذاه .
ما لحي بالموت عنه انفصال ؛ ان دنياه هذه اخراه .

في هذه الابيات ملخص فلسفة الشاعر المادية ، اذا ساغ ان ننعت هذيانه الوقح بالفلسفة . وله نحو عشرين قصيدة ، يُجهد فيها مخيلته لبث ماديته السمجة ، محاولاً بانواع السفسطات المتنكرة بوشي قشيب من ابدع الخيالات ، ان يطفىء في العقول الايمان بوجود اله خالق ، مشترع ، ديان ، يكافىء الابرار بسماء خالدة الافراح ، ويعاقب الاشرار بنار ابدية السعير ، فضارعت عتاهته جنون من يحاول اقناع الناس بعدم وجود الشمس التي تنيرهم والقبة الزرقاء التي تُظللهم . يهتف في « العُليقة » :

انا للارض ، وان طال عن الارض اغترابي .

في رثائه لسليمان البستاني يصرح في شأن الموت :

لا تقل « ما وراءه ؟ » ذاك سرٌ خبأته الحياة في ظلماته .

كما يعترف بجهله مصيره بعد المنون ، هكذا يقر في « الطلاسم » بجهله مصدره :

جئتُ ، لا اعلم من اين ، ولكني اتيتُ .

يخيَّل لقارىء « الجداول » ان ناظمها اراد ان يدس سم ماديته المحضة في الدسم بين صفحات النصف الاول من ديوانه ، وقد ازاح طرف النقاب عنها في بعض الابيات او الادوار . ثم ايقن ان المطالع قد اعتاد ذلك السم الناقع ، فزاد كميته بالتدريج الى ان اقدم على تلقيحه به بدون انقطاع في القصائد السبع الاخيرة . كلها مؤلفة من ادوار ينتهي جميعها بهذه اللازمة المضجرة من فرط تكرارها : « لست ادري » . يكتفي ابو ماضي بابداء شكه العام ، بل جهله المُطبق لابسط الحقائق التي يعتقدها اشد الشعوب

توحشاً ، كروحانية النفس وخلودها ، ووجود الاله الخالق وحقوقه المطلقة تجاه خليقته الناطقة . في « صراع وعراك » يقابل ذاته بالزهرة والحية والنملة ، فيقول :

فبما امتاز عنها ؟ ليت شعري ! لست ادري .

ثم يسأل نفسه اكان له وجود قبل كيانه البشري :

اتراني كنت يوماً نغماً في وترِ ،
ام تراني كنت قبلاً موجةً في نهرِ ،
ام تراني كنت في احدى النجوم الزُهُرِ ،
ام اريجاً ام حفيفاً ام نسيماً ؟ لست ادري .

ما النتيجة العملية لتلك المادية السافلة ، التي يرشق ابو ماضي قارئه بقذائفه الضخمة المتواترة ، ولا سيما في القصائد السبع الاخيرة من « جداوله » المسمومة ؟ ان الناظم يكفينا مؤونة استخلاصها ، فلا يخجل من ان يقول في « السماء » :

اكبر الاثم قولة المرء « هذا الامر إثمٌ وهذه فحشاء » ؟
ليس بين الصلاح والشر حدٌ كالذي شاء وضعه الانبياء .

وفي « تعالي » يطبّق على ذاته ذلك المبدأ الكفري المبيح لاقبح المنكرات ، فيقول لحبيبته « تعالي نُطلق الروحين من سجن التقاليد » ؛ يعني بالكلمة الاخيرة المبادىء الاساسية لكل الاديان . هكذا يعترف الشاعر ، وهو لا يستحي ، بان الشهوات الدنيئة قد غشّت على بصيرته ، فاكتفى بمراتعها اللذيذة على الارض ، واعرض كل الاعراض عن السعي وراء سعادة ابدية بعد الموت ، لانه يعدها من الاوهام والخرافات ، فصح فيه كل الصحة بيته هذا في « السجينة » :

ومن عُصبت عيناه ، فالوقت كله لديه ، وان لاح الصباح ، غروبُ .

رشيد سليم خوري

رشيد سليم خوري الملقب بالشاعر القروي هو من شعرائنا المعدودين في اميركة ، الاندلس الجديدة ؛ ولا ريب في ان بعض قرائنا قد طالعوا بلذة وافرة ديوانيه « الرشيديات » و « القرويات » ، اللذين طُبعا في السنتين ١٩١٦ و ١٩٢٢ في سان باولو (البرازيل) حيث هاجر سنة ١٩١٣ ، ثم ديوان « الاعاصير » الذي وليهما . قد كتب لنا سنة ١٩٢٧ على رقعة يدل عنوانه المذكور فيها انه صاحب معمل لربْط العنق في المدينة المشار اليها ، فقال لنا انه « لا يزال فيها حليف الكد والنصب ، يتنازعه عاملان « قويان ، ميله الشديد الى الادب وتكاليف الحياة الشاقة في غربة سحيقة ، « يحيط به فيها من ذويه عيال ، فيهم عُجّز وقُصّر . يكتب بداع شديد « من هوى النفس ، او بدعوة ادبية لا قبل له بردها ؛ ولا وقت لديه « للكتابة الا ما يختلسه من فترات راحته ، او ما يضحي به من ساعات بيعه وشرائه . » لعمري ان من اثقلت الشواغل المادية كاهله الى ذلك الحد الباهظ ، فلا يقف على الشعر سوى نُتف من اوقاته الحافلة بهموم المعيشة ، وهو يتحف مع ذلك العالم العربي بجواهر عديدة من القريض الرائع ، لجدير كل الجدارة بان يُدرج في مصاف نوابغ الشعراء طالعنا عدداً كبيراً من منظوماته ، فاعجبنا عكوفه على استنباط المعاني الجديدة والاستعارات الشخصية ، ولا سيما بسطته في المواضيع الشعرية الخالصة ، مما يندر العثور عليه عند زملائه ، فان اوتار عودهم الشعري قليلة في الغالب .

طرق رشيد كثيراً من ابواب الشعر الغنائي ، فاجاد وابدع ، على ان المدمن قراءة قصائده والمستقصي مراميها لا يلبث ان يرى اجلها دائراً على محور حب وطنه لبنان ، الصغير بمساحته وعدد اهاليه بقدر عظمته في ميداني التاريخ والادب . كم اصعد من الزفرات وذرف من الدموع راثياً

لشقاء لبنان ، ولا سيما بعد الحرب الكبرى التي فتك فيها الجوع والفقر المدقع بآلاف ابنائه فتكاً ذريعاً نادر المثال . فيدعو « سليل حاتم » الملك حسين الى تفقد تلك الديار المنكوبة :

طُف في مدائنها ، فكم من جائع مترقب احسان كل غيور !
ولرب راب في النعيم مجندل كالشلو بين جنادل وصخور !

في « احبابنا » يتصور الشاعر المهاجر انه واقف بين قبور خلانه الذين اودت بهم المجاعة المفترسة في ضيعة البربارة مسقط رأسه ، يدعوهم الى النهوض من مضاجعهم الخشنة ، فلا يلبون له نداءً ، فيتأوه على مصابهم الفاجع ، ثم يختم رثاءه بهذا الهتاف المتصاعد من قلبه الكسير :

اسفي على بربارتي وطن الاحبّة والصحابْ ،
ومجال اول نظرة للحب في عهد الشباب !
لم يُبق فيها الجوع غير البوم ينعب في الخراب !

يتوق في منفاه البرازيلي احر التوق الى مشاهدة وطنه المحبوب الذي فصلته ضرورة الارتزاق عن صدره العطوف ، فيسكب ذوب شوقه المضني في « لو ترين » ؛ ها كم دوراً من ابدع ادوارها :

إيه ، لبنان ، هل يراكْ نازحٌ شفّه هواكْ ؟
حبذا العيش في حماكْ ، حبذا العيش ليلتينْ ،
ثم حينْ !

بيد ان الشاعر القروي لا يجتزىء بالتشبيب بمحاسن وطنه ، وقد حُرمها ردحاً من الزمان ، ولا بالبكاء على ضرائح اهاليه الابرياء ، وقد ماتوا شر ميتة ؛ ولا تكفيه المجاهرة بان هواه للبنان ثابت كالارز الخالد بازاء صروف الدهر ، كما فعل في « الرجاء الوطني » :

بنيتُ من الارز هيكل حبي ، فقل للعواصف ان تعصفا !

انما يحب بلاده حباً اسمى ، يجعله مبتئساً على رسفها منذ عصور بقيود

ادبية اشد وطأةً من اثقل الرزايا المادية الوقتية . قد عبّر غير مرة عن تلك العاطفة الحارة المستولية على قلبه ، الممتزجة بدمائه ، ولا سيما في « سائلي » ، اذ يقول لنجية روحه المعذبة :

سائلي الروح عن فؤادي ؛ انـه طـــار بالزفـير ! ؟
فاذا هاجت العواصفْ ، فهي من غازه عواطفْ
نائحـــات على بـلادي وعلى شعبيَ الاسـيرْ !

يستخف في « المعجزات » ببطش الاعصار الجارف الهـائل التدمير ، فيقول له :

ان كنت تمحو بعض ما طُبعا ، فانفض غبار الذل عن وطني !

يخاطب اخوانه جناهـا في إيبيرنـكا من ضواحي سان باولو ، حيث شبت نيران العراك الرائع ، المفضي الى استقلال البرازيل عن سيادة برتغال ، فيقول لها في ختام نجواه :

يا زهرةً يحيي شذاها العظامْ ، فـوحي لاشق امـة في الامم ؛
مسّي انوفاً اصبحت في الرغامْ ، فـربـما عاد اليهـا الشممْ ،
فجردت في إبرنـكا الحسـامْ وركزت في حرمونَ العلمْ !

بجانب القصائد الوطنية التي احلها الشاعر القروي المحل الاول من ديوانه ، نراه يعالج بعض المواضيع التهذيبية ، رامياً بها الى ترقيـة اخلاق قومه ، لايقانه ان الاستقلال الامثل هـو تحرر الانسان من نير الاميـال السافلة وتقربه الى كمال خالقـه الجليل . في قصيدته « مدنف في مستشفى » قاده وصف شقاء العليل بجسده الى ذكر من يفوقـه تعاسةً ، وهـو العليل بروحه ، عبد الشهوات المنكرة :

رب ساع لم يشكُ في الجسم داءَ ، وهـو في النفس قد شكا ادواءَ .
صحة النفس ان تكون نقيّاً ، صالحـاً ، لا يدنس الاتقيـــاء ،
وكريماً ما همّـه الاخذ لو لم يكُ بالاخذ يستطيـع العطـاء .

في « الشر الكبير والخير الكبير » يصرح لنا بان الاول هو الخطيئة ، ولو خفيفة ، وان الثاني هو العمل الصالح الذي به وحده يمجد الانسان خالقه ويخدمه خدمة مقبولة :

اشد بلية ذنب طفيف ، يجر عليك تبكيت الضمير ..
الذ ملذة صنعٌ جميل ، تنام لديه مرتاح الضمير .

في « انشودة الفتاة » يميل ببنت وطنه عن الانهماك في تزيين الجسد الى بذل العناية لتحلية النفس بالعلم ، وعلى الاخص بالفضيلة :

فجمال الجسم يفنى مثلما تفنى الزهورْ ،
وجمال النفس يبقى زاهراً مر الدهور !

تلك بعض المواقف التهذيبية لرشيد خوري ، وله مثلها سداداً واجادةً في مضمار وصف الطبيعة والاخلاق . من اجمل قصائده الوصفية « وقفة على الشاطىء » ، « سقوط اورشليم واريحا » ، و « مدنف في مستشفى » التي مطلعها :

ساهرٌ لا تمتعاً بل عذاباً ، نائمٌ لا استراحةً بل عياءَ .

احياناً يسبك وصفه في قالب الرمز ؛ من اظرف النموذجات على فنه هذا « الثور » . قد نعت هذا الحيوان بالانقياد والوداعة والاكباب على الشغل الناهك الدار بالرزق على البشر ؛ وبعد تذكيرنا انهم قد عبدوه في القرون الغابرة ، يسأله هذا السؤال :

ايها الثور ، كيف حالك اصبحْ بعد ذاك التمجيد والاكرام ؟
سرق المجد منك بعض الانام ، فهو ثور ، لكن له الناس تفلح .

هي فكاهة عنّت له في وصفه فادمجها فيه ، وقد يكون الهزل لحمة وصفه وسداه ، كما في « حلق الشاربين »

الشاغلين ، المزعجين ، الطالعين ، النازلين ؛
ويلي اذا ما ارهفا ذنبيهما كالعقربين !

ان ينزلا ، لجما فمي ؛ او يصعدا ، لطما بعيني .

لم يُكثر من نظم القصائد الروائية ، مع طول باعه فيها ؛ كفى شاهداً على تلك البراعة ما نراه من إحكام سرد الحوادث في « زغرتا وبشري[1] » و « البشرانية الحسناء » ، فنأسف كل الاسف لعدم توغله في ذلك النوع المستحسن من القريض .

على انه يرتقي الى اسمى ذرى الشعر الغنائي حين يبوح لنا باشمئزازه النبيل من ترهات هذه الحياة الدنيا ، وشوقه المضني الى الوطن السماوي وسعادته المشبعة الابدية . من اجمل ابياته في هذا المعنى ما نقرأه في « الحياة الباقية » :

انما اللذة في الدنيا اشتهاءٌ فضجرْ ؛
وانا اشتاق لذات الخلود الدائمهْ !

وفي « الوطن البعيد » :

ما البرازيل مهجري ، ليس لبنان لي حمى ؛
ان نفسي غريبة ، تشتكي البعد فيهما .
انا ما دمت في الثرى وبعيداً عن السما ،
مهجتي كلها جوى ، كبدي كلها حنينْ ؛
نازحٌ يشتكي النوى ، دأبه النوح والانينْ !

قد ذكرنا اصناف الشعر التي عالجها الشاعر القروي ، وفيها من التنوع الشهي ما يُطربنا . فضلاً عن ذلك التفنن في المواضيع ، يمتاز رشيد بالابتكار في التعبير ، وعلى الاخص في الخيالات والاستعارات ؛ فهو في هذا الميدان ايضاً من شعرائنا المبرزين . اليكم بعض الامثلة من صياغته الطريفة ؛ يقول في وصفه للفتاة الطاهرة :

وكما يسري نسيم الصبح في صدر الحقولْ ،

---

(١) ضيعتان من ضيع شمال لبنان .

هكذا افكارهـــا في صدرها الباهي تجول .

يحن ارق الحنين الى ضيعته البربارة

حيث السماء بظل كل عريشة ، حيث الملاك بوجه كل صغير !

يُسر الينا بشدة ضجره من حياته في وادي الدموع ،

من رياء رائج في سوق حب كاسد ؛

تلك مأساةٌ يواريها عن العين المنامْ[1] !

يطلب من اخوانه إيبيرنكا ان تبوح له بما رأته من المشاهد الفتانة في حرب الاستقلال البرازيلي :

يا زهرتي الصفراء ، بنت الحتوفْ ، بنت الظُبى ، بنت العذاب الاليمْ ،

يا شعلةً من برق تلك السيوفْ ، يا قبسةً من نار ذاك الجحيمْ ،

صفي لنا غارات تلك الصفوفْ وحدثي عن هول يوم عظيمْ !

تتجلى مقدرته على الابتكار حتى في الرثاء ، الذي قلما حرك له القلم ، وهو من اكثر انواع الشعر العربي ابتذالاً ، يصعب جداً انفساحه للابداع في التعبير . قال في رثائه لصديقه الكاتب قيس لبكي ، انه يبكي

على ذكاء نادر ، طاهر ؛ وكم رأينا من ذكاء قذرْ !

على يراع قد فقدنا به ناياً يغني ، لا يراعاً يصر . . .

كنت رقيق القلب الا على قلبك ، لا يعنيك ان ينفطر ؛

اسرفت في اجهاده آلةً ، كأنما آليت ان تنكسر !

التأنيس ـ نعني بذلك اعارة الخلائق غير الناطقة نفساً بشرية ـ هو ايضاً من مميزات قريحة الشاعر القروي . يناجي النسيم في « وقفة على الشاطىء » ، مذكراً اياه عهداً مضى وافر العذوبة ، فيقول له :

طالما زرتني اذا انتصف الليل بلبنان ، والانام نيامُ ،

ورفعت الغطاء عني قليلاً ، فاحست بمزحك الاقدام .

---

(١) قد عنى الشاعر بالمنام الموت .

ما اظرف « كلام دوحة » تفصّل لنا مظاهر عطفها على الفلاح المنهوك من التعب ، اللاجىء الى ظلها الوارف المضياف ، وهو لو استظل بجانب قصر احد الموسرين ،

لدهته مكنسة الغني ، وراءها الكلب العقورْ .

ثم تطرىء التساوي الكامل السائد في عالم النباتات ، وهيهات ان يوجد مثله بين بني آدم :

هذا التراب طعامنا ، وشرابنا هذي البحورْ .

يرحب الشاعر بالحرية الناشئة في الدولة العثمانية بعد سقوط الطاغية عبد الحميد ، فيخاطبها باقوال التعظيم هذه :

يا حياة الانام ، اهلاً وسهلاً ، بهتاف الترحيب ضج الانامُ !
انت اجريت في القلوب حياةً ، وهي ماء بدونها ورغام ،
وكسوت الانشاء ثوباً جديداً تتبارى في نسجه الاقلام .

نرى مثل ذلك التأنيس الطبيعي اللبق في « الحوانة إيبيرنكا » ، « المعجزات » ، « البلبل الساكت » وغيرها ، وهو من اجلى الشواهد على قوة مخيلة الشاعر القروي . مع تلك المحاسن الممتازة نجد في قصائده بعض الابتذال وعدم الطبيعية في الخيالات ، كقوله في وصف ليلة مقمرة :

فكأن الفضاء صدر رحيب ، وكأن الهلال فيه وسامُ .

نصادف ايضاً فيها شيئاً من المغالاة المستهجنة ، مثلاً في كلامه لمواطن عائد من المهجر الى لبنان الثاكل آلاف بنيه بعد الحرب العالمية الاولى :

موّن عيونك ما استطعت من البحار ، وانت راجعْ ،
فلسوف يدهشك المصاب وسوف تُعوزك المدامع !

بيد ان تلك السيئات المصحوبة احياناً باللحن الخليقة بغض النظر عنها في شعر فياض بالحياة ، نبيل المرامي ، كثير التنوع في المواضيع والابتكار في الخيالات ، مما يُجيز لنا عد ناظمه من نوابغ القريض العصري .

نعمه قازان

في « معلقة الارز »

نشر نعمه قازان سنة ١٩٣٨ مجموعة من قصائده ، عنوانها « معلقة الارز » ، في سان باولو احدى مدن البرازيل . صاحب هذا الديوان لبناني مولود في ضيعة جديتا سنة ١٩٠٨ ، وقد تخرج في المدرسة الوطنية في قرية الشويفات من سنة ١٩٢٢ الى ١٩٢٦ ، ثم هاجر الى البرازيل في العام التالي . هناك اكب على اشغال شتى ، ثم عقد سنة ١٩٣١ شركة مع نسيبه سليم رزق النابغة في صناعة الجلد ، فكان لهما بعد اربعة اعوام مصنع من اكبر مصانع الاحذية في اميركة الجنوبية .

نظم نعمه الشعر منذ حداثته ، بل نشر شيئاً منه في الصحف بتوقيع « بدوي البقاع » . قد اخبرنا احد اصدقائنا ـ وهو من اشهر ادبائنا في البرازيل ـ ان قازان ينكر كل الانكار ما صاغه من القريض واذاعه بذلك الاسم المستعار . لذلك عمد الى نظم « معلقة الارز » ، وهو موقن ايقان كثير من رصفائه المعاصرين ان الشعر العربي في مسيس الحاجة الى التجدد الحيوي في معانيه واساليبه . فحثتنا تلك الانباء الشائقة الى اجالة نظر النقد بين قصائد « معلقته » .

يقول قازان في ظهر صفحة اهداء ديوانه لروح امه : « طُبع من هذا « الكتاب الف نسخة بنفقة اصحاب معمل غاندي ، سليم رزق ونعمه قازان « والشركاء ، وقد وقفوا ريع هذه الطبعة على الفقراء المحتاجين ، توزعه « جمعيات خيرية في ريو ده جانيرو وسان باولو ولبنان . » نعم الفكر النبيل واجزل الله ثواب اصحابه في الدارين . بعد ذلك نجد توطئة شعرية حافلة بخيالات جميلة لناظم « المعلقة » ؛ هاكم خاتمتها : « الانسان لا يستطيع

« ان يتحدث عن الله حتى يتحد بالله . آمنت بالله ، وطوبى للذين آمنوا ولم يروا ! »

مطلع القصيدة الاولى ـ وعنوانها « الفاتحة » ـ صيحة غضب نستغربها جداً بعدما ابداه لنا من افكاره السامية في علائق الانسان مع الله ، ومن حنانه واريحيته نحو المعوزين . اما في تلك الصرخة فنستشف حنق الاثرة المجروحة :

تطاول قوم على شهرتي ، فقلت : « خذوها بلا منة !
« اذا كان ذلك ما تنشدون من الشعر والفن ، وا خيبتي ! »

« التجديد » ـ وهو القصيدة الثانية ـ حملة عنيفة على دعاة الجمود ؛ يحتج عليهم قائلاً :

اخذتم عليَّ طريقي الجديد ؛ اليست حياتيَ في جدتي ؟

ثم يُكثر من الترنم بغده ـ وهو رمز التجدد ـ باطناب وابهام مملين ، متحاشياً عن ان يوضح لنا ماذا يعنيه بذلك التجدد ؛ بل يزعم انه اتى معجزة من الابتكار بانشاده :

غدي ، يا الهاً عليه اتكالي ، وفيه عزائي وامنيتي !

في « امارة الشعر » بعض الوضوح والتلاحم ؛ الفكرة الجوهرية التي يعبر عنها هي ان كثيراً من المعدودين امراء الشعر غير احقاء بذلك اللقب السامي ، لان حسن قريضهم محصور في تنميق الالفاظ ، وانما الجمال الاسمى في المعاني . لقازان في هذه القصيدة عدة ابيات ممتازة بسداد الرأي وجدة الخيالات كقوله :

فلو كان معنى الحياة لعمري بخط تآلف في صورة ،
وكان جمال الملاح الملاح بكحل العيون وبالزينة ،
وكان الشباب وعزم الشباب بحسن الوجوه وبالبزة ،
وكنت وكنتم باجسادنا ، لقلت « هو الشعر باللفظة » ؛

ولكنه الشعر روحٌ بنـــا ، ولكنه الشعر في الخلجة[1] .

« نسمة الحياة » كثيرة الحشو والابهام ، فهي اشبه بطوفان من الالفاظ والخيالات فائض على صحراء المعاني . دونكم نموذجاً من تلك الثرثرة الموزونة ، التي يناقض بها قازان نظريته الصائبة التي بسطها لنا في « امارة الشعر » :

لمـــاذا بُهتمُ مستكبرين علـيَّ العذوبة في نغمتي ،
ولي مثل ما للانام عيونٌ وانفٌ وآذانٌ[2] في طينتي ؟
فاما رأيت الذي لا يُـرى ، رأيت بعين بلا معـــدة ؛
واما نشقت عبـــير السماء ، نشقت بانف بـلا معـــدة ،
واما سمعت نشيد الحيـــاة ، سمعت باذن بـلا معـــدة !

« العليقة المشتعلة » تريحنا هنيهةً من عناء الاصغاء ، في القصيدة السابقة ، الى كلام كثرت الفاظه بقدر قلة معانيه . هنا يترنم قازان بجمال بلاد الارز ، وطنه المحبوب ، الذي يحن اليه ارق الحنين ، فيرى اجل محاسن مهجره البرازيلي كامد الالوان ، عاجزاً عن الاخذ بمجامع قلبه :

فحتى السواقي ، اذا نغّمت ، كأن السواقي بـلا نغمة ،
وحـــتى الكنائس اجراسها تـرن ولكن بلا رنة . . .
وهذي النجوم ، وقد شعشعت ، تلوح لعيـــني بلا لمعـــة ،
وهذي الازاهر تكسو الرياض ؛ ازاهر ، لكـن بـلا نفحة !

« العهد الجديد » نشيد تعظيم جبران خليل جبران ؛ وليس من يجهل الحاد هذا الرجل وسفسطاته الفلسفية والخُلقية . قازان مُعجب كل الاعجاب باضاليل جبران ، فيهب للدفاع عنه ، حتى عن كفره ، في وجه خصومه ، فيرشقهم بسهام حفيظته الخرقاء :

---

(١) الخلجة مرادفة للتحريك . قد عنى قازان ان جوهر الشعر تحريك العوامل الشريفة للنفس — (٢) عدم تنوين هذه الكلمة مستهجن .

فقلتم « ولكنه قد كبا » ، فقلت « اسبقوه على الكبوة » ؟
فقلتم « ولكنه كافر » ، فقلت « اطردوه من الجنة »
وزدت : « لقد قال جبراننا ، وما قيل قبلُ بلا زبدة . »

اذاً يعد الناظم جبران نابغة المفكرين ، مما يدل دلالة جلية على ان معلومات قازان محدودة جداً في شأن مشاهير الرجال من فلاسفة ومؤلفين ؛ ففي تعظيمه لجبران غلو فاحش وجهل مركب .

في القصيدة التالية ، التي عنوانها « العهد الجديد » ايضاً ، يميل الشاعر عن التفلسف الى وصف العاب طفولته وملاهيها في مسقط رأسه ، فتتنفس الصعداء بعد ان كادت روحنا تبلغ التراقي . هنا يحدثنا بابيات رشيقة عن هربه من الكلبة ، لعبه مع الهرة ، تربعه في الخيمة ، ركوضه مع الغيمة ، مسابقته للرياح على صهوة مُهرته ، بكوره الى الكرمة وتنعمه باكل عنبها . بعد ذلك التصوير الدقيق لصباه المرح الهنيء ، يعترف لنا بكل الصراحة والتواضع ـ نعم الاعتراف الصادق ! ـ بانه قد اضاع الله في مهجره البرازيلي ، فاصبح في حالة الفقر الروحي المدقع ، وهو اذل وآلم ضروب الاملاق :

وكنت مع الله في قريتي ، فصرت بلا الله في غربتي !
وكنت غنياً مع القلة ، فصرت فقيراً مع الكثرة !
فثُرت وثارت انانيتي ، فضعت وضاعت الوهيتي ! . . .
وان كنت عبداً لغير الهي ، فانيَ عبد لحريتي !

في « الشعاع » تعتري قازان نوبة جديدة من نوبات تفلسفه المبهم الفارغ ، فيعود الى شن غارة شعواء على خصومه . من المضحكات المبكيات ان « شعاعه » مظلم ، فلا يهدينا الى فهم كنه الخلاف القائم بينه وبينهم . اما براهينه لافحامهم والقامهم الحجر ، فهي من النوع الآتي ، وفيه من البلادة وفساد الذوق ما فيه :

لئن تضعوا الشمس في راحتي وترموا النجوم على جبهتي ،
وان تصلبوني ، ولي كلمة ، فلست لارجع عن كلمتي !

في نهاية تلك القصيدة يخيّل لنا ان قازان لا يجد مهرباً من اعدائه الالداء الا بالتحليق فوق سيارتنا الحقيرة ، متجهاً الى عرش الخالق العظيم ، ليتشكى له من جور بعض خلائقه :

نفضتُ جناحيَّ نوراً وناراً وحدقت بالشمس كالنبلة ،
وقلت لنفسي « اليها ! » فطارت وطرت بشعري الى السدرة[1] ،
وحلقت حتى دنوت اليه ، فقلت : « السلام على العزة . »

تلك خاتمة القصيدة ، وهي من السخافة وعدم اللباقة بمكان !

كل المنظومات السابق نقدها على وزن واحد ، المتقارب ، وبقافية واحدة . كان الاحرى بالناظم ان ينوع الاوزان والقوافي ، لئلا يحمّل آذان القراء ثقلاً باهظاً من الملل . اما القصيدة الاخيرة من ديوانه « انشودة الغريب » ، فهي على وزن جديد ، شديد الرشاقة ، بل هي اجمل قصائده في « معلقة الارز » ، تشفع بعض الشفاعة في ما انطوى عليه غيرها من سخافة المعاني وركاكة المباني . يعود فيها قازان الى الترنم بمحاسن وطنه الصغير المجيد ، مطلقاً العنان لعواطفه الحارة النبيلة ؛ ها كم ادوارها الاولى :

الارز والوادي ، يا رمز امجادي ،
يا كنز احفادي ، يا ثرى لبنانْ !
يا مسبح الاحلامْ ، يا مهبط الالهامْ ،
يا منهل الاقلامْ يا سما لبنانْ !
يا ناثر الاتراحْ ، يا شاعر الافراحْ ،
يا ناشر الارواحْ ، يا هوا لبنانْ !

---

(١) السدرة بكسر السين شجرة النبق . قد سمى العرب سدرة المنتهى شجرة نبق زعموا انها على يمين عرش الله تعالى .

يا ماخر الابحارْ ، يا فاتح الامصارْ ،
يا باعث الانوارْ ، يا ذكا لبنانْ ،

يتضح من التحليلات السابقة ان المادة الفكرية ، وهي جوهر « معلقة الارز » في نية صاحبها ، ضئيلة جداً ومشينة بعدم الوضوح وقلة التلاحم في اكثر عناصرها . اما لغة الديوان فمشوبة بعدة اغلاط ، ولا سيما باستخدام كلمات عامية عديدة بدون ادنى مسوغ ، كزيادة الفكاهة في ديوان اسعد رستم . دونكم بعض الامثلة عليها : التكة بمعنى الثانية ، « يا ما » عوضاً من « كم » ، القتلة للضرب او التوبيخ القاسي . بعد ذلك التفريط في العروبة لا نتمالك عن الابتسام عند ملاحظة الادعاء الفاحش الذي قد طبع به قازان بالحبر الاحمر هذا التنبيه الغريب للقارىء ، في آخر معلقته : « كل اغلاط الكتاب المطبعية هي اغلاطي الصحيحة . »

اسعد رستم

لا يخفى عن الادباء ان اسعد رستم اللبناني اشهر شعرائنا الفكاهيين المصريين ؛ طُبع ديوانه المصور في بيروت سنة ١٩٠٨ ، جامعاً بين دفتيه مئات من القصائد الهزلية في الغالب ، وقد نُظمت في الولايات المتحدة حيث هاجر الشاعر في شرخ شبابه ، فتناقلتها صُحف العالم العربي . في الحقيقة ليس رستم ابعد شعرائنا الفكاهيين صيتاً فقط ، بل هو ، بين من عالجوا القريض من اهل جيلنا ، الشخص الوحيد الذي وقف اكثر شعره على الهزل . هو اذاً من المجددين الفاتحين ميادين رحبة لادبنا الناهض . لذلك رأينا ان نحلل فنه الطريف تحليلاً دقيقاً ، نميز به خمره من خله .

رستم مطبوع على المزح ، وله مقدرة غريبة على اضحاك القارىء ، احياناً كثيرة الى حد القهقهة . يتضح ذلك من مقدمة ديوانه ، حيث يقول : « انا اسعد رستم ، متزوج ، لاراحة افكار الاوانس . ابصرت نور هذا « الوجود في بعلبك ، وما بلغت الثانية عشرة من العمر حتى ارسلني والدي « الى مدرسة الشُوير[1] العالية ، فقضيت فيها عاماً كاملاً ، كان كله شمط آذان[2] « وضرب طبشة[3] ، وتكنيساً وركوعاً ووقوفاً على رجل واحدة ؛ إنّا لله وإنّا اليه راجعون . »

نلاحظ في هذه الفقرة شديد ميل رستم الى استعمال بعض الالفاظ العامية لزيادة تفكيه المطالع . الهزل انواع عديدة ، يفضل منها رستم الانتقاد اللاذع لاكثر العيوب شيوعاً بين مواطنيه ، مما يصبغ ديوانه صبغة ادبية اصلاحية ، لا بأس بها ، فان وصف نقائص القريب وصفاً فكاهياً مضحكاً اشد ردعاً له عنها من التوبيخ العابس الخشن القاسي . لا نكاد نجد عيباً فاشياً بين ابناء لبنان لم يعالجه رستم بمزحه الظريف : الرياء في الدين ، الخداع في المعاملات ، الاغتياب ، اضاعة الوقت في اللهو والزهو ، الادعاء الباطل ، الاكتفاء بقشور التمدن ، عدم الاتحاد البالغ الى حد التخاصم والتشاتم ، الحسد المفضي الى ارتكاب المنكرات ، عدم دفع الديون والافلاس الاحتيالي ، احجام الشبان عن الزواج حرصاً على الحرية الفاسدة ، الى غير ذلك مما يطول تعداده .

يرمي رستم بسهام هزله الصائبة تلك المساوىء الكبرى ، وهو لا يُبقي على غيرها من العيوب الخفيفة . من امثال ذلك انه يتهكم على شدة التولع بسباقات الخيل مع المراهنة فيها ، فيختم قصيدته بهذين البيتين الشبيهين بالعقرب التي في طرف ذنبها السم الزعاف :

---

(١) اسم ضيعة في لبنان — (٢) تعبير في لهجة لبنان معناه جذب الآذان — (٣) تعني في لهجة لبنان خشبة لضرب الاولاد ولا سيما التلاميذ .

سعيتم وراء السباق طويلاً ، وكلكمُ للخيـــول سميرْ ؛
فان تصحبوهـا ، فلا عجبٌ ، فتلك خيـول وانتم حميرْ .

الحق يقال : قلما يجول قلم رستم اللاذع في مزالق الشتم الجارح ، بل يجتزىء في الغالب باللوم الفكاهي ، المضحك والمقبول حتى في نظر صاحب العيب المراد اصلاحه .

ينتقد فرط التحيات والاسئلة عن صحة الاقارب واحوالهم ، في الزيارات ونحوها . يهزأ في « بوس اللحى » بعادة تلاثم الرجال على الفم ، فيقـــول بفكاهته المألوفة ، مع بعض السقط الناجم عـن استعمال شيء من الفـاظ اللغة العامية :

ما اثقل اثنين في تقبيل بعضهما ؛ كأنما جبل يهـوي على جبل ؛
حتى الزنوج ، اذا ما حدقوا بهما ، تحمر اوجههم من شدة الخجل .
بوس اللحى عادة ليست بلائقـة ؛ ناهيك ما نشرت فينـا من العلل ،
لا سيما ان يكن من بُست مفترساً حصاً من الثوم او رأساً من البصل .

يرمي بقذائف سخريته السيدات المغرمات بكلابهن ، فيصور لنـا فقيراً مستعطياً وقع نظره على مشهد من مشاهد ذلك الهوى الشائن

فعاد على اعقابه ، وهـو لاعنٌ زماناً غدت فيه الـكلاب رجالا .

يتضح من التفاصيل السابقة ان معظم الهزل في ديوان رستم قد رمى به الناظم الى اصلاح عيوب اللبنانيين مواطنيه ، على طريقة غير اليمة او اقل ايلاماً من سواها . بيد انه يتسلح احياناً بسهام فكاهته للنزول في غير ذلك الميدان ، فيهجو بعض الاشخاص هجواً قاسي اللهجة ، او يصف لنا من الحوادث الغريبة ما يضحك الثكلى ، ولا غايـة له سوى المزح وجعل القارىء يلوذ بكشحيه من فرط القهقهة . من ذلك وصفه لبدوي يجول في نيويرك بزيه الاصلي ، فيضحّي بفلسه الاخير لدخول ملعب توقع ان يشاهد فيه اكبر العجائب ، واذا هو حافل بجمال قد شبع من رؤيتها .

بين آونة واخرى يُعرض رستم عن الهزل معالجاً بعض المواضيع الرزينة ، وقد اجاد في بعضها وافاد ، مثلاً في « جمعية الصليب الاحمر » ، « زهرة من الجنة » حيث يصف التعزية الكبرى التي نالتها اميرة محتضرة باصغائها الى آية انجيلية ، « الغني والفقير » التي يقارن فيها تعاسة غني منهمك في اقبح الملذات بسعادة فقير حار التقوى ، « هناك » الحاوية وصف دفن احد الاغنياء بمجالي الابهة ، واحد الفقراء بمنتهى البساطة والحقارة ، فيستنتج الشاعر من ذينك المشهدين ان سعادة المعدم ليست هنا في وادي الدموع ، بل هناك في السماء .

اما المدح فلا نكاد نجد له اثراً في قصائد رستم ؛ هذه المزية لا تزال نادرة في شعرائنا حتى المفلقين .

تلك اهم المواضيع التي تناولها نابغة الهزل ؛ اما القالب الذي يفرغها فيه فهو على الغالب الوصف ، واحياناً الرواية ، وقلما يكون مثلاً على السنة الحيوانات .

قلنا ان رستم مفطور على المزاح ، وكثيراً ما ينفجر بدون ادنى تكلف من اعماق روحه الفكيهة انفجار الينابيع الباردة من جوف الارض . له في هذا المضمار نكات تُضحك الثكلى ؛ منها قوله في ختام قصيدة سرد فيها على جناح السرعة اكبر عيوب الناس :

انني قد عرفت ذلك من نفسي ، لان الانام طبعاً سواء .

كذلك اقراره غير المنتظر ، في كلامه عن الفتيان بل الكهول الهاربين من اعباء الزواج الثقيلة :

الا انما العُزاب ليس لهم هنا بعيشتهم هذي ، واولهم انا .

نجد طابع المزح هذا ، الذي هو الميّزة الناتئة لفن رستم ، حتى في المواضيع الجدية ، القليلة بالنسبة الى غيرها ، مثلاً في « الابيض للاسود » حيث يوصينا الشاعر باذخار الغرش الابيض لليوم الاسود ؛ يقول فيها ان

الاصفر الرنان خير ستر للعيوب واعظم مجلبة لمدح الناس :

لو كان الاحدب ذا مال ، لدعاه الناس ظريف القدّ .

يصعب جداً على صاحب الملايين تجنب الاسراف ؛ ذلك ما يشفع بعض الشفاعة بما نراه احياناً كثيرة من الافراط وفساد الذوق في هزل رستم . يتبّل بالمزح وصف بعض مظاهر الخلاعة ، فكأنه يبتسم لها استحساناً او يعدها من الترهات المضحكة ؛ نرى ذلك الضلال الفاحش في « غنطوس وتشارلي » وفي « دعوى وتبرئة في عالم التصور » . يتقح على المزح حتى في كلامه عن العزة الالهية واهول مواقف البشر امامها . يقول مثلاً في شأن دينونة الله للشعراء واسقاطه اياهم في جهنم :

ولو غلط الاله وقال « روحوا نزولاً نحو مملكة الدفاء » ،

لكنا نطفىء النيران فيها بابحر شعرنا من دون ماء .

قد يبالغ في الهزل مبالغة يخرج بها من حدود المعقول ، كما فعل في كلامه عن امرأة فقيرة سرق جندي لبنها ، فامر القاضي بشق بطن السارق ليتحقق ذنبه ! كذلك يأتينا بهذه السخافة ، وهو يحدثنا عن دنو اجله :

يقول الاطباء سوف اموت ؛ وذلك ، يا قوم ، في الارجح .

فهل تحضرون بساعة دفني جميعاً لاقبركم مطرحي ؟

نرى له شيئاً غير يسير من المزح التافه في بعض الابيات او في قصائد برمتها ؛ مثال ذلك قصيدة القاها في مأدبة اقيمت له في الاسكندرية ، يفصّل فيها عدة اسباب لم تقد خُطاه الى مصر ، ثم يبوح لنا في النهاية بالسبب الحقيقي الوحيد لذهابه اليها ، وفيه من البلادة وفساد الذوق ما فيه ؛ قال :

فاتني بسركم جئتها لانها اليَّ لم تذهبِ .

فضلاً عن سوء استعمال الفكاهة في كثير من القصائد ، نجد له عيباً آخر لا نرى له من مبرر ، وهو الافراط في استعمال الكلمات والتعابير العامية ، وهي كرقع عديدة ، صغيرة ، شتى الالوان في ثوب من نسيج واحد

فاخر ، هو الشعر . يرتكب رستم هذا الخطأ الشائن مراراً ، وان لم يقصد به الهزل ، مما يُشتم منه قصر باعه في معرفة اللغة العربية وعدم احترامه للقراء الادباء . يقول مثلاً « ما اثقل اثنين في تقبيل بعضهما » و « ليس يرى في جيبه بارة الفرد[1] » ، وفي الجملتين من التعبير العامي ما لا يُجيزه شيء من الفكاهة .

اما الخطأ في اللغة الفصحى ذاتها ، فهو ايضاً كثير ، بل غليظ احياناً ؛ ها كم بعض النموذجات : « يا لطيفاً » في مناداة الله ، « طابق » بمعنى طبقة في بيت ، « مطرحي » بمعنى « عوضاً عني » ، « عموم » بدلاً من عامة الناس .

بجانب هذه الشوائب غير الطفيفة في مادة التعبير اي لغته ، نجد نقصاً كبيراً في صورته ، وهو الابتذال . مخيلة رستم قادرة على استنباط المواضيع الفكاهية ، على اننا لا نرى فيها مثل هذه المقدرة لابتكار التعبيرات ولا سيما الخيالات . انتحاله في هذا المضمار اكثر من إبداعه ، مما يجعل شعره الهزلي ، مع ما فيه من الحسنات ، دون شعرنا الغنائي العصري الممتاز بمراحل .

خلاصة القول ان لاسعد رستم على الاخص فضل الفاتح ميداناً واسعاً ، متنوع المناحي ، للقريض الفكاهي الحديث ، ويسوغ عده نابغة بالتفنن في المواضيع الهزلية . غير ان تواتر عدم اعتداله في المزح وقلة ابتكاره في التعبير ، فضلاً عن ركاكة انشائه وعدم عروبته الكافية ، تحول كل الحؤول دون بلوغه ذروة ذلك الفن ، الذي نرى له مكاناً رحباً ومرتبة عالية في آداب ارقى الشعوب .

---

(١) يعني بارة واحدة . البارة كانت الجزء الاربعين من الغرش التركي القديم .

ميخائيل نعيمه

ناقد الادب العربي العصري[1]

ميخائيل نعيمه سليل ضيعة بسكنتا في لبنان ، وقد اتاحت له العناية الالهيـة ، اذ لم يبلغ الخمسين من عمره ، ان يكون في طليعة مجددي الادب العربي في عصرنا . تسنى له ادراك ذلك المأرب العسير بثقافته العالية ، فقد تتلمذ في مدرسة بولتـافة (Pultava) في روسية ، ودرس ادب تلك البلاد المعدود من اغنى وارقى الآداب الغربية . ثم هـاجر الى الولايات المتحدة ، فنـال شهادة الحقوق في كلية واشنطن سنة ١٩١٦ ، فضلاً عـن تضلعه من الانكليزية وآدابهـا . تلك السياحات والدروس المتنوعة قـد وسّعت افق افـكاره ، فصار من اشهر اعضاء جمعية « الرابطة القلمية » في نيويرك ؛ ولا يخفى انهـا من ابعد محافلنا الادبية صيتاً ومن اشدها تأثـيراً في تطور ادبنـا الحديث . بهذه المقالة نقصد تحليل آرائه في الادب عموماً وفي ادبنـا الجديد خصوصاً ، فانه من ائمة النقاد العصريين بسداد احكامه وجسارته النبيلة في ابدائها بصراحة كامـلة ، لا يخشى لوم لائم ولا انتقام غضوب ؛ وقـد نشر اكثر تلك الآراء في كتاب « الغربال » الذائع الشهرة .

يقول عـن الادب عمومـاً ان له « مقاييس ثابتة ، تتجاوز الزمان « والمكان ، ولا تعبث بهـا امواج الحياة المتقلبة واذواق العالم المتضاربة » ، مناقضاً بذلك التصريح الجريء رأي عامة الادباء العرب ، الزاعمين ان لادب لغتهم مقاييس مختصة به ، فلا تسيطر على الآداب الغربية . تلك المقاييس

---

(١) مع اننا قد جعلنا في صدر هذا الكتاب مقالاتنا النقدية على طائفة من الشعراء ، ولا سيما المشهورين ، ادرجنا هنا آراءنا في ميخائيل نعيمه ناقد ادبنا العصري ، حتى نوضح في المقالة الآتية المختصة بشعره ، انه قد تجنب اكثر العيوب التي كشفها في ذلك الادب بجسارة تستحق احر الثناء .

الجوهرية المطلقة هي اربعة في نظر نعيمه . الاول « حاجتنا الى الافصاح عن « كل ما ينتابنا من العوامل النفسية ، من رجاء ويأس ، وفوز وحبوط ، وايمان وشك ، وحب وكره الخ . » الثاني « حاجتنا الى نور نهتدي به في « الحياة ، وليس من نور نهتدي به غير نور الحقيقة ، حقيقة ما في انفسنا وحقيقة ما في العالم . » الثالث « حاجتنا الى الجميل في كل شيء . » الرابع « حاجتنا الى الموسيقى . » فتكون قيمة الادب ، اياً كان ، « بمقدار ما يسد « من بعض هذه الحاجات او كلها ، ويكون اثمنه اجلاه بياناً ، واغناه « حقيقةً ، واطلاه رونقاً واشجاه وقعاً . »

يطبّق نعيمه تلك المبادىء الصحيحة ، السائدة لآداب امدن الشعوب ، على ادبنا الحديث ، فيرى مسيس « حاجتنا الى شعراء وكتّاب يقيسون ما « ينظمونه ويكتبونه بهذه المقاييس . . . والى ناقدين ممحصين ، يميزون « بين غث الادب وسمينه ، فلا يحسبون الاصداف درراً ولا الحباحب كواكب . » قال : « من سوء طالعنا اننا وكلنا شؤوننا الادبية الى جرائدنا « ومجلاتنا في الغالب ، وجرائدنا ومجلاتنا تقيس الادب بعدد مشتركيها « ومناصريها واعمدتها . . . فكثير من القصائد التي تزفها الينا درراً فريدة ، « لو قسناه بالمقاييس الادبية الثابتة ، لوجدناه عارياً من كل شيء سوى « الرنة ؛ وان كان فيه جمال ، فلا عاطفة ؛ وان كان فيه عاطفة ، فلا جمال ولا حقيقة ؛ وان كان فيه حقيقة ، فمبتذلة او مشوهة . »

وايم الحق لقد اصاب كل الاصابة واضعاً يده ، يد نطاسي الادب ، على جرح من اكبر جروح ادبنا العصري . في الواقع نرى هذا الادب الشقي يكاد ينحصر في الصحف ، لاقبال الجمهور عليها ، بعطشه الغريزي الى الاخبار اليومية واسعار الاسواق والنقود ، وبرامج المسارح ومعاهد السينما ومراكز الاذاعة . اكثر اهالي الشرق العربي يُعرضون كل الاعراض عن المؤلفات الادبية المحضة ، لعدم تضلعهم من العربية وقلة اكتراثهم لادب

ارستقراطي يفصل اربابه القليلين عن عامة الناس ، فهيهات ان يفتح لهم باب الارتزاق والاغتناء بالقلم ، كما يفعل لزملائهم الغربيين . حصر ادبنا في الصحافة هو الطامة الكبرى ، فان للصحافي هموماً ومصالح عديدة ، سياسية وانتفاعية ، ليس لها ادنى صلة بالادب ؛ وقد تحتم على معظم ادبائنا ، حتى اشهرهم ، من امثال شوقي ومطران ، التزلف الى اسياد الصحافة بقصد التقرب الى اكبر عدد من القراء ؛ هكذا تمهد امامهم سبيل الشهرة السريعة . من جهة اخرى قُسر اصحاب الجرائد والمجلات على نشر مقالات الادباء وقصائدهم ، وان تافهة ، في صحفهم مصحوبةً بعبارات الترحيب والتعظيم ، لزيادة عدد قرائهم . اما اكثر هؤلاء فيجهلون اصول الادب ، ولا يعرفون لغة الضاد سوى معرفة سطحية ، فيقيسون جمال المؤلفات الادبية بدرجة شهرة صاحبها ، مع كونهم ، على قلة ثقافتهم ، اساس تلك الشهرة الزائفة .

كساد الادب المحض قد آل حتماً الى اقامة الصحافيين وقرائهم قضاةً في شؤوننا الادبية ؛ ومن اوخم عواقب ذلك الاستقضاء الغريب ، على رأي نعيمه ـ ونحن نوافقه عليه اتم الموافقة ـ قلة الاخلاص في ادبنا العصري ، لان الاديب يشتري شهرته بارخص الاثمان ، وهو في مأمن من النقد السديد الجسور . يكفيه تنميق عباراته ، ولو كانت فارغة من الجوهر الادبي النفيس ، وظهور اسمه الكريم عشرات المرار في الصحف الكبرى ، لاقتناء لقب الالمعي النابغة . ها كم اقوال نعيمه الرشيدة في هذه الآفة الوبائية : « لو « كان خطيبنا يعتلي المنبر رغبةً في ان لا يتحدث القوم عنه ، بل عما قاله ، لا « رغبةً في ان تسمع بذلك هند ، فيزيد اعجابها به ، بل لانه يحمل رسالة « يحب تأديتها الى الشعب ؛ لو كان كاتبنا يأخذ القلم ، لا ليمضي به اسمه على « صفحات جريدة او مجلة ، بل ليلبي دعوة صوت داخلي ، يولد بين انامله « والقلم تجاذباً طبيعياً كما بين المغناطيس والحديد ؛ لو كان شاعرنا ينظم

« القوافي ليجعلها وعاءً لما في قلبه من العواطف وفي رأيه من الافكار ،
« وليس ليكتسب لقب الشاعر الاديب ؛ وبالاجمال لو كان عندنا اخلاص في
« ما نقول وما نفعل وما نكتب ، لو كنا نفهم بعضنا البعض ، لكانت حياتنا
على غير ما هي اليوم . »

ما الادب سوى خمر النفوس اللذيذ المسكر ، مسكوباً في كأس انيقة من الالفاظ الموافقة لمحتواها الثمين . فاذا فسد الخمر وشرع يتحول الى خل كريه لاذع ، فلا مندوحة للاديب ان يلهو بزخرفة كأسه عن اصلاح مُدامه . تلك حالة اكثر ادبائنا ؛ يُعنون اشد العناية بجمال التعبير ، ولا سيما عروبته ، بقدر اهمالهم مقاييس الادب الاصلية الثابتة ، التي لا قوام له بدونها . قد لقبهم نعيمه بضفادع الادب ، قائلاً انهم « يتوسدون القواميس « ويتلون عليها صلواتهم ، ويحرقون امامها بخور قلوبهم وزبوت ادمغتهم ؛ « وكل غايتهم في الحياة ان يقعوا في قصيدة او مقالة على كلمة او تركيب لم « تألفها اذواقهم ولا رضيت عنها قواميسهم » ، فيعلو نقيقهم في الهجو .

يعيب ايضاً هيامهم المضحك بالالفاظ الحوشية ، يسحرون بها القراء السُذج ، موهمين اياهم ان وراءها معاني سامية عميقة ، تفوق اذهانهم العاجزة ؛ وما هي في الحقيقة سوى ستر شفاف ، يحاولون ان يحجبوا به عن الانظار خسة بضاعتهم الادبية . يقول عنهم ـ لا فُض فوه ! ـ : « ينظرون « دائماً ابداً لا الى ما قيل ، بل الى كيف قيل . . . واذا طالعوه وفهموه « من اوله الى آخره ، دون ان يلجأوا الى القاموس ، فهو ركيك . « والركاكة عندهم هي ان يستعمل كاتب فقط بدلاً من فحسب ، والوسط « بدل البيئة ، والخادم بدل الماهن ، والاسد بدل الهزبر ، والمائدة بدل « الخوان ، وما اشبه . . . الفكر كائن قبل اللغة ، والعاطفة قبل الفكر ؛ فهما الجوهر وهي القشور . »

قد بات معظم ادبنا العصري ادباً لفظياً محضاً ، فلا بدع بكون

الشُويعرين قد تكاثروا في انحاء شرقنا العربي تكاثر الجراد الزاحف بهيئة جيش جرار على غلات الارض لاتلافها . الشعر في ظاهره هو الحد الاقصى لجمال الكلام ، وقد زادت فتنته موسيقى الاوزان والقوافي الرخيمة ، التي لا يتصرف فيها احد على ما يرام من السهولة والرشاقة الا بعد طول الممارسة . لذلك اضحى النظم عندنا وسيلة اكيدة لرفع مقام صاحبه في عين العامة ، وان خلا من محاسن جوهره النفيس . قد لاحظ نعيمه ذلك الوباء المتفاقم ، فقال : « كل من ظن انه شاعر لا يكاد ينظم اول قصيدة حتى ترى « الجرائد والمجلات قد فتحت صدرها لها ، واعدت لمؤلفها القاباً تتدرج بين النابغة والشاعر العصري المجيد . » يرينا بفكاهة مطربة فيضان ذلك الطوفان من النظم على كل انواع المواضيع ، ما عدا التي هي جديرة ، لسمو معانيها ، بوشي الاوزان والقوافي : « حتى قواعد نحونا ابينا ان نلقن احداثنا اياها « الا منظومة ؛ هاك الفية ابن مالك وهاك نار القرى . بل قد نظمنا الحساب « والجبر والجغرافية والطب والفلك ؛ ولمَ لا ؟ واصبحنا نتراسل نظماً « ونتصافح نظماً ، ونشرب الخمر نظماً ونأكل الكبة نظماً ، ونعمد اولادنا « نظماً ونزوجهم نظماً ، ونستقبل اصدقاءنا نظماً ونودعهم نظماً ، ونهنئهم « بعيد او بمركز او بمولود نظماً ، الى انه لم يبق في حياتنا ما ليس منظوماً سوى عواطفنا وافكارنا ! »

مع ذلك يعترف بان ادبنا ، اللفظي في مجموعه ، قد خلع بعضه اسمال الالفاظ الفارغة ـ وما هي سوى اكفان ـ بعدما هبت عليه من الغرب رياح منعشة ، ايقظته من سباته الطويل ، ففتح عينيه على عديد مجالي الحياة في جيشانها العصري ، وجعل يقتبس منها جوهراً حياً متنوعاً لذيذاً ، تغتذي به النفوس وتستسيغه . قال في هذا الشأن : « ما تعود البعض ان يدعوه نهضة « ادبية عندنا ليس سوى نفحة هبت على بعض شعرائنا وكتّابنا من حدائق « الآداب الغربية ، فدبت في مخيلاتهم وقرائحهم ، كما تدب العافية في اعضاء

« المريض بعد ابلاله من سقم طويل . والمرض الذي الم بلغتنا اجيالاً متوالية
« كان شللاً اوقف فيها حركة الحياة ، وجعلها بعد عزها السابق جيفة
« تتغذى بها اقلام الزعانف المستعبَدين وقرائح النظامين والمقلدين . اما اليوم
« فقد رجعنا الى الغرب ، الذي كان بالامس تلميذنا ، لنقتبس عنه امثولة
« جعلناها حجر زاوية نهضتنا الادبية . وتلك الامثولة ان الحياة والادب
« توأمان لا ينفصلان ، وان الادب يتوكأ على الحياة ، والحياة على الادب ،
« وانه ـ اعني الادب ـ واسع كالحياة ، عميق كاسرارها ، ينعكس فيها
« وتنعكس فيه . ادركنا بفضل الغرب ان نظم الشعر ممكن في غير الغزل
« والمدح والهجاء والوصف والرثاء والفخر والحماسة ؛ لذلك اطربتنا نغمة
« بعض شعرائنا الحديثين الذين تجاسروا ان يتعدوا هذه الحدود المقدسة .
« وانتقلت الينا ، بفضل الغرب كذلك ، الرواية . . . فوجدنا فيها مجالاً
« واسعاً لوصف الحياة والتأثير في العقول والقلوب بواسطة القلم ، وادركنا
« ان النثر لا ينحصر في صف الكلام المسجع والاكثار من الالفاظ الشاردة
« المدفونة في بطون المعاجم ، وتحبير المقالات المملة في موضوعات مبتذلة ،
« فقام بيننا بعض من جربوا ان يمثلوا حياتنا اليومية في روايات وطنية . »

تلك خلاصة آراء نعيمه الصائبة في تعيين مقاييس الادب العامة ، الثابتة في كل عصر ومصر ، وفي نقد ادبنا العصري برمته وبيان مساوئه العديدة ومحاسنه اليسيرة بواسطة تلك المقاييس . وايم الحق لا نرى بين ائمة نُقادنا العصريين من اعلن اصول الادب الصحيح بذلك الوضوح التام ، ولا من طبّقها على ادبنا الحديث المشوه ، بتلك الشجاعة المستخفة بحنق المحافظين الجامدين وبهيبة مئات من نوابغ الادب اللفظي المتربعين على عرش سيادتهم المشؤومة . فلا بد لنا من تعظيم الخدمة الكبرى التي قام بها الاديب اللبناني الشهير نحو ادبنا الناهض من عثرته ، ولا سيما ان بدائعه الحديثة في النثر والشعر تدل على ان صيحة نعيمه العالية الجريئة لم تكن صوت صارخ في البرية .

ميخائيل نعيمه الشاعر

قد بسطنا في المقالة السابقة آراء نعيمه السديدة في اصول الادب ، واطرأنا جسارته في التصريح بان معظم ادبنا العصري حائد عنها . تلك لعمري خدمة جليلة قام بها نحو الشرق العربي ، وقد وقف مئات من ادبائه حائرين بين الآراء المتناقضة ، لا يميزون الطريق المفضي بادبنا الى اوج الرقي المنشود . لكن نعيمه لم يكتف بابداء تلك النظرية الصائبة ، بل قد اخرجها الى حيز العمل ، ولا سيما في شعره ، فحاز به شهرة واسعة ، غير زائفة ، فانها قائمة على اساس شاعرية ممتازة ، تسوّغ عده ، مع ما فيها من النقائص ، بين نوابغ قريضنا العصري .

كل من طالع عدداً يُذكر من قصائده رأى اول اهلة انه شاعر الالهام ، لا نظّام الحفلات وسائر الفرص السانحة ، مثل اكثر شعرائنا . فلا ينتظر ولادة او زواجاً او وفاة او نحوها بين وجهاء القوم ليصوغ شعره ، بل يتوقع فكراً متسلطاً على نفسه فيبوح لنا به ، او عاطفة حارة تهز نياط قلبه ، فيحرك بها اوتار افئدتنا . ذلك هو الشعر الحقيقي في نظر امدن الشعوب ، وما سواه نظم تافه مبتذل ، ليس فيه من الشعر سوى الظواهر الباطلة الخادعة .

نعيمه مفكر في قصائده ، كما في مباحثه النقدية ، على ان الفكر السائد في قريضه هو الارتياب العام المطلق في معنى حياتنا الارضية وغايتها . نراه في هذه الدنيا اشبه بسائح في مجهل بعيد الآفاق ، كامد النور ، خال من بهجة الاشكال والالوان ، وقد تلبدت في سمائه السحب الدكناء ، فلا طريق امامه ليسلكه ، ولا دليل بجانبه ليسدد خطاه . تلوح له بعض الواحات عن بُعد ، فيعدها سراباً خلاباً ، ويرى وميض البروق فوق رأسه ، فيعجز عن الاهتداء بسطوعه السريع الزوال . يُعمل فكره الوقاد لتفهم كنه الحياة ،

فيتيه بين الغازها ، ويفضي به عجزه عن حلها الى انطفاء جذوة عقله وارتخاء وتر عزيمته ، فيصبح شبه اعمى ، لا يستطيع تمييز ابسط الاشياء واشدها اختلافاً في عين اجهل البشر . حسبنا برهاناً على ذلك ما قاله في « الطريق » :

ليت شعري من يريني الفرق ما بين الامورْ ،
بين ما ندعوه حقاً والذي ندعوه زورْ ،
بين طهر وفساد ، بين إثم وصلاحْ ،
بين سعد وشقاء ، بين شدو ونواحْ ؟

بل نرى وصفاً ادق واوضح لنفسه في « التائه » حيث صور لنا ذاته هائماً على وجهه في مهمه الحياة ، يقدم رجلاً ويؤخر اخرى :

تسوقني الثواني في موكب الزمان ،
ولستُ ادري شاني في معرض الورى ؟
فلا القضا يُنبيني ، ولا الرجا يهديني ،
ولا السما تعطيني نوراً لكي ارى .

يعترف لنا متذللاً بانه يغبط الحشرة الحقيرة التي تزحف عند قدميه ، لانها لا تعاني آلام شكه المطلق في غاية الحياة ، فيُسر « الى دودة » بعذابه الفادح :

ولولا ضباب الشك ، يا دودة الثرى ، لكنت الاقي في دبيبك ايماني ،
فاترك افكاري تُذيع غرورها واترك احزاني تكفن احزاني ،
وازحف في عيشي نظيرك جاهلاً دواعيَ وجدي او بواعث وجداني!

كثيراً ما نرى الانسان السليم العقل ، المعتقد ان غاية حياتنا خدمة الخالق العظيم الذي منحنا اياها ، يحيد بسبب ضعف ارادته وجماح شهواته عن تلك الغاية السامية ، الجديرة باكبر التضحيات ، فيرتكب المعاصي مستسلماً الى نخس الضمير ، وهو اقسى الجلادين ، فيذوق منه امر التباريح . فما عسى ان تكون درجة تعاسة من يجهل تلك الغاية او يتجاهلها ؟

لا بدع من ثم بان نسمع نعيمه يبوح لنا بفساد قلبه وبفرط احزانه في « ترنيمة الرياح » :

اتردى رداء المنونْ واداوي الاسى بالظنونْ ؛
كل فكري سوادْ ، كل قلبي فسادْ ،
كل دربي قتادْ ، كل عيشي كفاحْ ؛
قهقهي ، قهقهي ، يا رياح !

يؤيد اعترافه هذا في « صدى الاجراس » ، حيث يوقظ تذكارات طفولته من سباتها في اعماق فؤاده ، فيقول :

وافاق الشك وانصارهْ ، آلام العيش واوزارهْ ،
فاطلوا من قلبي ليروا قلباً تتقطع اوتارهْ !

في « العراك » يصف لنا في ثمانية ابيات بديعة بايجازها وعمق معانيها ، تلك الحرب الضروس بين الخير والشر ، التي ساحتها كل روح بشرية ، وقد صرح لنا غير مرة بان الشر قد انتصر عليه :

دخل الشيطان قلبي ، فرأى فيه ملاكْ ،
وبلمح الطرف ما بينهما اشتد العراكْ .

بيد ان الملاك الثاوي في قلب نعيمه لا يلزم الصمت الدائم ، ولو سيم انكساراً متواتراً ، بل يرفع صوته بعض الاحيان بلهجة الاحتجاج الشديد على تذليله ، ويلهم الشاعر اسمى الالهام ، فتتصاعد من عوده الشعري صلوات حارة الى الله تعالى ، ملؤها الايمان والرجاء والمحبة ؛ فلا مبالغة في تشبيهها بالتي فاضت من اقلام اقدس الشعراء . نرى ذلك العجب العجاب في « ابتهالات » ، التي نعدها من اجمل القصائد الدينية في لغة الضاد ، ولولا ضيق المقام لذكرناها برمتها . اليكم على الاقل نموذجاً من بدائعها :

كحّل ، اللهم ، عيني بشعاع من سناكْ
كي تراكْ

في جميع الخلق : في دود القبورْ ، في نسور الجو ، في موج البحارْ ،
في صهاريج البراري ، في الزهورْ ، في الكلا في التبر في رمل القفارْ...
وافتح ، اللهم ، اذني كي تعي دوماً نداكْ
من عُلاكْ
في ثُغاء الشاة ، في زأر الاسودْ ، في نعيق البوم في نوح الحمامْ ،
في خرير الماء ، في قصف الرعودْ ، في هدير البحر ، في مر الغمامْ ...
واذا ما قرُب الموت ووافاهـا الصممْ ،
فاختمنْ ، ربي عليها ريثما تحيا الرممْ!...
واجعل ، اللهم ، قلبي واحةً تسقي القريبْ
والغريبْ ،
ماؤهـا الايمان ، اما غرسهـا فالرجا والحب والصبر الطويلْ ؛
جوهـا الاخلاص ، اما شمسهـا فالوفا والصدق والحلم الجميلْ . . .
واذا الايمان ولى والرجا اضحى ضريرْ ،
فلينم قلبي الى ان ينفخ البوق الاخيرْ !

تلك لعمري ابيات تُطرب كل عُشاق العزة الالهية ، ولنعيمه مثلها في الدورين الاخيرين من « التائه » ، بل اتم منها بياناً واوسع معنى مع قلة الفاظها ، فهي بالغة من الايجاز حد الاعجاز ، اذ عبر فيها الناظم اوضح التعبير عن غاية الانسان وانقياده كالحملان لشهواته ، التي ينشأ عنها عمى العقل وخور الارادة ، ومسيس حاجته الى حرارة الايمان وعطف خالقه عليه وهدايته له ، حتى يجتاز بقلب فرح بيداء هذا المنفى الارضي المفضية به الى السعادة الابدية في الوطن السماوي :

اخالقي ، رحماكا لما برت يداكا !
ان لم اكن صداكا ، فصوت من انا ؟
ربي ، الا تراني اساق كالحملان ؟

ربي ، اما كفاني عماي والوني ؟
فابدل لظى نيراني بجمرة الايمان ،
واجعل من الحنان للقلب مرهما ؛
اذ ذاك بالتهليل اسير في سبيلي ،
وخالقي دليلي ووجهتي السما !

« من انت ، يا نفسي ؟ » هي ايضاً من ابدع قصائد نعيمه التي صاغها في الفترات النادرة القصيرة التي تملص فيها من قيود الشك العام . يوضح لنا فيها ، على اسلوب شعري محض ، مزدان بوشي الخيالات المبتكرة الفتانة ، سر القرابة التي تشعر بها النفس البشرية نحو اجمل عناصر العالم المادي ، وقد ذكر منها الناظم الامواج ، البرق ، الرعد ، الريح ، الفجر ، الشمس والالحان . ثم ازاح الستار عن ذلك السر المكنون في الدور الاخير من قصيدته ، التي نعدها درة يتيمة بين جواهر الشعر المصوغة في كل انحاء العالم . قال ولله دره :

ايه ، نفسي ، انت لحنٌ فيَّ قد رن صداهْ ؛
اوقعتك يد استاذ خفي ، لا اراهْ ؛
انت ريح ونسيم ، انت موج ، انت بحر ،
انت شمس ، انت رعد ، انت برق ، انت فجر ،
انت جزء من اله !

ذلك الشعر الذي موضوعه فلسفة الحياة ، المتذبذب من الشك المظلم الى اليقين النيّر ، ومن المادية والكفر الى الروحانية والتقوى ، مع ميل شديد الى الثبات على الحالة الاولى ، هو على رأينا احب انواع الشعر عند نعيمه ، يعالجه بشغف بيّن ويعود اليه طوعاً بما يثير الدهش من غزارة المعاني وتنوع الخيالات الشعرية . اذا خرج احياناً من حدود ذلك الميدان الخصوصي ، فلا يغادر ميدان التحليلات النفسية العمومي الذي يحوي الاول

في ارجائه الواسعة . كثيراً ما يتذرع باجمل الرموز ليصور لنا احوال روحه الرقيقة ، الطامحة طموحاً اليماً الى ما فوق الارضيات ، الخائبة امر الخيبة في سجن الحياة الدنيا ، فيقول في « النهر المتجمد » :

قد كان لي ، يا نهر ، قلبٌ ضاحك مثل المروجْ ،
حُر كقلبك ، فيه اميـــال وآمال تموج ؛
قد كان يضحي غير ما يمسي ولا يشكو المللْ ،
واليوم قد جمدت كوجهك فيه امواج الامل !

احياناً يوتر قوس عزمه ، لا للصبر على نوائب العيش فقط ، بل للاستخفاف بها وادعاء مناعة روحه بازاء هجماتها المتواصلة . قد وصف لنا موقفه هذا في « الطمأنينة » منشداً :

باب قلبي حصينْ من صنوف الكدرْ ؛
فاهجمي ، يا همومْ ، في المسا والسحر ،
وازحفي ، يا نحوس ، بالشقا والضجر ،
وانزلي بالالوف ، يا خطوب البشر !

في ظروف اخرى يحاول توطين نفسه على احتقار الملاذ الحسية التي اختبر بطلانها اختباراً اليماً ، فيبتعد عن سرابها الخداع مختلياً في قصر افكاره واحلامه ، ومخاطباً من عليائه الشاهقة صاحب القصر المادي ، الذي لم يُفق من سكرة هيامه في متاع الدنيا ، وهو من سقط المتاع :

لا ، لا تقل « ما راق لي قصرك العالي ، واني لم يطب لي هواهْ » ؛
بل ان لي ، يا صاح ، قصراً ابت نفسيَ ان تلجا لقصر سواه ؛
ذا قصر افكاري واحلامي !

ان لم يجد لنفسه ملجأ اميناً يقيها رزايا الدهر ، لا في حصن التجلد العزوم ولا في صرح التأملات والرؤى ، فقد يُضطر الى الاعتصام بحبل الايمان بخلودها السعيد بعد تحررها من سجني الجسد والغبراء ، فنراه

كالغريق المتمسك بلوح الخلاص ، لئلا يغوص في اللجج الهائلة العمق والحالكة الغياهب . قد احسن التعبير عن ذلك الايمان السديد في قصيدته الرمزية « اوراق الخريف » حيث يخاطب تلك الاوراق قائلاً :

عودي الى حضن الثرى وجددي العهـــودْ ،
وانسي جمالاً قد ذوى ؛ ما كان لن يعـود !
كم ازهرت من قبلك وكم ذوت ورود !
فـلا تخـافي ما جرى ولا تـلومي القدرا ؛
من قـد اضاع جوهرا يلقـاه في اللحـــود ؛
عودي الى حضن الثرى !

يتضح مما سبق ان معظم شعر نعيمه محصور في وصف احواله النفسية بازاء الحياة مع الغازها الغامضة وآلامها الفادحة . قلما يصور لنا مواقفهـا تجاه حادث معين ، كما نرى في القصيدة « اخي » ، التي يخاطب فيها من مهجره البعيد مواطنه اللبناني الباقي في بلد جرت عليـه الحرب العالميـة الاولى من انواع الاهوال والخسائر ما يُرعد الفرائص ، فيعيّره بخضوعه الذليل لنير الاتراك المستبدين ، ويختم عتابه اللاذع بقوله :

اخي ، من نحن ؟ لا وطنٌ ولا اهلٌ ولا جارُ ؛
اذا نمنـا ، اذا قمنـا ، ردانا الخزي والعـار !
لقد خمت بنا الدنيـا ، كما خمت بموتانـا ؛
فهـات الرفش واتبعني لنحفر خندقـاً آخرْ ،
نواري فيـــه احيانا !

« من انت ؟ ما انت ؟ » هي ايضاً من ذلك النوع النادر ؛ يعنف فيهـــا شعباً ادعى نشر سيطرته على كل انحاء المعمور ؛ ها كم بعض ابيات منها :

من انت ، ما انت ، حتى تحكم البشرا كأن في قبضتيك الشمس والقمرا ؟...
تقسّم الارض افتـــاراً مربعـةً بما عليهـا وما في جوفها استترا ،

وتسلب الرزق اقواماً لتمنحه قوماً ، وإما شكوا لقمتهم مدرا !...
هل صاغك الله، يا مولاي، من نفس في صدره وبراني خالقي حجرا ؟
ام اصطفاك منارا في بريته ولم يهبني لا سمعاً ولا بصرا ؟

تلك اهم المواضيع التي عالجها شاعر بسكنتا ، وقد صبغت شعره صبغة تميزه عن قريض اكثر شعرائنا العصريين حتى الاميركيين . اما تعبيره فهو من الطراز العالي ، يمكن صاحبه من مجاراة امراء القريض عند ارقى الشعوب ؛ فلو تُرجم الى لغة من لغاتهم ، لما فقد شيئاً من جماله سوى الوزن والقافية ؛ تلك ميزة كبار الشعراء .

الخطأ اللغوي كثير تحت قلم نعيمه ، لكننا لا نكاد نرى في انشائه اثراً للتعقيد او الحشو ولا للمبالغة او الابتذال ، مع ان تلك العيوب الكبيرة تشين حتى الآن قصائد اشهر شعرائنا العصريين ما عدا نفراً يُعدون على الاصابع . تقضي العجب على الاخص من مقدرة نعيمه على ابتكار ابدع الخيالات الشعرية المحضة ، الشديدة التنوع ، تفيض عفواً من قريحته الزاخرة ، وكثيراً ما نجد منها في قصيدة واحدة ما لا نعثر عليه في ديوان كامل من نظم غيره . دونكم بعض التحف من تلك الخيالات الجديدة الانيقة ، المقتطفة من « صدى الاجراس » : « افكاري ترود الحاضر والماضي » ، « اصطفت حولي ايامي ، تستعرض عسكر احلامي » ، « افاق الشك وانصاره » ، « سكينتي ارتجفت وقوافل افكاري وقفت » ، « مزق سر الليل صدى » ، « اشجار الغاب تحيّينا » ، « زهور الغاب تصافحنا » ، « الريح تمر بنا خبباً » ، « الشمس بلطف تلثم اوجهنا وتدر لنا ذهباً » ، « اترابي في الغاب يقودهم المرح » ، « يرقص في قلبي الفرح » ، « جلست على كتف النهر » ، « العالم مملكتي » . نقف هنا اكتفاءً ، مع ان في القصيدة ذاتها غير ما ذكرنا من ابدع الصور .

تتجلى مقدرة مخيلة نعيمه على الاخص بسهولة ابداعه خيالات عديدة

لوصف شيء واحد . من امثال ذلك انه يسمي اوراق الخريف « مرقص الشمس ، ارجوحة القمر ، ارغن الليل ، قيثارة السحر ، رمز فكر حائر ، رسم روح ثائر ، الى غير ذلك مما يطول تعداده .

خلاصة القول ان ميخائيل نعيمه صاحب شاعرية ممتازة ، لانها حية ، صادقة ، فنية ، خالية من التصنع في معانيها ومبانيها ، على انها مشوهة بعيب كبير في معظم قصائده . وهو ان فلسفته في شأن الحياة وغايتها ليست سوى اسم رنان بلا مُسمى ، لانها ارتيابية ، سلبية ، جافة ومجففة النفوس ، محاطة بالظلمات وناشرة لها في عقول القراء ، ميتة وباثة لجراثيم الموت . فهي بعيدة كل البعد عن مرمى الشعر المحض ، وهو ان ينير الاذهان باشعة الحقائق الجوهرية ، وينعش القلوب بحثها على حب تلك الحقائق واخراجها الى حيز الاعمال ، والاستضاءة بها في غياهب هذه الارض الفانية ، ريثما تطلع شمس السعادة الكاملة التي لا يعتريها افول .

احمد شوقي

احمد شوقي من اشهر شعرائنا المعاصرين ؛ قد ظهر ديوانه «الشوقيات» في اواخر القرن التاسع عشر ، وبعد عشرات الاعوام طُبع له ديوان آخر في جزئين موادهما اغزر جداً من الاولى .

قد كثّر مدح العظماء الى درجة الافراط وبمبالغة فاحشة . قال عن السلطان عبد الحميد :

اعرّب ما تُنشي عُلاك ، وانه ... لفي لطفه ما لا ينال المعربُ ؛
مدحتك ، والدنيا لسانٌ ، واهلها ... جميعاً لسانٌ يُمليان واكتب . . .
فكنت كعين ذات جري كمينة ، ... تفيض على مر الزمان وتعذُب ،

موكلة بالارض ، تنساب في الثرى فيحيا ،وتجري في البلاد فتُخصب؛
فاحييت ميتاً دارس الرسم غابراً ، كأنك فيما جئت عيسى المقرَّب ...
سهرت ونام المسلمون بغبطة ؛ وما يُزعج النُوام والساهر الاب ؟

قد هنأ ذلك العاهل بنجاته من قذيفة القيت عليه سنة ١٩٠٥ ، فقال بمثل ذلك الغلو المستهجن :

اذا زُلزلت من حولك الارض رادها وقارك حتى تسكن الجنباتُ .

قد افاض بفساد الذوق عينه سيول ثنائه الصاخبة على خديوي مصر عباس الثاني حلمي في قصائد عديدة تافهة ، من جملتها « الى عرفات » حيث يذكر حجه مكة ، فيقول عنه :

تكاد تضيء الارض تحت ظلاله وتُخرج عقياناً مكان نبات !

له عدة قصائد دينية اسلامية ، منها « الهمزية النبوية » في تعظيم نبي المسلمين ، وهي من اطول المنظومات العربية . في « خلافة الاسلام » يعنّف الاتراك على تأليهم لمصطفى كمال مجدد استقلالهم ، ورضاهم بالغائه الخلافة المختصة بسلاطينهم ، فيحث الدول الاسلامية على مطالبته باعادتها :

تركتْه كالشبح المؤله امةٌ لم تسلُ بعدُ عبادة الاشباح ؛
هم اطلقوا يده كقيصرَ فيهم[1] حتى تناول كل غير مُباح !

لشوقي كلف واضح بسرد الحوادث التاريخية في شعره . « كبار الحوادث في وادي النيل » من اطول قصائده ، وفيها من التصوير الحي لصروف الدهر ما يُطرب القارىء ؛ قال فيها عن نابوليون الاول الذي فتح ارض الفراعنة بسرعة البرق الخاطف ، ثم تقلص ظل سيادته لها بعد ثلاثة اعوام :

علمتْ كل دولة قد تولت اننا سمها وانا الوباء .
قاهر العصر والممالك نابُليون ولّت قواده الكبراء ؛

---

(١) يجب كسر الميم لاستقامة الوزن .

جاء طيشاً وراح طيشاً ،ومن قبلُ اطاشت اناسَها العلياء!

في « صدى الحرب » يصف وقائع الوغى الناشب بين الاتراك واليونانيين سنة ١٨٩٧ . من اجمل ابياته في هذا الشأن وصفه حصار ادرنة ، حيث يصيح بها :

في ذمة التاريخ خمسة اشهر طالت عليك ، فكل يوم عامُ .
السيف عارٌ والوباء مسلّطٌ والسُبْل خوفٌ والثلوج ركام !
والجوع فتّاك ، وفيك صحابةٌ ، لو لم يجوعوا في الجهاد ، لصاموا !
ضنوا بعرضك ان يباع ويُشترى ؛ عرض الحرائر ليس فيه سوام !
ضاق الحصار ، فكأنما حلقاته فلكٌ ومقذوفاته اجرام ؛
ورمى العدى ورميتهم بجهنم مما يصب الله ، لا الاقوام !
بعت العدو بكل شبر مهجةً ؛ وكذا يباع المُلك حين يرام ؛
ما زال بينك في الحصار وبينه شُم الحصون ومثلهن عظام ،
حتى حواك مقابراً وحويته جُثثاً ، فلا غبَنٌ ولا استذمام !

في « الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد » قد وقف نحو عشرين بيتاً على وصف مُمل لحريم ذلك العاهل المقيمات في قصر يلدز ، ثم قارن عزه الباذخ بذل نزوله من عرش الاستبداد :

كم سبّحوا لك في الرواح والتهوك لدى البكورْ ،
ورأيتهم لك سُجّداً كسجود موسى في الحضور[1] ؛
خفضوا الرؤوس ووتّروا بالذل اقواس الظهور .
ماذا دهاك من الامور ، وكنت داهية الامور ؟ . . .
دخلوا السرير عليك ، يحتكمون في رب السرير ؛
أعظم بهم من آسرين وبالخليفة من اسير !

قد عالج شوقي الشعر الوطني واجاده غير مرة ، مع بعض الخطل ؛ في

(١) يعني الشاعر حضور الله تعالى .

« مشروع ميلنر » يبدأ بنحو عشرين بيتاً غزلياً لا علاقة لها بالموضوع . في « مشروع ٢٨ فبراير[1] » فكاهة ظريفة في شأن حماية انكلترة لمصر :

قالوا « الحماية زالت » ؛ قلت « لا عجبٌ ، بل كان باطلها فيكم هو العجبا .
« رأس الحماية مقطوعٌ ؛ فلا عدمت كنانة[2] الله حزماً يقطع الذنبا ! »

يقول عن ترقي المصريات :

مصرٌ تجدد مجدها بنسائها المتجدداتُ
النافرات من الجمود ، كأنه شبح الممات .

سنة ١٩٢٤ قال بعد اطلاق فريق من مواطنيه ، كان الانكليز قد امروا بحبسهم ، فقضوا مدة في السجن :

جادوا بايام الشباب واوشكوا يتجاوزون الى الحياة الجودا !

اما شعره الوصفي فقلما نراه دقيقاً مبنياً على المشاهدة ، بل منقاداً لجموح مخيلة تخرجه من حدود الطبيعية ؛ ها كم بيتين يصور فيهما اصطدام جيشين :

كأن سنى الابواق في الليل برقه ، كأن صداها الرعد للبرق يصحب...
كأن الوغى نارٌ ، كأن جنودنا مجوسٌ اذا ما يمموا النار ، قربوا .

من جهة اخرى نراه يبدأ بالوصف ثم يميل عنه فوراً الى الشعر الغنائي المحض ؛ ذلك ما نجده في « قف بروما » الحاوية خمسة ابيات وصفية فقط . على كل حال قد اتقن وصف علائقه مع جدته الحنون :

لي جدةٌ ترأف بي ، احنى عليَّ من ابي ؛
وكل شيء سرني تذهب فيه مذهبي .
ان غضب الاهل عليَّ كلهم ، لم تغضب .
مشى ابي يوماً اليَّ مشية المؤدب
غضبانَ قد هدد بالضرب ، وان لم يضرب ،
فلم اجد لي منه غير جدتي من مهرب .

---

(١) اسم شهر شباط عند المصريين — (٢) القطر المصري .

فجعلتني خلفهـــا ، انجو بها واختبي ،
وهي تقـــول لابي بلهجـــة المؤنب :
« ويحٌ له ، ويحٌ لهـــذا الولد المعذَّب !
« الم تكن تصنع ما يصنع اذ كنت صبي ؟ »

وايم الحق نعد هذه القصيدة مع قصرها وبساطتها من فرائد ديوانه . لقد اجاد احياناً مثل تلك الاجادة في الشعر التهذيبي ، ولا سيما في ارشاده للتلاميذ المصريين الذين ، اذا سقطوا في فحص الحكومـــة ، وسوس اليهم الشيطان الرجيم بان ينتحروا للتخلص من وصمة العار ، وقد اقدم على تلك الجريمة مئات منهم . يقول شوقي لمن هموا بتقفيـــة آثارهم في الظروف المذكورة ؛ لا فُض فوه :

نشأ الخير ، رويـداً ! قتلكم في الصبا النفس ضلالٌ وخُسْرْ !
لو عصيتم كاذب اليـأس ! فمـا في صباهـا ينحر النفس الضجر ؛
تضمر اليأس من الدنيـا ، وما عندها عـن حادث الدنيـا خبر .
فيم تجنـون على آبائـكم الم الثُكل شديـداً في الكبر ،
وتعقّون بـــلاداً لم تزل بـــين إشفـاق عليكم وحذر ؟
فمصـاب المُلك في شبـــانه كمصاب الارض في الزرع النضر .
ليس يدري احـد منكم بما كان يُعطى لو تأنى وانتظر . . .
روّحـوا القلب بلذات الصبى ، فكفى الشيبُ مجالاً للكدر ! . . .
واغنمـوا ما سخّر الله لكم من جمـال في المعـاني والصور ،
واطلبـوا العلم لذات العلم ، لا لشهـــادات وآداب اخـر .
كم غـــلام خامل في درسه صار بحر العلم ، استـاذ العُصر !

« ايها العمال » من روائع ذلك النوع الشعري ؛ فيهـــا من النصائح السديدة والتعبيرات اللبقـــة ما يأخذ بمجـــامع القلوب ؛ دونكم بعض ابياتها :

اين انتم من جدود خلّدوا هذا الترابا[1] ؟
قلدوه الاثر المعجز والفن العُجابا ،
وكسوه ابدَ الدهر من الفخر ثيابا ؛
اتقنوا الصنعة حتى اخذوا الخلد اغتصابا !
ان للمتقن عند الله والناس ثوابا .
اتقنوا يحببكمُ الله ويرفعكم جنابا ؛
ارضيتم ان تُرى مصر من الفن خرابا ؟ . . .
قد دعاكم ذنب الهيئة[2] داع ، فاصابا ؛
هي طاووسٌ ؛ وهل احسنه الا الذُنابى ؟

من ابدع اشعار شوقي الغنائية تلك التي عظّم فيها ذلك المسلم العالي الثقافة ، الواسع الخبرة ، سيدنا يسوع المسيح ؛ ولا نرى بين ادبائنا المعاصرين من ابناء دينه من جاراه بذلك الاقدام النبيل . قال عن فادينا الجليل :

وُلد الرفق يوم مولد عيسى والمروآت والهدى والحياء ،
وازدهى الكون بالوليد وضاءت بسناه من الثرى الارجاء ،
وسرت آية المسيح كما يسري من الفجر في الوجود الضياء ؛
تملأ الارض والعوالم نوراً ، فالثرى مائجٌ بها وضّاء !
لا وعيدٌ ، لا صولةٌ ، لا انتقامٌ ، لا حسامٌ ، لا غزوةٌ ، لا دماء !
ملكٌ جاور التراب ، فلما مل ، نابت عن التراب السماء !
واطاعته في الاله شيوخ[3] خُشّعٌ ، خُضّعٌ له ، ضعفاء ؛
اذعن الناس والملوك الى ما رسموا والعقول والعقلاء ،
فلهم وقفةٌ على كل ارض ، وعلى كل شاطئ إرساء !

---

(١) يعني الشاعر ارض مصر — (٢) الهيئة هنا بمعنى المجتمع — (٣) يعني الشاعر بالشيوخ رسل السيد المسيح .

له ايضاً ابيات رائعة الجمال في تعظيم صليب السيد المسيح ، الذي كان آلة التعذيب والعار ، فصار بعد موت مولانا عليه علامة الشرف الاسمى وافصح رمز للمحبة والرحمة . قال شوقي يخاطب الصليب الاحمر :

سر، يا صليب الرفق، في ساح الوغى وانشر عليها رحمةً وحنانا ،
وادخل على الموت الصفوف مساوياً وأعن على آلامه الانسانا ،
والمس جراحات البرية شافياً ؛ ما كنت الا للمسيح بنانا !
واذا الوطيس رمى الشباب بناره ، خُض كالخليل اليهم النيرانا ؛
واجعل وسيلتك المسيح وامه ، واضرع وسل في خلقه الرحمانا !

السيد المسيح قد فتح بلاد العالم وانشأ فيها مملكته بواسطة صليبه ، الذي هو على حسب الظواهر آلة الضعف والخزي والانكسار . يُخيل لنا ان شوقي قد ادرك شيئاً من سر تلك المقدرة الالهية المدهشة ، فقال في احدى قصائده ، يخاطب المارشال ألنبي (Allenby) الانكليزي المستولي على القدس سنة ١٩١٨ :

يا فاتح القدس ، خل السيف ناحيةً ؛ ليس الصليب حديداً كان ، بل خشبا ؛
اذا نظرتَ الى اين انتهت يده وكيف جاوز في سلطانه القُطُبا ،
علمت ان وراء الضعف مقدرةً وان للحق ، لا للقوة ، الغلَبا !

يصف في ثلاثة ابيات جميلة تحول رومية ، عاصمة العواهل الوثنيين ، الى عاصمة الكنيسة الكاثوليكية ، مملكة المسيح على الارض :

بلدٌ كان للنصارى قتاداً ، صار مُلك القسوس، عرش الديانهْ ،
وشعوبٌ يمحون آية عيسى ، ثم يُعلون في البرية شانه ؛
ويهينون صاحب الروح ميتاً ، ويُعزون بعده اكفانه !

ينوه بسمو فضيلة الراهبات الواقفات كل حياتهن ، منذ شرخ الشباب ، على خدمة السيد المسيح والتشبه بقداسته ، فيقول عنهن :

اردتُ جوار الله ، والعمر منقض ، وجاورنه في العمر ، وهو نضيرُ !

صبا [illegible] اهل وموطن ولذات دنيا ، كل ذاك نذور[1]
بهن ، وما يدرين ما الذنب خشية ؛ ومن عجب تحشى الخطيئة حور .
اوانس في داج من الدير موحش ، ولله انسٌ في القلوب ونور !
واشبه طُهر في النساء بمريم فتاةٌ على نهج المسيح تسير !

قد فرغنا من ابداء ملاحظاتنا على المواضيع التي عالجها شوقي واوضحنا ما فيها من ذهب إبريز وبهرج حقير . نجد مثل ذلك المزيج الشائن في تعبير الشاعر . كثيراً ما يُبدع اجمل الخيالات ؛ مثال ذلك قوله لله تعالى :

انت انسٌ لنا اذا بعُد الانس ، وانت الحياة والاحياء !
يتولى البحارَ ، مهما ادلهمّت ، منك في كل جانب لألاء ؛
واذا ما علت ، فذاك قيام ؛ واذا ما رغت ، فذاك دعاء ؛
فاذا راعها جلالك ، خرت هيبةً ، فهي والبساط[2] سواء !

يُطربنا ايضاً وصفه المبتكر للموت ومحاربة النفس البشرية له :

النفس حرب الموت ، الا انها اتت الحياة وشغلها من بابه ؛
تسع الحياةَ على طويل بلائها ، وتضيق عنه على قصير عذابه .
هو منزل الساري وراحة رائح كثُر النهار عليه في إتعابه ،
وشفاء هذي الروح من آلامها ودواء هذا الجسم من اوصابه .

بجانب تلك الجواهر الجديدة نرى مئات من الخيالات المبتذلة الشوهاء من فرط هرمها ؛ نكتفي هنا ، خوفاً من الاطالة المملة ، بذكر شيء منها : « بدور الحُسن » ، « ثياب الفخر » ، « الاسد والآرام » بمعنى الرجال والنساء ، « الماء شهدٌ ولبن » ، « غلام صار بحر العلم » ، « مُلك تحسد الشمس في الضحى سلطانه » ، « الخديوي ينجلي قمراً في قصره » .

شوقي مولع بالمبالغة . يقول لبعض مواطنيه :

---

(١) هذه الكلمة لا يتم معناها الا بالجار والمجرور الذي في اول البيت التالي ، وذلك مستهجن في الشعر العربي — (٢) الارض الواسعة .

وجه الكنانة ليس يُغضب ربكم ان تجعلوه كوجهه معبودا .

هاكم وصفه قطاراً فيه اعضاء وفد مصري ذاهب الى مؤتمر السلام في فرساي (Versailles) :

لولا استلام الخلق ارسانه ، شب فنال الشمس في عُجبه .

يقول عن مناعة السواحل التركية المحصنة :

فمثل بناء الترك لم يبن مشرقٌ ، ومثل بناء الترك لم يبن مغربُ !

وعن امواج البحر انها « جبال موائج في جبال » . يخاطب ذاته متذكراً جمهور شبان بلاده الذين رحبوا به عند نزوله الى بر مصر ، وهو عائد من الاندلس :

وإن حملتك ايديهم بحوراً ، بلغتَ على اكفّهم السحابا .

من اكثر شوائب تعبيره التصنع ؛ يقول عن خور قواه في الشيخوخة :

ولي بين الضلوع دمٌ ولحمٌ هما الواهي الذي ثكل الشبابا ؛
تسرب في الدموع ، فقلت « ولى » ، وصفّق في الضلوع ، فقلت « ثابا » .

يخاطب الاتراك منوهاً بانتصارهم على اليونانيين ، فيقول لهم :

وما زلتمُ يسقيكم النصر خمره وتسقونه ، والكل نشوانُ مصأب...

ما اكره تلاعبه بالجناس في وصفه انكسار اليونانيين على ساحل نهر سقاريًا في الاناضول ، حيث هزمهم مصطفى كمال سنة ١٩٢١ :

ما كان ماء سقاريًا سوى سقر[1] طغت فاغرقت الاغريق[2] في اللهب .

كثيراً ما يشوه انشاء الشاعر عدم تلاحم المعاني . « ذكرى المولد » التي غايتها تعظيم ميلاد محمد نبي المسلمين ، تبدأ بالشكوى من آلام الحياة ، ويليها ايضاح واجب الاحسان الى الفقراء ؛ فثلثاها لا علاقة لهما بجوهر الموضوع . من جهة اخرى الابهام والغموض وعدم انسجام العبارة عيوب

---

(١) اسم علم معناه جهنم ، وهو منون هنا لضرورة الوزن — (٢) اسم من اسماء اليونانيين تشبه الكلمة الفرنسية grec .

نجدها في اكثر القصائد ، مما يدل دلالة جلية على ان الناظم يُحجم عن بذل الجهد اللازم لوضوح الانشاء وسلاسته . مئات من ابياته شبه الغاز ينبغي إعمال الفكر حيناً لاكتشاف معانيها على وجه التخمين او الترجيح . قد سمعنا في هذا الشأن ان احد قُراء ديوان شوقي قد صادف صاحبه عند شخص ثالث ، فانتهز تلك الفرصة ليستفهم الشاعر عن معنى بيت غامض من نظمه ، فلم يستطع شوقي ايضاحه على وجه معقول ، فقال رب البيت للمستفهم : « لا « تُزعج شوقي ، فانه هو ذاته لا يفهم ما قاله . »

الخطأ اللغوي غير يسير في « الشوقيات » كاستعمال استلم بمعنى تسلم ، وقول الشاعر « ساحة العيش الى الله » ، وهو يعني انها لله . اما الافراط في استعمال الكلمات المماتة ، الذي يزعمه الشاعر دليلاً جلياً على نبوغه ، فنجده في كل قصيدة على وجه التقريب . كفى شاهداً على ذلك ان الطبعة الحديثة لديوان شوقي مشحونة بحواش طويلة لتفسير آلاف من تلك الالفاظ التي يمجها الذوق السليم .

قد لُقب شوقي بامير الشعراء في كل انحاء العالم العربي . اما نحن فنؤكد انه غير خليق بذلك اللقب المجيد ، وقد اوضحنا ببراهين وامثال عديدة عيوب قريضه الكبيرة ، فنعده شاعراً من الدرجة الوسطى ، قد فاقه كثير من رصفائه المعاصرين ، كميخائيل نعيمه ورشيد سليم خوري ، الذين كاد يبلغ شعرهم في قصائد عديدة ذروة الكمال .

جبران خليل جبران

سنة ١٩٢٣ نشر يوسف توما البستاني ، صاحب مكتبة العرب في القاهرة ، كتاب « البدائع والطرائف » الحاوي مقالات عديدة وعدة قصائد للاديب اللبناني الشهير جبران خليل جبران . قد تصفحناه ملياً ، فاستخلصنا منه آراء مؤلفه في شأن اهم المسائل التي ما زالت تشغل عقول البشر ، من اعظم الفلاسفة الى اجهل الاميين ، منذ اقدم العصور الى ايامنا ، ولن تزال تشغلها الى منتهى الاجيال ، وهي : وجود الله وكمالاته وعلائقه مع خلائقه الناطقة ، نشأة العالم المادي ، اصل الانسان وغاية حياته ومصيره بعد مروره السريع على الارض . ها كم مزاعم جبران في تلك الشؤون التي تفوق بخطورتها وعواقبها في العاجلة والآجلة كل ما سواها من امور الحياة .

يجاهر جبران مجاهرة واضحة مكررة بعدم ايمانه باله موجود بذاته ، ممتاز كل الامتياز عن الكون الذي اخرجه من العدم بقدرته غير المحدودة ، فيقول له في ختام « حفنة من رمال الشاطىء » : « ايها الكون العاقل ، « المحجوب بظواهر الكائنات ، الموجود بالكائنات وفي الكائنات « وللكائنات ، انت تسمعني لانك حاضري ذاتي . . . » في مقالته « الله » يخبرنا انه قد صعد الى الجبل المقدس ثلاث مرات ، بين كل مرة والتالية الف سنة ، وحادث الله تعالى مصرحاً بانه خالقه وربه الآمر الناهي ، بل والده المحب ، فلم يجبه الله ، لانه فاه بغير الحقيقة . ثم صعد الى الجبل مرة رابعة وقال : « الهي ومقصدي وكمالي ، انا امسك وانت غدي . انا عروق لك « في التراب ، وانت ازاهر لي في السماء ، ونحن ننمو سويةً امام وجه الشمس . » ثم يضيف الى تلك الرواية الكاذبة ما هو اكذب منها قائلاً : « فعطف اذ ذاك الله نحوي وهمس في اذني كلمات عذبة علوية ، وكبحر « يضم جدولاً جارياً اليه ، هكذا ضمني الله اليه ! »

يتضح من النصين السابقين اللذين لا يترك وضوحهما زيادة لمستزيد ، ان مذهب جبران هو الحلولية القائلة بوجود الله في جميع الخلائق بدون امتيازه عنها ، فهي في الحقيقة تنكره انكاراً مطلقاً . فلا بدع بان قد تحتم عليه الاقرار بان الانسان ، ملك الكون الهيولي ، مولود بعنصريه المادي والروحي من التراب الذي يطأه برجليه . قال في « الارض » : « تنبثق « الارض (يعني الانسان) من الارض كرهاً وقسراً ، ثم تسير الارض فوق[1] « الارض تيهاً وكبراً ، وتقيم الارض من الارض القصور والبروج « والهياكل ، وتنشىء الارض من الارض الاساطير والتعاليم والشرائع . . . « ثم يراود نعاس الارض اجفان الارض ، فتنام نوماً هادئاً ، عميقاً ، ابدياً . »

دونكم خاتمة تلك المقالة : « انت انا ، ايتها الارض ؛ انت بصري « وبصيرتي ، انت عاقلتي وخيالي واحلامي ؛ انت جوعي وعطشي ، انت المي « وسروري ، انت غفلتي وانتباهي ! انت الجمال في عينيّ ، والشوق في قلبي ، « والخلود في روحي ! انت انا ، ايتها الارض ؛ فلو لم اكن ، لما كنت . »

قد بلغ به الكفر والجنون الى حد ادعائه ان النواميس النفسية ولا سيما الشرائع الدينية التي تسيطر على روح الانسان ، لا تختلف عن نواميس العالم المادي ، فقال في « ايتها الارض » : « علمت ان منزل النفس فضاؤك ، ورغائبها « في رغائبك ، وسلامتها في سلامتك ، وسعادتها في الغبار الذهبي الذي تنثره « النجوم على جسدك ... علمت ان نظام البشر نظامك ، وناموسهم ناموسك ، « وسنّتهم سنتك ... »

انكر جبران وجود الله ، وادعى ان الكون المادي ازلي غير مخلوق ، وان البشر من مواليد تطوره الدائم ، فعد الدين والفضائل التي يفرض ممارستها كلمات باطلة فارغة ، تدل على اوهام وخرافات غير لائقة باهل القرن العشرين . اسمعوا استهزاءه بالدين واصحابه :

---

(١) قد ذكرنا اقوال جبران على علاتها مع ما فيها من الاغلاط اللغوية .

والدين في الناس حقل ليس يزرعه غير الألى لهمُ في زرعه وطرُ ؛
من آمل بنعيم الخلد مبتشر ، ومن جهول يخاف النار تستعر .
فالقوم لولا عقاب البعث ما عبدوا رباً ، ولولا الثواب المرتجى كفروا ،
كأنما الدين ضرب من متاجرهم ؛ ان واظبوا ربحوا ، او اهملوا خسروا .

ها كم رأيه في الفضيلة الذي ابداه في مقالته « يا صاحبي » :

« انت تعشق الحق والجمال والفضيلة ، وانا لاجلك اقول انه يليق « بالانسان ان يحب هذه الاشياء ، ولكنني اضحك في قلبي من حبك . . . »

في نظر ذلك المادي الكافر ، الذي عده آلاف الشرقيين من نوابغ المفكرين الفلاسفة ، لا فرق اصلاً بين الراهبة التي ضحت باعظم الخيرات المحللة لتقتدي بقداسة السيد المسيح وتساعده على تخليص ربوات النفوس ، والمومسة المصرة على جعل جسمها ونفسها العوبة زهيدة الثمن تحت تصرف العاهرين . قال في « القشور واللباب » : « قد تنظر من نافذة منزلك ، فترى « بين عابري الطريق راهبة تسير يميناً ومومساً تسير شمالاً ، فتقول على « الفور : ما انبل هذه وما اقبح تلك ! ولكنك لو اغمضت عينيك واصغيت « هنيهة ، لسمعت صوتاً هامساً في الاثير قائلاً : هذه تنشدني بالصلاة وتلك « ترجوني بالالم ، وفي روح كل منهما مظلة لروحي ! »

العفاف الذي يرفع الانسان الى مقام الملائكة ، والعهارة التي تجعله ادنى من الحيوانات ، هما سيان على رأي جبران . لذلك يعد الزواج الشريف مع واجباته الصعبة واعبائه الفادحة حماقة محضة ، اذ يلجم الشهوات السافلة الجامحة ، التي يريد مدعي اصلاح البشر التمتع بملذاتها بلا مانع ولا رادع . فلا يخجل من قوله « لا يحترم الناس الامومة الا اذا جاءت مرتدية باثواب شرائعهم » ، مصرحاً بان الولد الشرعي والولد النغل سيان في نظره ، ومناقضاً بوقاحة فاحشة الوصية الالهية السادسة وقوانين جميع الحكومات وآراء كل الشعوب حتى المتوحشة . قد اعلن مراراً عديدة احتقاره للزواج وتفضيله

الحب الحر ، الذي هو في الحقيقة حب حيواني محض ، لا حصة فيه للعقل الرشيد وللارادة المتسلطة على الحواس العمياء . قال في « حفّار القبور » ان شبحاً قد تراءى له وسأله : « امتزوج انت ؟ » فاجابه : « نعم ، وزوجتي امرأة حسناء وانا كلف بها . » فقال الشبح : « ما اكثر ذنوبك ومساوئك ! « انما الزواج عبودية الانسان لقوة الاستمرار ؛ فان شئت ان تتحرر ، « فطلق امرأتك وعش خالياً . . . ما حياة المرء بين زوجته واولاده سوى « شقاء اسود مستتر وراء طلاء ابيض . »

ذلك الحب اللحمي الدنس ، الذي يرذله كل ذي عقل سليم وقلب نبيل ، قد اتقح جبران وسماه الهاً ؛ ولا بدع بهذا التأليه فان جبران قد ضحى له بنفسه وجسمه تضحية كاملة . « على باب الهيكل » حاوية التعبير الجلي عن ايمانه بمعبوده وحبه الحار له ، فقد قال : « اي بشري لا يحرق نفسه « بخوراً امام اله (اله العهارة[1]) يسمع ابتهاله ويستجيب صلواته ؟ » في ختام تلك المقالة يقول : « فدخلت الهيكل اذ ذاك وسجدت راكعاً ، مصلياً ، هاتفاً : اجعلني ، يا رب طعاماً للهيب (يعني لهيب الشبق[1]) ؛ اجعلني ، ايها الاله ، مأكلاً للنار المقدسة ! آمين . »

من خص بصلاته وبخوره صنم الخلاعة ، فلا مندوحة له عن الاستخفاف بالصلاة المرفوعة الى عرش الاله الواحد خالق السماء والارض ؛ ذلك ما نراه مراراً في مؤلفات جبران . في « الكلب الحكيم » يقول قط كبير لرهط من مجانسيه : « ايها الاخوة المؤمنون ، الحق اقول لكم ؛ انكم « اذا صليتم بحرارة وايمان مبتهلين ، يُستجاب دعاؤكم وتمطركم السماء فئراناً . » في « الجابرة » يسأل الملحد المتحذلق ذاته ماذا يطرأ على العالم من التقلبات بعد ختام الحرب العالمية الاولى ، فيقول : « هل يركع العابد في هيكل رقصت فيه الشياطين ؟ » لكنه لم يكشف لنا سر ذلك

---

(١) تأويلنا هذا اكيد ومتضح من سياق كلام جبران .

الرقص الغامض .

قـــد جعل الارض ولذاتها الحقيرة فردوساً لنفسه ومرتعاً مُشبعاً لشهواتها ، فلا يطمع بسعـادة ابدية بعد الموت في جوار اله قـد نفى وجوده ووضعه على هامش حياته . اسمعوا ـ وامتنعوا عن الضحك ، اذا استطعتم ـ ما يقوله استاذ الكفر والمادية في رثائه للكاتب اللبناني الشهير جرجي زيدان المتوفى سنة ١٩١٤ : « اذا كان زيدان قـــد انتقل الى احدى السيارات « السابحة في بحر اللانهاية ، فهـو الآن مشغول بنفع سكانها ، منهمك بجمع « معارفها ، مأخوذ بجمال تاريخها ، منصب على درس لغاتها . » ما يشفع بعض الشفاعة عند قارىء ذلك الرأي الغريب ان صاحبه لم يتجاسر على تأكيده ، بل ابداه بصيغة شرطية .

قد صرح جبران في « حفار القبور » تصريحاً كاملاً بماديته المطلقة وتأليهه نفسه وكل اميالها حتى اقبحها ؛ ولـكي يخفف نخس ضميره ، قـــد ادعى ان جميع بني آدم شركاؤه في تلك العبادة الوثنية . في المقالة المذكورة يسأله شبح متراءٍ له : « ما دينك ؟ » فيجيب : « اومن بالله واكرم انبياءه واحب الفضيلة ، ولي رجاء بالآخرة . » فيقول له الشبح : « هذه الفاظ رتبتها « الاجيال الغابرة ، ثم وضعها الاقتباس بين شفتيك . اما الحقيقة المجردة فهي « انك لا تؤمن بغير نفسك ولا تكرم سواهـا ، ولا تهوى غير اميالهـا ، « ولا رجاء لك الا بخلودها . منذ البدء والانسان يعبد نفسه ، ولـكنه يلقبهـا « باسماء مختلفة باختلاف امياله وامانيه ، فتارةً يدعوهـــا البعل ، وطوراً المشتري ، واخرى الله . »

من ابغض الله ـ عز وجل ـ الى حد انـكاره ، وضم الاديان الى العاديّات التي اكل عليها الدهر وشرب ، اقتضى منطقه الـكفري ان يكون عدواً ازرق لرجال الله والدين . والحال ان جبران قـد جاهر مئة مرة بتلك العداوة الظالمة الشرسة ، فلا تفوته فرصة سانحة للطعن في اعضاء الاكليرس

والرهبان ؛ يتعامى عمداً على عين عن قداسة آلاف مؤلفة منهم ، ويعزو اليهم جميعاً اشنع الرذائل والجرائم . يقول في « البحر الاعظم » : « هوذا المتصوف « (يعني الناسك) الذي يقيم في اوهامه صنماً ليعبده ؛ فلندعه وشأنه . »

في « العاصفة » يزور جبران ناسكاً خيالياً ، سماه يوسف الفخري ، فيقول له هذا ما يوضح انه من اتباع زائره ، لا من تلاميذ السيد المسيح : « اما « التنسك ـ وهو قهر الجسد واماتة رغائبه ـ فمسألة لا مكان لها في ديني ، لان « الله قد بنى الاجسام هياكل للارواح ، وعلينا ان نحافظ على هذه الهياكل « لتبقى قوية نظيفة ، لائقة بالالوهية التي تحل فيها . . . طلبت الخلوة لان « نفسي تعبت . . . من الكهان الذين يعظون الناس بما لا يتعظون به « ويطلبون منهم ما لا يطلبونه من نفوسهم . »

كل رؤساء الاديان بلا استثناء هم في نظر ذلك الفيلسوف السامي الفضيلة (؟) خطأة مُراؤون ، يتاجرون بالدين ويخدعون السُذّج لاختلاس احترامهم ومحبتهم وعلى الاخص حصة وافرة من اموالهم ، فيذرف على فسادهم وإضلالهم الدموع السخينة ويقول : « ان كان هناك من يريد ان « يُبدل نوحي بالضحك ، ويحول اشمئزازي الى الانعطاف ، وتطرفي الى « الاعتدال ، فعليه ان يربي بين الشرقيين حاكماً عادلاً ومتشرعاً مستقيماً ، « ورئيس دين يعمل بما يعلّم ، وزوجاً ينظر الى امرأته بالعين التي يرى بها نفسه . »

لم يحظ قط بتلك المشاهدة المعزية لقلبه الطاهر (؟) الدائم الحزن والنوح على آثام اخوته البشر ، ولا سيما رؤساء الاديان ، فيجول في انحاء العالم ، لعله يجد في احدى زواياه الخفية ما يُخمد او يخفف نار لوعته . هيهات ! شتان ما بين مُنى جواب الآفاق الملتهب غيرةً على اصلاح الناس (؟) واصرارهم على الانهماك في قضاء نهماتهم الدنيئة ؟ فيعود بخفي حُنين متأوهاً يائساً ، ويقول في « العبودية » : « دخلت القصور والمعاهد والهياكل ،

« ووقفت حذاء العروش والمذابح والمنابر ، فرأيت العامل عبداً للتاجر ،
« والتاجر عبداً للجندي ، والجندي عبداً للحاكم ، والحاكم عبداً للملك ،
« والملك عبداً للكاهن ، والكاهن عبداً للصنم ، والصنم تراب جبلته
« الشياطين ونصبته فوق رابية من جماجم الاموات . »

واهاً على خيبة رسول التوحيد والفضيلة ! (؟) بما ان رئاسة الاديان مرادفة على رأيه للسقوط الى اسفل دركات الخباثة والغش ، يسأل قارئه في « العهد الجديد » : « أأنت رئيس دين يحوك من سذاجة القوم بُرفيراً « لجسده ، ويصوغ من بساطة قلوبهم تاجاً لرأسه ، ويدعي كره ابليس « ويعيش بخيراته ، ام تقي ورع ، يرى في فضيلة الفرد اساساً لرقي الامة ؟ . . . »

يقول في « يوحنا المجنون » ان هذا الرجل « اذا ما ذهب الى الكنيسة ، « عاد مكتئباً ، لان التعاليم التي يسمعها من على المنابر والمذابح هي غير التي « يقرأها في الانجيل ، وحياة المؤمنين مع رؤسائهم هي غير الحياة الجميلة التي تكلم عنها يسوع الناصري . » زه ! زه ! ما اعظم غيرة جبران على اخراج كل الناس انجيل المسيح الى حيز العمل !

في هذه القصة الخيالية يُظهر بعض الرهبان بمظهر القساوة الفظيعة نحو راع رتعت عجوله بضع ساعات في اراضي ديرهم . رئيسهم يطالب الراعي بثلاثة دنانير تعويضاً عن الضرر ، فيصيح به صاحب القطيع : « هكذا « تتلاعبون بتعاليم هذا الكتاب (يعني الانجيل) ، ايها المراؤون ؟ هكذا « تستخدمون اقدس ما في الحياة لتعميم شرور الحياة . فويل لكم اذ يأتي « ابن البشر ثانيةً ويخرب اديرتكم ويلقي حجارتها في هذا الوادي ، محرقاً « بالنار مذابحكم ورسومكم وتماثيلكم ! . . . تتلذذون بثمار الحقول وخمور « الكروم ، فلم تزوروا مريضاً ولم تتفقدوا سجيناً ، ولم تطعموا جائعاً ، ولم « تؤاووا غريباً ، ولم تعزوا حزيناً . وليتكم تكتفون بما لديكم وتقتنعون بما

« اغتصبتم من جدودنا باحتيالكم ، فانكم تمدون اياديكم كما تمد الافاعي
« رؤوسها ، وتقبضون بشدة على ما وفّرته الارملة من عمل يديها وما ابقاه
الفلاح لايام شيخوخته ! »

قد رذل جبران الله تعالى خيره الاسمى ، الينبوع الوحيد للسعادة في الحياتين الفانية والباقية ، فلا تزال نفسه المفصولة عن مصدر كيانها وغبطتها، فريسة الحزن الدائم . قد باح لنا مراراً بذلك الداء العضال وصاح في « حرقة الشيوخ » :

وغدت ايامنا قيد العذابْ في وجود بالمسرات بخيلْ !

« بالامس » حاوية اقراره الاليم بان ملذات الحب الشهواني اضغاث احلام السعادة ، لا غير :

وسرور الحب وهم لا يطولْ وجمال الحب ظل لا يقيمْ ،
وعهود الحب احلام تزول عندما يستيقظ العقل السليم ! ...
شاخت الروح بجسمي وغدت لا ترى غير خيالات السنينْ ، ...
والتوت مني الاماني وانحنت قبل ان ابلغ حد الاربعين !

يعبّر عن ذلك المعنى عينه في « يوم مولدي » حيث يقول : « في الخمس
« والعشرين سنة قد احببت السعادة مثل جميع البشر ... فكنت استيقظ كل
« يوم واطلبها كما يطلبونها ... ولما فتحت قلبي لكي ارى السعادة ، وجدت
« هناك مرآتها وسريرها وملابسها ، لكنني لم اجدها . »

حين يصحو من نشوة ضلالته وعهارته ، يشعر شعوراً اليماً ببطلان المال والملذات والمجد ، وبعطش نفسه المضني الى سعادة حقيقية ، سامية ، دائمة ، لا يمكنه ادراكها الا بعد اجتيازه نفق الموت المظلم الهائل ؛ « يا نفس » تعبير جميل عن ذلك التوق الشريف :

يا نفس ، ما العيش سوى ليلٍ ، اذا جُنّ ، انتهى
بالفجر ، والفجر يدومْ !

وفي ظما قلبي دليلْ على وجود السلسبيلْ
في جرة الموت الرحومْ !
يا نفس ، ان قال الجهولْ « الروح كالجسم تزولْ ،
وما يزول لا يعودْ » ،
قولي له : « ان الزهورْ تمضي ، ولكن البذورْ
تبقى ، وذا كنه الخلودْ ! »

في فترات الصحو المشار اليها يخامر جبران الشك في صحة فلسفته الموهومة السطحية ، فيلجأ الى الاقرار الذليل بجهله ؛ ذلك ما فعله في « الشهرة » :

كتبت في الجزر سطراً على الرمل ،
اودعته كل روحي مع العقل ؛
وعدت في المد اقرا واستجلي ،
فلم اجد في الشواطي سوى جهلي !

ان كان يعترف بجهله ، فباي حق جعل ذاته فيلسوف جيله واستاذ الشرقيين الاعلى ، فلا يزال ينفخ بضجة مزعجة في بوق اصلاح اضاليلهم ورذائلهم ، ولا سيما انه على يقين من كون اكثرهم يعدونه ـ كما هو في الحقيقة ـ مختل العقل ، مشعوذاً يحاول اغواءهم وافسادهم بنظرياته الطفلية الفارغة ، المستترة بحلى العبارات اللبقة الرنانة والخيالات المبتكرة الجوفاء ؟ قد ابدى هو ذاته في « المخدرات والمباضع » رأي الناس فيه : « هو متطرف « بمبادئه حتى الجنون . هو خيالي يكتب ليفسد اخلاق الناشئة . لو اتبع « الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء جبران في الزواج ، « لتقوضت اركان العائلة وانهدمت مباني الجامعة البشرية ، واصبح هذا العالم « جحيماً وسكانه شياطين ! قهراً عما لاسلوبه الكتابي من الجمال ، فهو من « اعداء الانسانية ! هو فوضوي ، كافر ، ملحد ؛ ونحن ننصح لسكان هذا

« الجبل (يعني لبنان) المبارك بان ينبذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلفاته ، لئلا يعلق « منها شيء على نفوسهم ! قد قرأنا له « الاجنحة المتكسرة » ، فوجدناها السم في الدسم . » ثم يضيف جبران : « هـذا بعض ما يقوله الناس عني ، « وهم مصيبون ، فاني متطرف حتى الجنون . اميل الى الهدم ميلي الى البناء ، « وفي قلبي كره لما يقدسه الناس وحب لما يأبونه . ولو كان بامكاني استئصال « عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم ، لما ترددت دقيقة . »

قـد شهد هو ذاته على جنونه وكفره واكبابه على هـدم صرح الدين المسيحي الذي وُلد ونشأ فيه ، وقد نسي او تناسى ان منشئه الالهي ، سيدنا يسوع المسيح ، قد اسسه على صخرة صماء ، لا تستطيع كسرها قوى الجحيم ، ولو حالفها ملايين من الكفار امثاله . بمؤلفاته المشحونة إضلالاً وافساداً قد قتل آلافاً من النفوس البشرية ، بعدما استأصل منها الايمان المسيحي ، بل الدين على وجه التعميم ؛ وقـد حكم على ذاته بكونه من اعظم المجرمين اذ قال في « العدل » :

وقاتل الجسم مقتـولٌ بفعلتـه ، وقاتل الروح لا تدري به البشرُ !

ان كان الناس قد جهلوا آثامه ، فقد دانه عليها الديّان الرهيب حين خروجه من هذا العالم الفاني .

قد اوضحنا في الصفحات السابقة انـكار جبران لوجود الله تعالى خالق البرايا ومولاها ، وادعاءه ان الانسان من مواليد الكون المـادي وخاضع لنواميسه ، وان الدين والفضيلة والسعادة او التعاسة الابديتين من الاوهام الجديرة بالاستئصال . مع ذلك نعترف بان لذلك الـكافر المـادي ، في بعض مقالاته وقصائده التي لا علاقـة لهـا بالدين وفلسفة الحياة ، افـكاراً سديدة وعواطف نبيلة . « لـكم لبنانكم ولي لبناني » من اجمل نفثات قلمه ؛ يبين فيها على اسلوب شعري فتان التضاد المحزن لوطنيته الحارة بـين جمال جبال لبنان ونفوس اهاليه الذين لم تفسد اخلاقهم الموروثة من الجدود جراثيم التمدن

الكاذب ، وشناعة رذائل فئة اخرى من سكانه ، اعمتهم الاثرة وصلّبت قلوبهم ، فصاروا جلادي مواطنيهم ومدمري صرح رقي بلادهم[1] :

« هم الذين يضجون كالضفادع قائلين « لقد تملصنا من عدونا الطاغية « القديم » ، وعدوهم القديم الطاغية ما برح يختبىء في اجسادهم . . . هم الذين « لا يعرفون المجاعة الا اذا كانت في جيوبهم . فاذا ما التقوا بمن كانت مجاعته « في روحه ، ضحكوا منه وتحولوا عنه قائلين : « ما هذا سوى خيال يسير في « عالم الاخيلة . » هم اولئك العبيد الذين تبدل الايام قيودهم المصدأة بقيود « لامعة ، فيظنون انهم اصبحوا احراراً مطلقين . هؤلاء هم ابناء لبنانكم . « فهل بينكم من يشبه العزم في صخور لبنان ، ام النبل في ارتفاعه ، ام العذوبة « في مائه ، ام العطر في هوائه ؟ هل بينكم من يتجرأ ان يقول « اذا ما مُت ، « تركت وطني افضل قليلاً مما وجدته عندما وُلدت » ؟

في « العهد الجديد » نجد وصفاً شائقاً للصراع الناشب في لبنان بين الانانيين الانتفاعيين ومن يبذلون النفوس والنفائس لاعلاء شأن بلادهم . يسأل جبران احد مواطنيه :

« تعال واخبرني ما انت ومن انت . اسياسي يقول في سره « اريد ان « انتفع من امتي » ، ام غيور متحمس يهمس في نفسه « اتوق الى نفع امتي » ؟ « ان كنت الاول ، فانت نبتة طُفيلية ؛ وان كنت الثاني ، فانت واحة في « صحراء . . . اصُحفي يبيع فكرته ومبدأه في سوق النخاسين ، وينمو « ويترعرع على ما يفرزه الاجتماع من اخبار المصائب والويلات ، ونظير « الشوحة الجائعة لا تهبط الا على الجيف المنتنة ؟ ام معلم واقف على منبر من « منابر المدنية ، يستمد من مآتي الايام مواعظ يلقيها على الناس ، بعد ان « يتعظ بها هو نفسه ؟ ان كنت الاول ، فانت بثور وقروح ؛ وان كنت

---

(١) نصوص جبران التي نوردها من الآن فصاعداً لم نقتبسها كلها كالسابقة من « البدائع والطرائف » بل من عدة مؤلفات .

« الثاني ، فدواء وبلسم . احاكم يتصاغر امام من ولاه ويستصغر من تولى
« عليهم ، فلا يحرك يده الا ليضعها في جيوبهم ، ولا يخطو خطوة الا لمطمع
« له فيهم ؟ ام خادم امين يدير شؤون الشعب ، ويسهر على مصالحه ويسعى
« الى تحقيق امانيه ؟ ان كنت الاول ، فانت زؤان في بيادر الامة ؛ وان
« كنت الثاني ، فانت بركة في اهرائها . »

« احب من الناس العامل » نعدها ايضاً من الفرائد الادبية ، فقد اوضح فيها جبران بكثير من الملاحظات الصائبة والخيالات المبتكرة سمو وظيفة العامل في المجتمع مع حقارة مقامه في عين الناس :

« احب الرجل الذي يتناول الاخشاب الجافة المهملة ، فيصنع منها مهداً
« للاطفال او قيثارة حبلى بالانغام . واحب الرجل الذي يقيم من الصخور
« التماثيل والمنازل والهياكل . . . احب الحداد الذي ما انزل مطرقته على
« سندانه الا وانزل معها قطرة من دمه . واحب الخياط الذي يخيط الاثواب
« باسلاك مشتبكة باسلاك من نور عينيه . واحب النجار الذي لا يدق مسماراً
« الا ودفن معه شيئاً من عزيمته . احب اصابعهم المغموسة بعناصر الارض .
« احب وجوههم بما عليها من سيماء الصبر والتجلد . احب جبهاتهم المشعشعة
بجواهر الاجتهاد . »

« مات اهلي » متأججة بنار وطنية جبران . يقابل بين طمأنينته ورفاهيته في الولايات المتحدة ، ابان الحرب العالمية الاولى ، وما قاساه فيها اهل جبله العزيز من فظائع الجور واهوال المجاعة ، فيرثي لفرط شقائهم باقوال تكاد تثلب الماء وتبكي الجماد :

« لو ثار قومي على حكامهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين ، لقلت ان
« الموت في سبيل الحرية لاشرف من الحياة في ظلال الاستسلام ؛ ومن يعتنق
« الابدية ، والسيف في يده ، كان خالداً بخلود الحق . لو اشتركت امتي
« بحرب الامم وانقرضت على بكرة ابيها ، لقلت : « هي العاصفة الهوجاء ،

« تهصر بعزمها الاغصان الخضراء واليابسة معاً ؛ والموت تحت اقدام
« العواصف لاشرف منه بين ذراعي الشيخوخة . » ولو زُلزلت الارض
« زلزالها وقلبت ظهر بلادي صدراً ، وغمر التراب اهلي واحبائي ، لقلت :
« هي النواميس الخفية تتحرك بمشيئة قوة فوق قوى البشر ؛ فمن الجهالة ان
« نحاول ادراك اسرارها وخفاياها . » ولكن لم يمت اهلي متمردين ، ولا
« هلكوا محاربين ، ولا زعزع الزلزال بلادهم فماتوا مستسلمين . مات اهلي
« على الصليب ! ماتوا واكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب ، وعيونهم
« محدقة بسواد الفضاء ! ماتوا صامتين ، لان آذان البشرية قد اغلقت دون
« صراخهم ! ماتوا لانهم لم يحبوا اعداءهم كالجبناء ولم يكرهوا محبيهم
« كالجاحدين ! ماتوا لانهم لم يكونوا مجرمين ! ماتوا لانهم لم يظلموا الظالمين !
« ماتوا لانهم كانوا مسالمين ! ماتوا جوعاً في الارض التي تدر لبناً وعسلاً ! »

قد ذكرنا ببعض الاسهاب اربعة نموذجات من اجمل ما كتبه جبران ، بيد ان نزاهة النقد تضطرنا الى التصريح بان نظريته المادية الجوفاء في نشأة الانسان وغاية حياته ، ومن جهة اخرى خلوه من عقل كامل الرشاد وارادة كافية القوة لكبح جماح مخيلته القديرة وشعوره الدائم الجيشان ، قد افضيا به الى تأليف عدد كبير من المقالات والقصائد العادمة الجوهر ، المشحونة بانواع السفسطات والاضاليل ؛ فهي ثرثرة فارغة ، رنانة كالطبول ، لا سداد فيها ولا تلاحم منطقي ، موشّاة بمئات من الخيالات التي لا ينخدع بالوانها الساطعة الا ذوو الثقافة السطحية . يسهل علينا ايراد عشرات الامثال على تلك المصنفات التي سداها ولحمتها الخطل والهذيان ، بحيث يصعب على قارئها عدم الايقان ان صاحبها من غير المجانين او الشيوخ الخرفين ، بيد ان ضيق المقام يقسرنا على الاكتفاء ببعض الامثلة ، وهي برض من عد .

في « صراخ القبور » يحاول ببراهين اوهى من خيط العنكبوت ان يثبت ان الحكام لا تجوز لهم معاقبة المجرمين ، وان الشريعة التي تقتضي

ذلك القصاص العادل ، وهم محض :

« ما هي الشريعة ؟ من رآها نازلة مع نور الشمس من اعماق السماء ؟
« واي بشري رأى قلب الله فعلم مشيئته في البشر ؟ وفي اي جيل من الاجيال
« سار الملائكة بين الناس قائلين : « احرموا الضعفاء نور الحياة وأفنوا
« الساقطين بحد السيف ، ودوسوا الخطأة باقدام من حديد ؟ »

زه زه ! ما اعمق فلسفة جبران الاجتماعية وما ارق شفقته البلهاء على القتلة واللصوص والزناة وسائر الاشرار ! على رأيه يجب ان تطلق لهم الحكومات الحرية ليهتضموا ، ما طاب لهم ، اقدس حقوق الناس . ولا شك عندنا في انه يبادر الى شكايتهم الى الشرطة والمحكمة اذا تعدوا على حياته او ماله او شرفه .

« كلنا يصلي » هذيان محض ، فان جبران يحدد الصلاة تحديداً خيالياً كاذباً ، يأباه المسيحي ، فضلاً عن اليهودي والمسلم والوثني ؛ وكل تحذلقه وإجهاد مخيلته لتأييد نظريته في الصلاة دليل واضح على كفره وسخافته :

« الصلاة في ملتي كل رغبة في البقاء ، وكل شوق الى الحياة ، وكل
« عزم محدود ينزع الى عزم غير محدود . فما اول صرخة تخرج من صدر
« الطفل سوى صلاة الغيبوبة في مسمع اليقظة ، وما خجل الصبية ليلة عرسها
« سوى صلاة يرفعها الامل المستوحد نحو ذلك الكيان العلوي المزدوج الذي
« ندعوه الامومة . . . الازهار تصلي قبل ان ينبهها الربيع من رقادها .
« والاشجار تصلي ، والخريف ينثر اوراقها الصفراء على اديم الارض . . .
« الطير يصلي قبل التغريد وبعده . والحيوان يصلي ساعياً الى القوت . . .
« الجبال تصلي واشعة الغروب تودعها ، والاودية تصلي وضباب المساء
« يغمرها . الصحراء تصلي ... والعقبات تصلي ... والكواكب تصلي ...
« والهاوية تصلي . . . وليست الصلاة وظيفة من وظائف المتمذهبين (يعني
« جبران المتدينين) ، وليست بتلك الآيات القديمة المرتبة ، يستظهرها الناس

« ويكررونها متوهمين انهم يحصلون بواسطتها على عطف الله وبركاته . . . »

« على باب الهيكل » رواية خيالية ، يسأل فيها جبران المارين به عن جوهر الحب ، فيحدده عشرة منهم تحديدات ليست سوى كلمات فارغة مصفوفة وخيالات جوفاء منمقة . فلا يوضح بطلانها الكاتب المدعي انه من اعظم فلاسفة عصره ، بل يختم مقالته بحماقة تفوق بلاهة الذين استفهمهم :

« ولما جاء المساء سكنت حركة العابرين ، وسمعت صوتاً آتياً من « داخل الهيكل يقول : « الحياة نصفان ، نصف متجلد ونصف ملتهب ؛ فالحب هو النصف الملتهب . . . »

ذلك التحديد الصادر من الهيكل يُضحك الثكلى ، وقد حاول جبران ايضاحه في « المحبة » ، فعجز عن ذلك وبلغ من الهراء شأواً لا يجاريه فيه مُجار . يُسيل قلمه وابلاً من التعابير المبهمة في وصف مفاعيل المحبة ، بدون ان يُفهمنا كنهها :

« المحبة تضمكم الى قلبها كاغمار الحنطة ، وتدرسكم على بيادرها لكي « تُظهر عريكم ، وتغربلكم لكي تحرركم من قشوركم ، وتطحنكم لكي « تجعلكم انقياء كالثلج ، وتعجنكم بدموعها حتى تلينوا ، ثم تُعدكم لنارها « المقدسة ، لكي تصيروا خبزاً مقدساً يقدم على مائدة الرب المقدسة . »

يا للعجب ! كيف ابدى ايمانه بالرب ـ وقد فعل ذلك مراراً ـ بعدما اضجرنا بتكرير مجاهرته بماديته المطلقة !

من اوضح الامثال على عبث جبران في معالجة اسمى المواضيع ، وشعوذته المضحكة بالخيالات الفارغة الطنانة كالنقود الزائفة ، ما كتبه عن «الكمال» :

« يسير الانسان نحو الكمال عندما يشعر بانه الفضاء ولا حد له ، وهو « هو البحر بدون شواطىء ، وانه النار المتأججة ابداً والنور الساطع ابداً ، « والارياح اذا هبت او اذا سكنت ، والسُحب اذا ابرقت وارعدت « وامطرت ، والجداول اذا ترنمت او ناحت ، والاشجار اذا ازهرت في

« الربيع او تجردت في الخريف ، والجبـــال اذا تعـالت ، والاودية اذا
« انخفضت ، والحقول اذا اخصبت او اجدبت . اذا شعر الانسان بكل هذه
« الامور ، بلغ منتصف طريق الكمال . اما اذا شاء بلوغ محجة الكمال ،
« فعليه إن شعر بكيانه ، ان يشعر بانـه الطفل المتكل على امـه ، والشيخ
« المسؤول عن عياله ، والشاب الضائع بين امانيه وغرامـه ، والكهل الذي
« يصارع ماضيه ومستقبله ، والعابد في صومعته ، والمجرم في سجنه ، والعـالم
« بين كتبه واوراقه ، والجاهل بين ظلمة ليله وظلمة نهاره ، والراهبـة بين
« ازهار ايمانها واشواك وحشتها ، والمومس بين انياب ضعفها ومخالب حاجتها ،
« والفقير بين مرارته وامتثاله ، والغني بين مطامعه واذعانه ، والشاعر بـين
« ضباب أمسائه وشعاع اسحاره . اذا استطاع الانسان ان يختبر ويعلم جميع
« هذه الامور ، يصل الى الكمال ويصير ظلاً من اظلال الله . »

« يا صاحبي » على هذه الشاكلة ؛ سلسلة افكار وخيالات ليس فيهـا ذرة من الحقيقة والطبيعية ، فهي اقوال معتوه يقر فيها بعتاهيته :

« يا صاحبي ، حـين تصعد انت الى جنتك ، انحدر انا الى جحيمي .
« وحتى في جحيمي اسمعك تناديني من وراء الهاوية الهائلة التي تفصلنا قائلاً
« يا صاحبي ، يا رفيقي » ، فاجيبك هاتفاً « يا رفيقي ، يا صاحبي » ، لاني اضن
« بجحيمي من ان يقع عليه بصرك ، واخشى من لهيبه ان يلتهم النور في
« عينيك ، ومن دخانه ان يسد منخريك . . . »

في خاتمة هذه المقالة يشهد جبران على ذاته بالجنون ، ولا يصعب علينا تصديقه :

« يا صاحبي ، انت صديق وحكيم ومترو ؛ لا بل انت كامل . وانا
« احاول ان اخاطبك بحكمة وترو ، غير اني مجنون منجذب عن العالم الذي
« تقطنه انت الى عالم غريب وبعيد . لكنني استر عنك جنوني ، لانني افضل
ان اكون مجنوناً وحدي . »

قد ابدينا رأينا في المواضيع التي عالجها جبران ، وخلاصته ان الجواهر بينها قليلة بين اكوام من الخرز الزاهي الالوان بقدر حقارة قيمته . اما تعبير الكاتب فمن اكبر مميزاته وفرة الخيالات بدرجة لا نكاد نجدها في غيره . مراراً عديدة نراها مزدانة بالابتكار والطبيعية ؛ ها كم بعض نموذجات منها في « العهد الجديد » : « اذا ما انشد الربيع اغنيته ، بعث مصروع الشتاء » ، « صُحفي يبيع فكرته ومبدأه في سوق النخاسين » ، « انت زؤان في بيادر الامة » ، « بلادة مزركشة » ، « نفس صحت من مخدرات محيطها » ، « هبط الى حفرة النسيان » ، « ابناء الامس يمشون في جنازة العهد الذي وجدهم واوجدوه » ، « ابناء الغد نادتهم الحياة فاتبعوها » ، « نواة شقت قشرتها بعزم لبابها » .

بيد ان مئات من الخيالات مشينة بالجوف او التصنع ، فهي عادمة المعنى المعقول او بعيدة عن الطبيعية بُعد الثريا عن الثرى . قد ضربنا امثلة عديدة على الجوفاء منها ؛ ها كم غيرها على التكلف : « امرأة واقفة وقوف الظل بجانب الحقيقة » ، « لو لامست شعلات تنهيداتي اشجار ذلك الحقل ، لتحركت وتركت اماكنها وزحفت كتائب كتائب » ، « إبتسمي كما يبتسم الذهب » ، « الالوان هي ساحرة تُذيب الجواهر » ، « ذبول زهرة نبتت فوق الغيوم » .

التضاد غريب جداً بين كثرة خيالات جبران ، التي تُحصى بالآلاف ، وقلة وضوح انشائه . اقواله في عشرات مقالات اشبه بالالغاز الغامضة منها بكلام جلي المعنى ؛ وقد اوضحنا في الصفحات السابقة سبب ذلك الابهام الذي لم يفقه فيه احد ادبائنا المعاصرين ، وهو من اكبر عيوبه .

الحشو ايضاً غير يسير تحت قلمه ؛ دونكم ما وجدناه منه في « الوحدة والانفراد » ، وهي مقالة في صفحتين ونصف قد شين عنوانها بذلك العيب : « المراكب والزوارق » ، « الاساطيل والعمارات » ، « الى المعاقل الحصينة

والى المستحكمات المنيعة » ، « مجهولة باسرارها وخفاياها » ، « النجوم والكواكب » ، « الظواهر والمظاهر » .

اما الاغلاط اللغوية فانها تُعد بالمئات ، فنكتفي بذكر شيء منها مع بيان التعبير العربي المحض بين قوسين : بل ونسي (بل نسي) ، منذ فجر شبابي وانا ارى طيف امرأة (يجب حذف الواو) ، لا ادري ما اذا كنت بشراً (لا ادري هل انا بشر) ، اتفرسك (اتفرس فيك) ، احدّق به (المعنى يقتضي : احدق اليه) ، يحيك (يحوك بمعنى حياكة النسيج) ، مخر البحرَ (مخر فيه) ، قش (تبن او مَوص) ، ارتاح (المقصود استراح) ، تنهيد (تنهد) .

بعد ايضاحنا المفصل لخطورة شوائب المعاني والمباني في مؤلفات جبران ، لا يسعنا البتة ان نعده من نوابغ ادبائنا المعاصرين ، مهما كثرت نفثات يراعه ومهما راع ذوي الثقافة الدنيا وشي آلاف خيالاته ، فان جُل بضاعته الادبية من نوع اللؤلؤ البهرج ، لا من الدرر اليتيمة .

راجي الراعي

في « قطرات ندى »

يخرج كل يوم من مطابعنا قناطير من الكتب والصحف التافهة ، التي ليست سوى ورق مسوَّد بالحبر ؛ ويا ليته بقي على بياضه الناصع ! نقلب صفحاتها بشهوة الجائع ، فلا نكاد نعثر فيها على فكر منير او خيال مطرب او عاطفة منعشة . اما « قطرات ندى » التي رأت النور في نيويرك سنة ١٩٢٥ ، فقد جاءت في كثير من عناصرها المتنوعة مطابقة لاسمها الشعري ، مماثلة لاخواتها في الطبيعة ، ينعكس في صفائها ضياء فكر ثاقب وبهاء مخيلة مبتكرة مع لهيب شعور نبيل . في النصف الاول منها مقالات عديدة لا يتجاوز

اكثرها نحو خمس صفحات ، وهي من ثلاثة انواع . الاول يحتوي دروساً نفسية ، دقيقة التحليل ، جديدة الموضوع ، قلما تصف الحياة الشرقية العربية ، فان مادة معظمها الروح البشرية العامة .

في « الاعمى » يغبط راجي من اغمض العمى عينيه عن مشاهد الدنيا الباطلة ، فأحد نظر نفسه الى باطنها ، ذلك العالم الروحي الحافل بانواع المجالي الرائعة .

في « النشاط الضائع » يتأوه على آلاف الجهود الاليمة العقيمة التي يبذلها ملايين من بني آدم ، الفجار ، الملاكمون ، المقامرون ، السجناء وغيرهم ، فيصيح بملء الاسى والرأفة انها كلها قوى ضائعة ؛ لو بُذلت لخير الفرد والمجتمع ، لكان كل منهما ارقى جداً منه الآن .

« عشرة ابطال يقبّلونني في جبيني » تمثل لنا بخيالات قشيبة فرط شقاء النوابغ ، الى حد حرمانهم الحاجيات ، وذلك لعمى اخوتهم البشر او تعاميهم عن عبقريتهم وخدمهم الجليلة . فينحي عليهم المؤلف باللائمة هاتفاً : « ايها « الناس ، ان ابطالكم يموتون جوعاً وبرداً وعرياً وهزءاً ، وهم عناوين امجادكم ومفاخر تواريخكم ! »

في « احد المنتحرين » يبين لمقترف ذلك الاثم الفظيع فيلولة رأيه في معنى الحياة وغايتها ، ويرفع النقاب عن الشهوات السافلة التي تطوع لحمل نيرها الباهظ ، فساقته مرغماً الى مهواة اليأس ، ثم يجود عليه بهذه النصيحة الرشيدة : « انت تنجو من نفسك ، لا من الحياة ؛ فاصلح نفسك تُصلح « حياتك . . . اذا كان لا بد لك من الانتحار ، فمت على الاقل شهيداً في سبيل مبدإ كبير او امة مظلومة ! »

« الناس رجلان ، رجل رأسه في جيبه ورجل رأسه في قلبه » نرى في عنوانها انموذجاً من خيالات راجي ، التي كثر ما تزدان بالجدة والطبيعية . في هذه المقالة يفصّل لنا مآسي الحياة العديدة الفاجعة ، ثم يحرض شهودها

على الرحمة ، لا القلبية فقط فانها باطلة ، بل العملية المحركة كل ساكن لتفريج الكروب ، فيغدو الانسان بتلك التضحية الشريفة رجلاً رأسه في قلبه ، لا انانياً رأسه في جيبه .

« حديث ذو شجون » يخاطب به الراعي احد الاغنياء مصرحاً بانه لا بد ان يكون قد اثرى على سبيل الوراثة او الاتفاق او الجريمة او الزواج او الجهد الشخصي . ثم يجاهره بانه لا يحق له حفظ ماله الا اذا اكتسبه بالواسطة الاخيرة ، ويؤكد في الختام ان « قطرات الجبين قبل ان تأتي بالثروة الضخمة » . لا يختلف اثنان في كون هذه النظرية موصومة بمبالغة فاحشة ، وان انطوت على شيء من الحقيقة الحرية بان يُبرزها الكاتب منزهةً عن شوائب الغلو ؛ والا لما رضي هو ذاته ان يعمل بها على علاتها .

نرى مثل ذلك الشطط في « حزب الشباب » ، حيث يلخص جوابه لهذا السؤال الموجه الى مواطنيه : « متى نعظم الاقدام (يعني إقدام الشبان) « قبل الحكمة (يقصد بها حكمة الكهول والشيوخ) ، لان الحكمة سلبية عقيمة ، والاقدام ايجابي مُنتج ؟ » خير الامور اوسطها ؛ الصواب ، في هذا الشأن ، على رأينا ، استثمار إقدام الفتيان مع كبح جماح ما قد يفسده من التهور بفطنة رجال اكبر سناً واوفر خبرةً .

في « تلك الحكاية القديمة » يقول ان الحب ـ يعني الحب الشهواني ـ هو ثورة القلب المحصور ردحاً من الزمان في سجن الحكمة والفضيلة ، او بعبارة اخرى « هو عودة قهرية الى الطبيعة التي هجرتها طويلاً وهي لا تُقهر . » لا نوافق الراعي اصلاً على ذلك السلطان القسري الذي ينسبه الى الغريزة الجنسية ، وان كانت اشد الغرائز النفسية حروناً وتمرداً على سيطرة العقل السديد والارادة الصالحة . كل انسان لم يطفىء الانهماك في العهارة آخر جذوة من ضميره ، موقن اتم الايقان بمقدرته على مقاومة الشبق والانتصار عليه . فاذا استسلم اليه كجندي جبان يُلقي سلاحه ، بكته

ضميره تبكيتاً اليماً على سفالته وعبوديته للحواس . لا مراء في كون صاحب « القطرات » يواطئنا على وجوب سيادة قوى النفس العقلية على ثورة الغرائز العمياء الهوجاء ، فانه يرشد قارئه هذا الارشاد العسجدي : « خير لك ان « تطلق تلك القوة (يعني قوة العواطف الجامحة) في سبيل غاية سامية ، من « ان تطلقها بين عيني المرأة ، فتذيبها بدموعها في ساعة قصيرة ، لا تلبث ان « تزول ، دون ان تُبقي لها اثراً لا يزول ؛ واللذة الحقيقية انما هي في « الخلود ، لا في الموجود ، في النجمة ، لا في الدمعة ! » التناقض بين ذلك النصح النبيل وتحديد الكاتب للحب الحيواني واضح لكل ذو عينين .

في « الشاعر » تتجلى امامنا المهمة السامية التي يقوم بها نحو بني قومه ناظم الشعر الحقيقي : « يضيء طريقك بصاعقته ان تسكعت في الظلمة ، « يحارب فيك الحيوانية كلما غزتك بجيوشها الكثيفة ، يطير بك الى الافق كلما ازعجتك الارض . »

« بيني وبين فتاة » على شكل حديث ؛ تقترح احدى الصبايا على الراعي ان يتزوج بها ، فيفتح عينيها بتواضع على ما التصق به من العاهات والوصمات ، وهي لا تزال مصرة على اتخاذه شريكاً لحياتها . ثم يتملص من الحاحها المفرط مصرحاً لها « بان الزواج الشمعي (يعني الديني) بدعة بشرية لا تعرفها « الطبيعة ، التي لها من انوارها ما يغنيها عن الشموع . » لا يمكن تأويل هذا الكلام بسوى مجاهرة الكاتب باستحسانه المبدأ السافل الذي حاول أتباعه في مشارق الارض ومغاربها ان يبرقعوا رجاسته باسم الحب الحر ، فلم تجُز حيلتهم على احد العقلاء الصُلاح ، فنعتوه جميعهم بالفسق الحيواني . اننا لنستغرب جداً وجود هذه الحمأة المنتنة بين « قطرات ندى » .

« مسكينُ الحق » يفصّل فيها راجي مظاهر الخداع والظلم في المحاكم ، ثم يصف العلاج لهذا الوباء القتّال : « الحق لا يفوز في القضاء بسلاح الشريعة « والقانون ، فهو سلاح ضعيف ؛ وانما يفوز بسلاح التربية الاجتماعية اذا

غلت قدرها ونضجت في صدر الامة . »

النوع الثاني من مقالات راجي مولود من الاول حيث عرض لنا كثيراً من رذائل البشر ؛ فلا بدع بكونه مفعماً بالتشاؤم بالحياة والشك في فائدتها وجدارتها بان تُعاش . هذه الافكار الدكناء الفاسدة هي لحمة « ماذا قال الجنين ؟ » وسداها . في « المرآة » ينهى الراعي اخوته البشر عن امعان النظر في عيوبهم ، ليأسه الكامل من قدرتهم على اصلاحها ؛ فيصيح بالمرآة ، وهي رمز واضح لفحص الضمير : « ان البشر ليسوا بحيث يجوز ان يروا « وجوههم ؛ انهم معتلون مشوهون ، يتألمون . فما لك وازعاجهم ؟ دعيهم في ويلاتهم ونكبتهم ! »

في « العام الجديد » يستثقل ظل السنة الآتية الينا من مراحم الله ، فيود لو انها ترجع على اعقابها الى الديار الابدية ، لايقانه انها لا تحمل الى الناس سوى انواع الشرور والنكبات . ثم يُفرغ كنانة لومه المر على الدهر : « اما تعب الزمان في تمثيله ؟ اما سئم دوره الواحد ، يعيده للنظّارة في كل « مكان ؟ . . . تتعاقب الاعوام والغريزة البشرية واحدة . »

لا بدع بان يرى الكاتب رأيه هذا المتشائم الفائل في الحياة ، وهو يرذل الزواج الحاوي التضحيات المثمرة والافراح الطاهرة ، ويطلق العنان للاثرة ولذاتها اللحمية التي لا ينجم عنها سوى نضوب ينبوع الحياة والسرور . فما احرانا بان نعيد له نصحه لمحاول الانتحار تخلصاً من رزايا الدنيا : « أصلح نفسك تُصلح حياتك ! »

النوع الثالث من « قطرات ندى » هو الوطني المنحصر في مقالتين . الاولى هي « نحن والقائد سراي[1] » يمكن اختصارها في قول الراعي : « ان عصبة الامم اعتبرت ان جراثيم تركية لا تزال في دمائنا ؛ فهي ، رحمةً « بنا ، الى ان تزول تلك الجراثيم ، اقامت علينا سراي واعوانه . فنحن كلما

---

(١) موريس سراي Sarrail (+ ١٩٢٩) مفوض فرنسة في لبنان وسورية .

« اجتهدنا في قتل تلك الجراثيم ، خطونا نحو استقلالنا التام الحقيقي . »
ثم يشير بابادة اهول تلك الميكروبات : « المحسوبية » كما يقول ، الحزبية الشخصية ، الامية ، المهاجرة ، قصف الاغنياء المفرط واهمال الاقتصاديات .

المقالة الوطنية الثانية هي « عودة المهاجرين ونداء الى المهاجرين » . يبين فيها حنين المهاجر الاليم الى وطنه ، ويصرح بانه لا يعود اليه خشية ألا يجد فيه ضمانة كافية لحياته ، حريته ، امواله وسائر حقوقه . مع ذلك يحرضه على استثمار المواهب التي اكتسبها في المهجر لاصلاح بلاده وانماء مواردها ، فانه اجدر من غيره بتلك المأثرة الجليلة . خلاصة المقالة في هذه الفتوى : « عودة المهاجرين افضل علاج لعلتنا القاتلة ، فمعناها ان نصف البلاد اعيد الى نصفها الآخر . »

تلك محتويات القسم الاول من « قطرات ندى » فضلاً عن مقالة فكاهية محضة في صدر الكتاب ، وعنوانها « كيف القيتُ الطبعة الاولى من كتابي في البحر » . اما القسم الثاني فمؤلف من حكم او نكات لا يتجاوز اكثرها سطراً او سطرين او ثلاثة ، لا تلاحم بينها ، بل تتوارد على الصفحات تواردها في قريحة الراعي .

نجد في هذا المتحف الغريب افكاراً عميقة صائبة ، مثل هذه :
« رجل الساعة ليس بالرجل ، وانما الرجل الحقيقي هو رجل الساعات ،
« رجل الاجيال ، مهما تنوعت — كلما ارتقت الناس قلت الزعامات في العالم —
« ينام الانسان والحيوانية فيه ابداً سهرانة يقظانة — الحسد نار تأكل
« نفسها — كم نابغ لم يعلن نبوغه للناس الا نفير الموت ! — لا يصطلي المغرمون
« الا بنيران اكبادهم — كلما التف المفكر كتاباً مثل دور الخالق . »

بعض هذه الافكار مصبوغ بتشاؤم صاحبها ، وكثيراً ما يُنقص سدادها او يذهب به ، كما نرى في هذه الامثلة : « اذا شئت ان تبكي ، فاذهب
« الى الشرق — لا يستريح الحب اللاهث عياءً الا في الزواج ، ولكنها

« راحة الموت — يجب ان يُظلم النابغ لكي يظهر نبوغه — البياض في
« رأسك انما هو فجر حياتك التي تعاقبت لياليها ، فكانت ليلاً واحداً
« مستمراً — الجنين وليد الحاجة التي اتخذت لها مظهر الحب — التضحية
« هي المرأة الوحيدة الناظرة الى الغد دون سائر النساء . »

نعثر ايضاً بين آونة واخرى على خيالات محضة ، منها المبتكر الطبيعي ومنها الغريب المستهجن ؛ من الصنف الثاني « الضباب فكرة غمضت في دماغ الطبيعة » و « الفجر سيف يخرج من غمد الليل » .

يتضح من التحليلات السابقة والامثلة المذكورة من انشاء الراعي ان كتابه الشديد التنوع في مقالاته واقواله المنفردة ، هو خلاصة ملاحظات واختبارات كثيرة ، وثمرة صدر جائش بالافكار والعواطف . اجل ان بعض آرائه قد طاش سهمها ، على ان كثيراً منها سديد نبيل ، من شأنه ان يسمو بنفس القارىء الى المثل العليا في الحياة ، ولو كان تشاؤم الكاتب يحول دون امله ان يصيب ذلك المرمى .

اما تعبير صاحب « قطرات ندى » فان اكثره يضارعها في الصفاء والشفوف ، يزيد جماله الانسجام مع وفرة الخيالات المبتكرة الى حد قلما نصادفه عند الشعراء المعاصرين ، فيخيَّل للمطالع ان الفكرة لا تنبثق من روح الراعي الا متشحة بذلك الوشي المتنوع الرسوم والالوان ، وإن شابه احياناً شيء من التصنع والغرابة مع بعض الاسقاط . فلا مندوحة لنا عن الاقرار على وجه الاجمال بان هذا الكتاب كثير الحسنات ، قليل السيئات ، خليق بان يُحصى بين الذ ثمار نثرنا في القرن العشرين .

سلمى صائغ

في « النسمات »

لا مراء في ان سلمى صائغ ، الكاتبة اللبنانية المولودة في بيروت سنة ١٨٨٩ ، من طليعة اديباتنا العصريات اللواتي نفضن عن انشائهن اسمال التقليد والابتذال ، ناحيات بكل الجسارة منحى الابتكار في المعاني والمباني ، فخدمن بذلك ادبنا الناهض خدمة تسجلها لهن الاجيال الآتية باخص الشكر والافتخار . قد نشرت سلمى مقالات عديدة ، شديدة التنوع ، في عدة صُحف ، ولا سيما المجلات النسائية المتكاثرة في عصرنا ، فتجد نفثات قلمها السيال في « الحسناء ، مينرفا ، الفجر ، الخدر ، المرأة ، البرق ، المعرض ، « السائح ، الشعب ، لسان الحال ، مجلة سركيس » ، وتقضي العجب من سعة اطلاعها وسداد آرائها في عدة شؤون ، بل تضحي مفتوناً برقة عواطفها النبيلة ولباقة انشائها البديع .

قد عُني مواطنها الشهير جرجي باز ، الجدير كل الجدارة بلقب نصير المرأة اللبنانية ولا سيما الاديبة ، بضم شتات كثير من مقالاتها ، فاضاف الى خدمه العديدة لادبنا النسائي مأثرة طريفة يستحق اوفر الثناء عليها . وقد احسن باطلاقه على تلك المجموعة الصادرة في بيروت من نحو ثلاثين عاماً ، اسم « النسمات » ، فانه كامل الموافقة للمسمى . وايم الحق ليست مقالات سلمى سوى انفاس روحها العالية الرقيقة ، بل خفقات قلبها الذائب حناناً على آلام البشر وبلاياهم .

تلك العاطفة متأصلة في اعماق فؤادها بدرجة نادرة ممتازة ، وقد القت نارها الوهاجة على معظم مقالات « النسمات » ، بل ولدت كثيراً منها . قالت صاحبتها في « اعطوا يعطكم الله » : « نفسي ، منذ وُجدت ، تبكي على

الجائعين والمتروكين والمحرومين » ، ويؤكد صحة ذلك التصريح رثاؤها المتواتر لانواع الكوارث التي يئن آلاف بني آدم تحت ثقل وطأتها . في « اغاني الجنود » تُطنب بعين دامعة وقلب كسير في وصف بعض التضحيات العظيمة التي جاد بها طوعاً جنود الحرب العالمية الاولى على اوطانهم . ها كم شيئاً من الشكوى المرة التي جعلتها على لسان الجندي الفتى : « انا شاب « جُرِرت الى الخنادق وكُلفت حصد النفوس ، فحصدت وحصدت « وحصدت ! حصدت حقولاً اغراسها شبان وفتيان ! حصدت شبيبة قوية ، « نشيطة ، منظمة ، عالمة ، متفننة ! كل ما في اوربة من الجمال والقوة والعلم « والفن ، كله مر امام الآلة التي حصدت ولم ترحم ! حصدت البستان تلو « البستان تلو البستان ! كأنه سباق بين الامهات ومعامل كروب (Krupp)[1] ؛ « هذه ترمي الوف القنابل ، وتلك حبات القلوب ! حصدت وحصدت حتى « ذابت حشاشتي من منظر الدم ، فصرخت : رباه ، اما للجور قاهر ؟ « ارجعوني الى بيتي ، فارى عروسي الصبية وطفلي الصغير ! هل عرف « رجل قبل اليوم معنى ابتسامة المرأة وقبلة الولد في الصباح والمساء ؟ »

اهوال الهيجاء وسيول الدماء والدموع التي تُفيضها ذات وقع شديد حتى في القلوب العادمة الرقة ؛ اما قلب سلمى فانه يذوب توجعاً على كل ضروب آلام البشر ، ولو خفيت عن انظار العامة او لم تحُك في صدورهم . في « مي تتنهد » تصف لنا الكاتبة طفلة مرحة ، اسمها مي ، شرعت تذوق مرارة الحياة اذ رأت صديقةً لامها محمولة في نعشها الى القبر ، وعلى الاخص حين بُليت باخت حديثة الميلاد ، كادت تستأثر بعناية والدتها ، فصاحت قانطةً : « يا لذلي ! ليس لي ام ! »

تشفق سلمى على « الغريب » ، وقد نعتت هكذا الزوج التاعس الذي

---

(١) الفرد كروب (+ ١٨٨٧) الالماني كان من نوابغ صناعة المعادن ، وقد اشتهر بصنع مدافع من الفولاذ دعيت باسمه .

فقد محبة امرأته . اعمتها الاثرة عن تقدير اتعابه وتضحياته لترفيه عيشتها ، فمالت عنه الى من يفوقه بمزاياه المادية او الادبية ، وهو يتأوه قائلاً : « سرعان ما حلّق الحب بعيداً ! سرعان ما اخذت مكاني مشاغل الحياة العالمية « العوجاء ! فالعطور والاثواب والقبعات ، حتى الاحذية ، اقرب اليها مني ! « ولكل من الرجال اسبقية والمعية وافضلية : هذا نبيل ، وهذا موسيقي ، « وهذا شاعر . ذاك يتكلم بثلاث لغات ، وذاك له سيارة ، وهؤلاء يلعبون « البوكر (poker) لعب الكبار ، واولئك رجال صالونات ، وهذان يرقصان « بلباقة ورشاقة . وانا وحدي لا فضيلة لي اغبط عليها ولا مزية احب من اجلها ! »

« الغريبان » حاوية مثل ذلك التصوير لتجافي روحين مع تقارب جسديهما . نجد هنا فتاة لبنانية هام بها شاب مصري ذو ثروة وافرة وبراعة في فن النحت ، فتزوج بها وما لبث ان نبذها نبذ النواة ، بعدما تيمه حب كثيرات غيرها : « لمَ هذا الجفاء ؟ لمَ هذا السكوت القاتل والبرودة الخرساء « والنظرات المظلمة التي تقع على كل شيء وتهتم بكل شيء الا بها . عبثاً جربت « ان تعلم ، فلم تعلم سوى ان الرجل الذي اختارته رفيقاً وصديقاً وركناً « تستند اليه، نبذها في زاوية بيته كاحدى الاثريات التي جاء بها من الشرق ! »

رثت سلمى ايضاً لشقاء الحياة الزواجية في « حكاية هيفاء الديرانية » التي هاجر بعلها الى اميركة بُعيد اقترانه بها ، وقد ترك لها ابناً صغيراً . فلم تمض بضعة اعوام حتى انقطعت عنها اخباره ودراهمه ، ثم عرفت بلوعة فادحة انه قد تزوج بغيرها وله عدة اولاد لن يدعوها امهم !

« تذكارات يتيمة » تصور لنا نوعاً آخر من آفات الزواج : فتاة فُجعت بامها ، فعقد ابوها زواجاً ثانياً ، ثم اراد ان يتخلص من هم اعالتها ، فزوجها قسراً برجل غني من ابناء جيله ، قد عاد من المهجر الى وطنه لبنان . فدمي قلب اليتيمة الحديث الجرح ، وزاد آلامه اضطرارها الى هجرة

جبلها المحبوب بصحبة زوج لم تختره ولا تهواه !

تلك مشاهد البؤس التي مثلتها سلمى امام عيوننا تمثيلاً حياً آخذاً بمجامع القلوب . لها ايضاً في « النسمات » عدة مقالات لا تصف فيها شقاء الناس مباشرةً ، على انها ذات صبغة حزن تُشبعها ، لان نظر سلمى يميل ميلاً غريزياً الى مجالي التعاسة في كل ما يقع عليه من حوادث الحياة . هكذا وصفت لنا « الامومة » وصفاً يثير فينا الاسى الشديد في اكثر اجزائه . تخاطب بنتها الطفلة صائحةً بها : « يا لبلاغتك عندما تقيدين عنقي بذراعيك وتسأليني : « امي ، لماذا انت نحيلة وصفراء ؟ لماذا لا تبسمين ؟ امي تعبة « لانك تشتغلين . ثم ينتفض جسمك ويختلج فؤادك وترتجف شفتاك « وتسيل دموعك ! آه ! كيف تجثو نفسي عند قدميك متوسلةً اليك ان « تكفي عن البكاء ! وكيف اود لو ادخل ذاكرتك الغضة ، فازيل منها صور « البؤس واضع مكانها صور الهناء ! كم تتسابق دموعي حناناً لحنانك وحباً « لحبك ، فاضمك اليَّ حاسبةً انني اضم كنوز الارض ! . . . تفقد المرأة « اباها وامها واخاها واختها ، فتتألم نفسها وتبكي عيناها ، ولكن موت الولد « يؤلمها جسدياً ، فتتوجع كمن فُقئت عينه او بُترت يده او شُقت كبده ! »

في « اجراس العيد » تتوقع وصف مظاهر الافراح ، فنعثر على ذكر احزان ونكبات عديدة ، طال رقادها في اعماق روح سلمى ، فايقظتها فجأةً رنة الاجراس : « ذكرينا ، ايتها النواقيس ، بتلك الايام السود والصحائف « السود ؛ لقد نسينا وما اكثر ما ننسى ! ذكرينا بايام كان لرنينك فيها دوي « اصم كالهاوية وبارد كالموت ، يوم كانت حشرجة المائتين ولعنات المصلوبين « تقطع انينك ، فتُسمعنا صوت مناحة لبنان يبكي خلف الجنازة الكبرى ! « ذكرينا بالعيد يتلو العيد ، والشعب يدخل الكنائس منكسر الرأس ، « ويخرج منكسر القلب والنفس وكافراً ، لان الجوع كافر ! ذكرينا بهم « كلهم ، بالمنفيين والمصلوبين ، بالجائعين والمضطهَدين ! ذكرينا بهم قبل ان

« تنسى ، لان على جماجمهم وعظامهم قام الوطن الجديد ! »

« يا بلادي » فيها وصف فتان لجمال جبل الارز ، وطن سلمى ، ذلك الجمال الفائق الذي جعله على توالي العصور هدفاً عزيز المنال لمطامع الفاتحين، وقد فنيت جحافلهم الغازية ، واحد بعد الآخر ، وبقي لبنان حتى الآن حياً مجيداً على آثار سطوتهم المضمحلة . في موضوع كهذا لا نرى مجالاً ينفسح للكآبة ، على ان سلمى تراه بعينها القرحة من فرط البكاء على تعاسة بني آدم ، فيهتف قلبها النبيل في خاتمة تلك المقالة الرائعة : « اريد بلادي عزيزة منيعة . « اريدها متشبعة من كل ما اندثر فيها من المدنيات ، ومفرقة على العالم دروس « العلم والحكمة . وكما تألمت الامومة الجريحة في قلب راحيل ، فصرخت « بمرارة الى يعقوب « اعطني ولداً وإلا اموت » ، هكذا وقفت نفسي الجائعة « على اطلال بعلبك ، فصرخت صراخاً الهياً كالآلهة وعميقاً كالهاوية : يا ابناء « بلادي القريبين والبعيدين ، يا ابناء بلادي ، اعطوني وطناً والا اموت ! »

« تعبتُ من المدينة » من ابدع المقالات التي دبجها يراع سلمى . تبوح لنا فيها نفسها الرقيقة الرحيمة بتباريحها الفائقة التحمل ، لدى مشاهدتها ما بدا وما خفي في بيروت من ضروب الفقر المدقع والمظالم والمفاسد ، مع مواكب الاحزان والبلايا الملازمة لها . لقد ضاق صدرها الرحب العطوف في ذلك المحيط المشبع بابخرة الانانية الخنّاقة ، فاستعاذت منها بقمم لبنان المكللة بالثلوج ، الساطعة بالانوار ، حيث يتسنى لها ان تتنشق هواءً منعشاً نقياً ، يشرح صدرها ويُخمد سعير اساها الشريف : « تعبت من المدينة ، من صراخ « الناس وخرير العربات وحشرجة السيارات واختلاج المائتين تحت دواليبها ! « تعبت من المدينة ومن اصنامها وهياكلها ومذابحها ! تعبت من كل ما يعمي « ويُصم ويخنق الالوهية في الكائن المصنوع على مثال الله ! تعبت نفسي من « المدينة ، ونفسي ، منذ وُجدت ، تسير بين الناس وتتفرس في عيونهم ، علها « تجد رسماً او شبه رسم للطابع الاسمى ؛ ولكن ما اكثر ما رأت نفسي من

« المسوخ ! . . . تعبت نفسي من المدينة ، وكم في المدينة من بيوت تنهار
« واطفال تئن ! تعبت من انين اطفال ومن نزع ضعيفات تمزقهن اظافر
« الرجال والسنة النساء ! . . . تعبت من المدينة ، فذهبت الى جبل الرب . . .
« فتعالوا انتم ، ايها التعبون ؛ تعالوا في الصيف والشتاء والربيع والخريف ؛
« تعالوا ، طهروا نفوسكم بخيوط الشمس وضياء القمر ! تعالوا الى اقدام
« ام الاله ، واسمعوا نشيد البحر القديم ، حيث رقصت قديماً قلوب المحبين ،
« وحيث تُسكب اليوم نفوس المتعبدين ! »

قد اتضح لدى القراء ان اوتار قلب سلمى سريعة الاهتزاز ، شديدته ، كلما ادركها انين البؤساء ، مهما كانت اشخاصهم واسباب شقائهم ؛ وقد اوحى اليها حنانها العام بنحو نصف مواضيع « النسمات » ، فبرزت من اعماق فؤادها الطروب متأججة بلهيب عطفه على كل القلوب الدامية . على ان الكاتبة لا تمتاز برقة شعورها النبيل فقط ، بل بحصافة عقلها ايضاً ، كما نرى في الشطر الثاني من مجموعتها النفيسة ، فقد وُقف على المباحث الفكرية ، وفيها من سداد الرأي واناقة التعبير ما فيها . يجول قلمها البليغ في ميادين السياسة ، الاقتصاد ، الثقافة والنقد الادبي جولات قصيرة ، بيد انها غير سطحية ، تشف عن اطلاع واسع ونظر ثاقب ووطنية حارة نشيطة ؛ فلا مندوحة لنا الآن عن تحليل ذلك النوع الثاني من مقالاتها .

في « ما نرى وما نسمع » و « بابل في سورية » تصف لنا وصفاً دقيقاً ، مملحاً بالفكاهة ، اختلاف اللبنانيين والسوريين في شأن مصير بلادهم بعد الحرب العالمية الاولى . في « الحاكمية الوطنية » ترى وجوب تعيين حاكم وطني للبنان ، ولو تحتم عليه الخضوع للدولة المنتدبة . في «حياتنا الاقتصادية» تزعم انه يليق بالمرأة اللبنانية الاهتمام بالاقتصاديات ، وتبالغ بقولها ان الحرية الاقتصادية هي الاصل الذي يتفرع منه الاستقلال السياسي ، بيد انها تصرح بعدة حقائق راهنة ، ولا سيما بضرورة زيادة إنتاج وطنها لتقويم

حالته المالية .

لا تتريث في مضمار السياسة والاقتصاد ، لقلة ميلها اليهما ، على انها تلتذ بمعالجة الشؤون الثقافية على اختلاف انواعها ، فقد منحها الله من مواهب العقل والقلب ما يؤهلها للزعامة على بنات جنسها في كل ما يؤول الى رفع مستوى التمدن اللبناني .

في مقالتها « على ذكر اللغة العربية » تنادي بوجوب ترقية لساننا العريق في القدم والبديع بالجمال ، وتذكر انجع الوسائل لادراك ذلك المأرب. انما لغة الشعب ترجمان افكاره وعواطفه ومُذيع مساعيه ومطامحه ، والصحافة من خير المنابر التي يعتليها للقيام بوظيفته الحيوية . فلا بدع بان نرى سلمى تعظم في « احجار الزاوية » شأن الصحافة العربية في توسيع نطاق الحضارة اللبنانية . اما همها الاكبر في هذا الامر الخطير فهو ترقي المجلات النسائية ؛ وقد عبرت عنه في « مينرفا واخواتها » ، حيث تشير على مؤازرات تلك الصُحف بالاكباب على درس العلوم لرفع مستوى ما ينشرن فيها من المقالات :

« لتبادر نساء سورية ولبنان الى تعزيز نهضتهن ، واسها الصحافة ، لان « المرأة ، في صحيفة لها خصوصية ، تبث من روح التجدد النسائي ومن روح « التقدم النسائي ما لا يمكن مئة جريدة من جرائد اسيادنا الرجال ان « تفعله ، فضلاً عن ان المباراة تُرهف القوى وتثير النزعات الطيبة في « النفوس . فلا يمضي زمن الا ولصحافتنا النسائية قوة تنضم الى سائر قوى « الامة ، عندما يجيء وقت العمل الجدي ، العمل المثمر الهادىء المتين . »

ثم توجه الكلام « الى جامعة السيدات » البيروتية ، حاثةً بنات جنسها على ترك ميدان السياسة للرجال وحصر جهودهن في العلوم والاخلاق وسائر الامور العقلية . في الختام تنصح لهن بضم قوى الجمعيات النسائية لتوحيد مساعيها وتقوية نفوذها .

من اقوى العوامل لترقية الثقافة اللبنانية والسورية ، وفقاً لرأي سلمى ،

تشويق الاهالي ، على الاخص بواسطة المتاحف ، الى معرفة ما خلّفه اسلافهم الاقدمون من جليل الآثار الفنية . قد بسطت ذلك الرأي الصائب بلهجة حارة في « مستقبل الآثار في سورية » ، حيث ترثي لعدم اهتمام شعبها بجمع تلك التحف السنية ، مع شدة سهولة الامر وعظيم فائدته :

« الآثار هي عنوان مجد البلاد ، لانها تُظهر اننا اصحاب مدنية مضى عليها « الوف السنين . والمتاحف التي تضم هذه الآثار هي لوحة يتعلم فيهـا الولد « بزيارة او بزيارتين مُجمل تاريخ بلاده . المتـاحف هي واسطـة كبرى « لتحسين ذوق الناس ، اذ نعرض فيها مصنوعات ابنـاء الفن ، من متقدمين « او متأخرين ، وهي عامل كبير لايجاد موسم سُيّاح يزورون البلاد خصيصاً للتفرج على آثارها . »

ترى سلمى – ونعم الرأي – ان قوام التثقيف الوطني هـو انماء روح التضحية بالمصالح الفردية ، ولا سيما السافلة ، سعياً وراء الخير العام السامي . قد كتبت في « التربية القومية » صفحة بديعة ، ضربت فيها امثالاً على انواع التضحية اللازمة لانهاض الوطن من وهدة شقائه ؛ ها كم نموذجاً منها :

« لتضحّ كل نساء الامـة من عبـادتهن للمستحدثات الغربية ، فان « الاموال التي نرسلها الى اوربـة ثمن جوارب وازرار وخزعبلات هي دماء « الامة ، بل ماء جبينها ، بل هي ثمن صريح للسلاسل التي تزداد حلقاتهـا « كل يوم . لتضحّ الام بساعة ، فتعلم ولدها لغة الاجداد بنفسها ، فمن العار « ان نرمي المعاهد الاجنبية بهذه الحجارة كلما نظرنا الى ذلنا . انظروا الى « الشعب اليهودي المشتت في اقطار الارض منذ الفي سنة ، كيف حافظ على « لغته وتقاليده ، وقولوا لي بعد هذا ان المعـاهد الاجنبية هي المسؤولة عن كسلنا وعارنا . »

من جملة الترهات التي تطالب سلمى بنبذها لترقيـة الوطـن ، المقامرة الوخيمة العواقب للفرد والعائلة والمجتمع . في « صوت الام » تحتج باسم ربات

العائلات احتجاجاً شديداً على الحكومة لفتحها مصراعي باب القمار ، بحجة انها تجني منه دخلاً وافراً تنفقه في سبيل مصالح البلاد :

« لنفرض ان ايراد القمار بلغ العشرين مليوناً ، تحولت كلها الى تحسين « الطرقات . فنحن قوم قانعون بشوارعنا الضيقة القذرة ، ولا نريد اصلاحاً « وقتياً وطلاء لماعاً يجيئنا من فضلات موائد القمار ، التي يبيع عليها رجالنا « ضمائرهم وصحتهم وسعة صدورهم وعقولهم ، فيكون ربحنا ، نحن النساء ، « الشقاء الدائم والحرمان الاليم ! »

بجانب تلك المباحث الثقافية التي حللناها بكل السرعة ، نجد في « النسمات » مقالتين نقديتين لذيذتين : « مي وكتابها » - يعني ذلك العنوان مي زياده ، اشهر اديبات لبنان ، ومؤلفها الجميل « باحثة البادية » - و « كتاب باز » ، وهو « اكليل غار لرأس المرأة » بقلم جرجي نقولا باز . نجد ايضاً مقالة شائقة في « وديع صبرا » اشهر الموسيقيين اللبنانيين العصريين ، حيث تبين سلمى ما بذله من الجهد لاختراع البيان[1] الشرقي ، القادر وحده على ابراز ادق الالحان الشرقية . وقد ذكرت في تلك المقالة شهادة الاستاذ الفرنسي لافينياك (Lavignac) ، الذي درس عليه وديع صبرا في باريس ، على نبوغ تلميذه في الموسيقى الشرقية والغربية .

لسلمى في الالحان الشرقية رأي نجده على اتم السداد ، وقد ابدته في « موجة السرور الكبرى » . ترى ان معظم نغماتها هائجة للحزن ، ولو كان موضوعها بعيداً عن عوامل الاسى ، فتقول : « شعراؤنا ينشدون القصائد « الحماسية ، واطفالنا في المدارس يغنون القدود الوطنية ، ولكن طابع الحزن « القديم لا يزال في مكانه ؛ فهو من هذا القبيل لازم الوجود . » سلمى موقنة ان ذلك الحزن الشامل يزيد همنا الضعيفة وهناً ، بعكس الفرح ، فانه ينعش

---

(١) البيان بكسر الباء كلمة وضعها مجمع فؤاد الاول للغة العربية في القاهرة للدلالة على ما سمته العامة بيانو (piano) .

القلوب ويشد اوتار العزائم . فلله درها اذ فاهت بهذه الاقوال الجامعة عمق الافكار وجمال الخيالات الشعرية المبتكرة :

« اجل اننا في حاجة وجيعة الى السرور والطرب ، ولكن كيف « نطرب ، وكل من حولنا يبكي ؟ لقد تعالى بكاؤنا ، فغطى بنعيبه كل اصوات « الطبيعة الضاحكة حولنا دواماً . فهذه السماء الزرقاء ، والاشجار المخضلة الى « مديد من الايام عديد ، وهذه الزرازير المصفرة في اعالي الصنوبر ، « والطيور المنشدة فوق دوالي العنب واغصان التين ، والغدير المهمهم بين « الاعشاب ، والشلال الصارخ فوق الصخور ، وامواج الهواء الميمنة في « الغابات ، كل هذه تنشد انشودة الحياة زاهية طربة ، ونحن وحدنا نبكي ! « ولآدابنا العربية ، بما يتبعها من شعر وموسيقى وانشاء ، اليد القاهرة في « تكييف نفوسنا على الحزن والانين . ولا عجب ، فآداب الامم صورة حية « رسمت فيها مشاهد حياتها على توالي العصور ؛ وهل في حياتنا ، منذ عدة « مئات السنين ، سوى مشاهد الاسر والذل والفقر والحرمان ؟ » .

في « النسمات » مقالة تأبين موجهة « الى روح ابي امين » ، وهو احمد مختار بيهم ، نصير المرأة المسلمة وواضع حجر الزاوية في صرح النهضة النسائية الاسلامية . قد اعظمت سلمى مآثره الغراء التي اقدم عليها بجسارة مدهشة ، ثم لامت بعض المفكرين من ابناء دينه ، لكونهم تركوا تلك الحركة التي انشأها بين اشد المصاعب تموت بموته .

ينتهي ذلك الكتاب الجميل بصيحة حارة ، تحث بها سلمى اهل لبنان وسورية على السعي النشيط والتفاهم الودود ، لترقية الوطن ؛ وهي خير خاتمة لمقالاتها المشتعلة بنار الوطنية : « اشتغلوا ، اشتغلوا ! الطبيب في طبه ، « والمهندس في زراعته ، والاديب في ادبه . وعندما نرتاح من اشغالنا ونأوي « الى بيوتنا ، لنذكر غرسة صغيرة زرعناها معاً . . . تلك غرسة التفاهم « والمحبة . لنسقها من دموعنا ، من دموع فقرنا وجهلنا وذلنا ، ولنحلها

« في مرتفع لائق ، منظور ، حتى نراهـــا في كل آن ونسمعهـا تقول : تفاهموا واتحدوا ! »

تلك مواضيع « النسمات » ، جامعةً بدرجة نادرة دقة الوصف ، اصالة الرأي ، نبل العواطف ، اخلاص الوطنيـة ، مع تنوع شهي في المواد ، يزيد القارىء حرصاً على مطالعتها بحذافيرها .

اما تعبير الـكاتبة فهو ممتاز ، على وجه الاجمال ، بما فيـه من الوضوح والانسجام ولا سيما الطبيعية التامة المقرونة بالابتكار الشديد التواتر ؛ ولا يخفى على الخبراء ان اتحاد تلك المزايا من المعجزات الادبية التي لا يضطلع بحمل اعبائها سوى النوابغ . نـكاد نجد ابتكار الخيالات في كل صفحة من « النسمات » . قد مر بالقراء كثير منها في المقتطفات السابقة ، فنضيف اليها امثلة اخرى تفكهةً لهم : « البحر الغضوب الوثوب اللعوب » ، « الراكضون وراء الرغيف » ، « المحبات المتمرغة في الوحول » ، العيش المبطّن بالحرير » ، « من العناق ما هو خنّاق » ، « الكتب هي الواحات المخضلّة وسط صحراء الحياة » ، « متى ارتفع جبين الفرد ، ارتفع جبين الامة » .

بيد ان صدق النقد يوجب علينا التصريح بان الخطأ اللغوي كثير في « النسمات » : اغراب بمعنى غرباء ، طـابق البيت عوضاً عن طبقة ، كوي بدلاً من كي ، مُهاب وصوابها مهيب ، صـالح بمعنى مصلحـة ، « العدميـة واللاوجود » المقصود بهما العدم . فضلاً عن تلك الكلمات غـير العربية ، نجد عشرات التراكيب الفاسدة ، من امثـال « يمكن للمرأة » ، « تأكد الامرَ » ، « أُمن من فلان » ، « اعطوا يعطيكم الله » ، « يتكلم ثلاث لغات » .

مع ذلك العيب نوافق كل الموافقة على رأي جرجي نقولا باز ، الذي ابداه في مقدمته « للنسمات » ، وهو ان في انشاء سلمى « ريشة مصور ، نغمة موسيقي ، خيال شاعر ، معرفة عالم ، ادب كاتب ، رأي مفكر » .

القسم الثاني

مقالات عامة على ادبنا العصري

اجمل انواع شعرنا المصري

ان الشعر في كل عصر ومصر - نعني شعر العاطفة النبيلة والفكر السامي والخيال المبتكر الجميل ، لا مجرد الكلام الموزون المقفى - هو اعلى درجات سلم الادب ، بل اشمخ قمم الفنون الجميلة جمعاء ، فيسوغ اتخاذه مقياساً لحضارة الشعوب ، لانه افصح التراجمة عما يختلج في صدورها .

اجل ان شعرنا الراقي ، الذي يحق لنا ان نفاخر بصفوته اكبر الامم ، لم يكد يلج دور شبابه ، بعد جموده طول القرن التاسع عشر تقريباً في سبات التقليد والانتحال ، وهو مكبّل بالالفاظ الرنانة الفارغة ، ومحصور في مضيق الغزل التافه والمدح او الرثاء المبتذلين . مع ذلك لقد نبغ بين اظهرنا طائفة من الشعراء المفلقين ، تدفقت اسمى الخواطر والعواطف من صميم قلوبهم تدفق السيل الجارف من اعالي الرواسي ، فسال الشعر من اقلامهم منسجماً ، حاراً ، طبيعياً ، شديد التأثير ، كأنه فلذة من فؤادهم قد استحالت كلمات ساحرة ، او قطعة من حياتهم قد تقمصت الحاناً مطربة ؛ فهم وحدهم جديرون باسم الشعراء ، ومن سواهم نظامون متطفلون .

سنذكر في هذه المقالة اهم انواع قريضنا التي فاز فيها بعض المعاصرين بقصب السبق . من جملتها الامثال على السنة الحيوانات ؛ ولا يخفى عن القراء ما قد حواه ذلك النوع من المواعظ اللطيفة والنكات الشائقة ؛ وكلها قريبة الى العقول والقلوب ، لان الانسان مطبوع على الكبرياء ، ينفر اشد النفور من ذم الرذائل في شخصه ، بينما يستحسن التنديد بها في بني جنسه ، وقد مُسخوا حيوانات بكماء بدت فيها بغاية الحيوية عيوب نظائرها الناطقة . من اطول شعرائنا باعاً في ذلك الفن احمد شوقي ، وقد حاول ان ينافس لافونتان (la Fontaine) ، نابغته الخالد الذي لم يترك فيه زيادة لمستزيد . اسمعوا مثل شوقي في الاسد ووزيره الحمار :

لليث مُلك القفارِ وما تضم الصحاري .
سعت اليه الرعايا يوماً بكل انكسار ؛
قالت : « تعيش وتبقى ، يا دامي الاظفار ؛
« مات الوزير ؛ فمن ذا يسوس امر الضواري ؟ »
قال : « الحمار وزيري ؛ قضى بهذا اختياري . »
فاستضحكت ثم قالت : « ماذا رأى في الحمار ؟ »
وخلّفته وطارت بمُضحك الاخبار ،
حتى اذا الشهر ولى كليلة او نهار ،
لم يشعر الليث الا ومُلكه في دمار :
القرد عند اليمين والكلب عند اليسار ،
والقط بين يديه يلهو بعظمة فار .
فقال : « من في جدودي مثلي عديم الوقار ؟
« اين اقتداري وبطشي وهيبتي واعتباري ؟ »
فجاءه القرد سراً وقال بعد اعتذار :
« يا عالي الجاه فينا ، كن عالي الانظار ؛
« رأي الرعية فيكم من رأيكم في الحمار . »

خليق بان يُذكر بجانب شوقي ، بين مُجيدي الامثال الشعرية ، محمد عثمان جلال المتوفى سنة ١٨٩٨ . كان من وزراء الخديوي توفيق باشا ، وترجم بتصرف امثال ايزوب اليوناني في كتاب « العيون اليواقظ في الامثال والمواعظ » . ثم جاء ابراهيم العرب ، وهو اديب مصري معاصر ، ففاقه بابتكار المواضيع فضلاً عن عروبة الانشاء وانسجامه ، في مجموعته « آداب العرب » ، التي وقع عليها اختيار حكومة بلاده لمدارسها الابتدائية . في لبنان قد عرب الاب نقولا ابو هنا المخلصي امثال لافونتان نظماً ، وعلّق عليها شروحاً لغوية وتاريخية وميثولوجية ، فجاء تعريبه تحفةً من تحف

العروبة واللباقة . في فلسطين نشر الشاعر المشهور اسكندر الخوري البيتجالي سنة ١٩٣٨ كتاب « المثل المنظوم » للمدارس ، فاضاف به درراً جديدة الى ذلك النوع من القريض .

الشعر الوصفي الحديث اوسع مجالاً ، اذ لا حد لما يمكن وصفه من الخلائق . مع ذلك لا نرى اربابه ، حتى النوابغ ، يتوسعون في تصوير مشاهد الطبيعة مثل زملائهم الناثرين . ان في ذلك النقص لعجباً ، فان في جبال لبنان ونيل مصر وصحرائها من بديع المناظر ما قد تبارى في رسمه ائمة شعراء الغرب ومصوريه ؛ فعسى ان تُسد تلك الثلمة الشائنة في مستقبل قريب ! على كل حال قد ابدع فريق من شعرائنا في وصف ملامح الاشخاص الجسدية والروحية ، ودقائق الاشياء ولا سيما الحوادث .

كان اسلافهم في القرن التاسع عشر دونهم بمراحل في ذلك الفن العسير . قلما يصفون لنا محيطهم الحافل بانواع الغرائب ، او يصفونه وصفاً سريعاً سطحياً ، او يرونه في مخيلتهم بعيون الاقدمين وبعقليتهم ، فلا يصورونه لنا كما هو في حقيقته الواقعة تحت الحواس ، بل بما يقاربه من مشاهدات العرب الذين سبقونا بالف سنة ونيف على سطح الغبراء ، ويعبرون عنه باقوالهم ، وعلى الاخص بخيالاتهم واستعاراتهم البالية ، الفائحة منها روائح الانحلال الكريهة .

اما نوابغ الوصف الشعري في عصرنا فقد مالوا عن ذلك الانتحال المبيد للادب في جوهره ، الى الادب الحي المبني على الحقيقة ومشاهدتها . رأوا ما وصفوه بعيونهم ، لا بعيون غيرهم ، بل قد اطالوا النظر الى تفاصيله ، فاتى وصفهم على جانب كبير من الدقة والطبيعية ، تزيده جمالاً رنة الشعر العربي الموسيقية المطربة . في طليعة اولئك المجددين خليل مطران ، احمد شوقي ، حافظ ابراهيم ، عباس العقاد ، ولا سيما شعرائنا الاميركيين المفلقين ، من امثال ميخائيل نعيمه ، ايليا ابو ماضي ، رشيد ايوب ، ندره حداد ، رشيد

سليم خوري ، نسيب عريضه ، الياس فرحات ، امين مشرق . هاكم وصف الياس فرحات لالعابه « بين الطفولة والشباب » ، وهو من الفرائد :

تُرجعني الذكرى الى الكساره[1] ، الى مقر الحب والطهاره ،
الى اجتماعي ببنات الحاره ، نلعب طوراً بالحصى وتاره
يُشغلنني معهن بالصنّاره .

نقيم فيما بيننا الافراحا ، فنأكل الرمان والتفاحا ،
ونملأ الكؤوس والاقداحا ماءً طهوراً ، رائقاً ، قراحا ،
نصبغه حتى يحاكي الراحا .

وطالما جعلنني عريسا واخترن احداهن لي عروسا ،
ثم يُزيّن لها الملبوسا بالريش حتى تشبه الطاووسا
وتُطرب العيون والنفوسا .

يصنعن لي شواربا من صوف يجززنها من ألية الخروف ،
ويتدثّن بالغنا اللطيف والرقص والنقر على الدفوف ،
وكلها من تنك معروف .

اما متى اجتمعت بالصبيان ، فشأننا اذ ذاك شأنٌ ثان :
نقلد الفرسان في الميدان ، لكن على خيل من القضبان
مُلجَمة باوهن الخيطان .

نسلب طوراً راحة الفراش ، وتارةً نعبث بالاعشاش ؛
وقبل ان نأويْ الى الفراش ، نسطو على الضفدع والخفّاش
بمدفع من الحصى رشّاش .

وعندما نقلد الافرانا ، نملأ ذلك الفضا دخانا ،
اذ نحرق الاخشاب والبلانا وكل قش جاور المكانا ،
فنرعب القرية والسُكانا .

---

(١) اسم ضيعة في لبنان .

ولست انسى شجر الاجاص ، طاعت لنا اثماره العواصي ؛
نمطرها الاحجار كالرصاص ، ولا نبالي قط بالقصاص ،
فالطفل لا يأبه للمعاصي .

من الذ انواع الشعر الوصفي واقربها الى العقول والقلوب النوع الرمزي ، الذي لا يصف لنا الكائنات ، ولا سيما احوال الناس ، مباشرةً ، بل يتذرع برموز طبيعية جميلة مبتكرة ، فتنجلي حقيقة المرموز اليه متوجةً بهالة فتانة من الخيالات ، وتمتزج بالاذهان امتزاج الماء بالراح . يسوغ اذاً عد الشعر الرمزي استعارة مطولة ، ومن ثم يستثمر الى الدرجة القصوى الفائدة الجوهرية المقصودة من الاستعارة ، نعني الباس الافكار المجردة ، البعيدة المنال لاكثر البشر ، ثوباً موشى بخيالات عديدة الاشكال والالوان ، تجعلها شبه مادية حسية ، فتفتح امامها باب العقول بمصراعيه . حسبنا الآن قراءة قصيدة « الحجر الصغير » التي نظمها ايليا ابو ماضي ، لنقيس طول الخطوة التي خطاها شعرنا الحديث في ذلك الميدان الجديد :

سمع الليل ذو النجوم انيناً ، وهو يغشى المدينة البيضاء ،
فانحنى فوقها كمسترق الهمس ، يطيل السكوت والاصغاء ،
فرأى اهلها نياماً كاهل الكهف ، لا جلبةٌ ولا ضوضاء ؛
ورأى السد حوله مُحكم البنيان ، والماء يشبه الصحراء .
كان ذاك الانين من حجر في السد يشكو المقادر العمياء :
« اي شأن ، يقول ، في الكون شأني ؟ لست شيئاً فيه ولست هباء !
« لا رخامٌ انا فأنحت تمثالاً ، ولا صخرةٌ تكون بناء .
« لست ارضاً فارشف الماء ، او ماءً فاروي الحدائق الغنّاء .
« لست درّاً تنافس الغادةُ الحسناء فيه المليحةَ الحسناء .
« لا انا دمعةٌ ولا انا عينٌ ؛ لست خالاً او وجنةً حمراء .
« حجرٌ اغبرٌ انا وحقيرٌ ؛ لا جمالاً ، لا حكمةً ، لا مضاء ؛

« فلاغادر هـذا الوجود وامضي بسلام ؛ اني كرهت البقاء ! »
وهوى من مكانه ، وهـو يشكو الارض والشُهب والدجى والسماء .
فتح الفجـر جفنـه ، فاذا الطـوفان يغشى المـدينة البيضاء !

لعمري ان الشعر بحذافيره لمـن الـكماليات ؛ اما الفـكاهة وثمرتاها الشهيتان ، الضحك والابتسام ، فمن الحاجيات الـتي لا مندوحة عنها لـكل سالـكي طريق هذه الحيـاة الوعر ، ليسلوا بهـا مرارة اتعابهم واشجانهم . لم يذهل رهط من اكبر شعرائنا عن تلك الحقيقة الراهنة ، فشحذوا قرائحهم لتفكهة بني جنسهم ، فضلاً عن افادتهم ، ولا سيما بوصف الاخلاق السافلة الذميمة وصفاً متبّلاً بملح المزاح اللطيف ، مما يثير شهوة القراء ، فيزيدهم اقبالاً عليه واتعاظاً به .

نرجح ان الشاعر اللبناني اسعد رستم قد فاز بقصب السبق في هذا المضمار ، وان شان نظمه احياناً كثيرة التعبير الركيك وفرط استعمال كلمات عاميـة من لهجـة بلاده . هـاكم قصيدتـه « شيخ سوري وسورية حاملة كشّة[1] » :

قـد كان سوريٌ جليلٌ زائراً اصحـابه وبانسهم يتمتـعُ ،
فاذا بـربة كشّة سوريـة جاءت وبابَ البيت قامت تقرع .
هـذا ولما الشيخ ادخلها ، وقد عرضت بضائع كاللآلىء تسطع ،
شرعت ، وقـد حسبته شيخـاً اجنبياً ، بالسباب وبالشتائم ؛ فاسمعـوا .
نسبت اليـه كل امر مُنكـر ، واليه قـد ساقت كلامـاً يوجـع .
قالت له : « يا صاحب الوجه الذي هـو من قفا السعدان حقاً اشنع ،
يا ابن التي عملت وسوّت ، يا ابن من قد كان وادي القرن قبلاً يقطع ،
في كشتي ما ربـما تحتاجه ؛ هـذا بديع الشكل ، هـذا ابدع .

(١) الكشة كلمة من لهجة لبنان العامية ، اصلها لفظة caixa البرتغالية ، وهي تعني صندوق البضائع الصغيرة ، كالابر والخيوط ، التي يجول بها البائعون الفقراء في الشوارع .

لعن الاله اباك ؛ لِمْ لا تشتري مـــني فتسعفني ، وماذا يمنـع ؟
قد كان ذاك الشيخ يسمع قولهـا ، لكنه من داخـل يتقطـع ،
حـــتى اذا لم يبق في امكانه صبرٌ عليهـا ، حار في ما يصنع ،
فمضى لغـرفته وعاد وانـما معه عصاً من سنديان تُشبع ،
فغدا يكسّرها عليهـــا قائلاً : « هذي تضرك ثم هذي تنفع !
« اني لسوريٌ نظـيرك ، عارفٌ في ما حكيت ، ومنك فيه ابرع ! »
قالت : « ايا مولاي ، رفقاً ؛ انني كل الذي قـد قلته استرجـع . »
وتألمت بالضرب حـتى انهـــا لم يبق فيهـــا للسلامة موضع .
ان لم تجد احـداً لقولك فاهماً ، فالله يفهم ما تقول ويسمع .

قـد اجاد ايضاً كثير من نوابغ شعرائنا نظم الروايات الشعرية ، وفي مقدمتهم خليل مطران ، بشارة الخوري ، شبلي الملاط ، معروف الرصافي ، الياس فياض . كاد آخر المذكورين يدرك اوج ذلك الفن في « الوفاء عند العرب » ، حيث يروي لنا هيام نجل ملك من الامويين على وجهه في القفار ، بعد سقوط ابيه من العرش ، ثم تعريجه على الكوفة ونزوله في قصر احد اعيانها ، وايقانه بعد ايام انه قاتل والد مُضيفه الكريم :

عجبـــاً ساقـه القضاء الى بيت الد الخصوم والاعـداء !
كرهت نفسه الحيـاة ، وقـــد ضاق بعينيه رحـب ذاك الفضاء !
قال : « يا هذا ، ان حقك عندي واجبٌ بعد هـــذه الآلاء ؛
فانا مرشدٌ خُطـاك الى خصمك ، اقضي بذاك بعض الوفاء . »
قال : « من ذاك المرء ؟ » قال : « انا القاتل ؛ فاثأرْ واسفك بعدل دمائي . »
ضحك الشاب ؛ قال : « ويحك ! هل تسأم من طول النأي والاختفاء[1] ،
فاشتهيت الردى ؟ » اجاب : « بل الحـق الذي قلتُه ، ورب السماء . »
واقام الدليل حـــتى جـــلا الشك عن السامعـين كل الجـــلاء .

(١) قد جعل الشاعر اول همزة في « اختفاء » همزة قطع لضرورة الوزن .

فاستشاط الفتى بغيظ وصارت مقلتاه كالجمرة الحمراء ؛
همّ يقضي عليه في الحال ، لكن حال امرٌ اهم دون القضاء .
قال : « كن ما تشاء ؛ انك ضيفي ، وهو عندي من اقدس الاشياء !
« لستُ ، والله ، ناقضاً ذمتي معك ، وقد نلتَ من طعامي ومائي .
« ان تكن والدي قتلت ، فعند الله تلقى الجزاء يوم الجزاء ؛
« غير اني ارجو ابتعادك ، اذ اخشى من النفس ثورة الاهواء ؛
فانصرف آمناً . » واعطاه من اوصله سالماً الى البيداء .
تلك آباؤنا ، وذاك تُراث المجد منهم باق الى الابناء :
شرفٌ في سماحة ، وذكاءٌ في وقار ، وقدرةٌ في وفاء !

اما نوع الشعر الذي بلغ فيه المعاصرون اوج التفوق ، فهو الغنائي الذي يعده ارقى الشعوب زبدة القريض وحده الاقصى في الجمال ؛ ولا بدع بذلك ، فان غايته الافصاح عن عواطف النفس البشرية ، وعلى الاخص اسماها ، فهو اذاً اقدر من غيره على هز نياط القلوب . اليست كآلة المذياع ، تعيد الاهتزازات الصادرة عن قلب عال شريف ، قد آتاه الله موهبة اثارة مجانسيه والسيطرة عليهم ؟ يسرنا التصريح بان شعراءنا الغنائيين قد وُفقوا الى التعبير الصادق عن كل عواطف النفس وهزوا كل اوتار عودها .

ان الله تعالى ، خالق السماء والارض بكل عجائبهما ، ذو كمال غير محدود ، فائق لادراك اسمى العقول ؛ فلا غرو من محاولة بعض اعظم شعرائنا الترنم بجلاله المهيب وجماله الفتان . قد ذكرنا في هذا الكتاب ابياتاً رائعة لميخائيل نعيمه[1] ولاحمد شوقي[2] في هذا الشأن . هاكم ايضاً بعض ادوار من القصيدة « الله » للاديب السوري الشهير خليل مردم ، وهي من ابدع ما نُظم لتعظيم الرب القيوم السرمدي :

---

(١) اعد مطالعة البيتين اللذين في آخر الصفحة ١١١ والصفحتين التاليتين .
(٢) اعد قراءة الصفحة ١٢٤ من السطر الثامن الى الثاني عشر .

سبحانك ، اللهم ؛ انك اكبرُ من ان يحيط بكنهك المتفكرُ ؛
حار اللبيب وزاغ منك المبصر ، ورمى فاخطأ سهمُه المتدبر ؛
اقصى مدى للعقل فيك تحيرُ ! . . .
من شأنك التصوير والانشاء : هـذي السماء صحيفة زرقاء ؛
الفجر حاشيةٌ بهـا حمراء ، والبدر فـوق جبينها طُغراء ،
والنيّرات على الصحيفة اسطرُ .
خرت لك الشمس المنيرة تسجدُ ومن الخشوع جبينها متوردُ ؛
والبحر مسجور الجوانب مُزبد ، والمـوج مصطخباً به يتنهـد ،
امسى يُقيم لك الصلاة ويذكرُ .
زُحَلٌ بغُل الرق عان مُقمّحُ ، والرعد يجأر بالدعا ويسبّحُ ،
والبرق طرفٌ للدُجنّة يلمح ، ومن الغمام له دموع تسفح ،
والريـح من وجد تـئن وتزفرُ .
ديوان شعرك مستفيض بالغُررْ ، جم القلائد ، من فرائده البشرْ ؛
الجسم لفظٌ من نشيد مستمر ، والروح ، ان الروح معنى مبتكر
ما زال يستهوي العقول ويبهرُ ! . . .

– لقـد اجاد ايضاً رشيد ايوب كل الاجادة بوصفه في القصيدة « دُق ، يا قلبي » انعكاس بعض اشعة جمال الله تعالى في الخلائق ، وشدة توق النفس البشرية ، الرازحة تحت عبء آلام الحياة ، الى التمتع الابدي بذلك الجمال القادر هو وحده على اشباعها :

خلق الرحمان هـذه الـكائناتْ وحباهـا بعض حب ازلي ؛
ما ترى الانجم ترنو غامزات ، وهي لولا حبهـا لم تفعل ؟
كلما شاهدتَ تلك النيّرات ، وجمـال الله فيهـا ينجلي ،
دُق ، قلبي ، دقة النائي الغريبْ ذكر الاوطان والعهد القديمْ ؛
شبّت الاشواق فيـه كاللهيب بعدما اضرمهـا الحب المقيم !

ان عين الحب ليست ترقدُ ، فهي عين الله بارينا القديرْ !
هي في الشمس التي تتقد ، وذُرى الافلاك منها تستنير .
قلت ، والامواج حولي تنشد ، والسواقي تتغنى بالخرير :
« دُق ، يا قلبي ؛ فان جاء الاوانْ ودعانا الله من بعد المماتْ ،
« سوف نحيا عنده طول الزمان، فلنا بعد الردى الف حياة ! »

اذا كان الله تعالى ، بكنهه الفائق الادراك وبكمالاته غير المحدودة ، اسمى موضوع عالجه شعرنا الغنائي العصري ، فالنفس البشرية المخلوقة وحدها على صورته البديعة ، في هذا العالم الهيولي ، هي ايضاً قبلة انظار شعرائنا المفلقين . يحاولون في قصائدهم العديدة المبتكرة ازاحة طرف الستار عن سر كيانها العجيب ونزعاتها المتناقضة بل المتصارعة على الدوام ، من طموح نبيل الى السعادة الابدية والفضائل العسيرة المؤدية اليها في معارج وعرة ، كثيرة الاشواك ، ومن هيام سافل بحطام الخيرات الارضية ، ولا سيما اللذات الحسية السريعة الزوال كسحابة صيف ، فلا تُروي للانسان غليلاً ولا تُغني عنه فتيلاً . قد دخل ذلك الميدان الرحيب صفوة شعرائنا ، ولا سيما الاميركيين ، على ان اكثرهم لم يفهموا كنه النفس ، اذ تدهوروا الى اقصى دركات المادية الكافرة ، فزعموا ان الانسان ما هو الا الدرجة العليا في سلم تطور الحيوانات ، وان قواه الروحية المحضة ليست سوى اسمى وظائف الدماغ ، فلا تمتاز امتيازاً جوهرياً عن مظاهر ذكاء بعض طوائف البهائم ، ولا سيما القرود . وان لم يضلوا كلهم ذلك الضلال الفاحش ، فانهم يغرقون في لجج الارتياب المتحذلق في شأن روحانية النفس ، واهمين انه اجلى الدلائل على سمو ثقافتهم ، وناظرين شزراً الى من رذل نظريتهم الفائلة .

نجد بينهم من لا يزالون مذبذبين بين المذهبين المادي والروحي ، منتقلين من هذا الى ذاك بتأثير تقلبات حالتهم النفسية ؛ وفي مقدمة اولئك

الارتيابيين الشاعر الشهير ميخائيل نعيمه[1] .

قد ابدع نسيب عريضه ، الشاعر الحمصي المهاجر الى اميركة ، في قصيدته « امام الغروب » ، بالترنم بروحانية النفس وخلودها :

كفاكِ عنا ، يا فكرْ ؛ تعبت بلا طائلِ ،
فما نحن الا اثرْ على الرمل في الساحلِ .
سنبقى قليلاً هنا الى المد حتى يعودْ ،
فيمضي سراعاً بنا الى البحر بحر الخلودْ !
اشمسَ الحياة اغربي ولا تمهليني لغدْ ،
فما في الدنى مطلبي ، ولو عشت عيش الابدْ !
اشمس الحياة ، اسرعي[2] وغيبي ، فانت خيالْ !
اشمس الخلود ، اسطعي؛ اليك اليك المآلْ !

نطرب لمثل تلك اللهجة الحارة ، لهجة التوق المضني الى السعادة الابدية ، التي خلقنا الله لاجلها ، في « الوطن البعيد » من نظم شاعر البرازيل رشيد سليم خوري ؛ اليكم آخر ابياتها ، وهي اجملها :

ما البرازيل مهجري ؛ ليس لبنانُ لي حمى ،
ان نفسي غريبةٌ تشتكي البعد فيهما !
انا ما دمت في الثرى وبعيداً عن السما ،
مهجتي كلها جوى ؛ كبدي كلها حنينْ ؛
نازحٌ اشتكي النوى ، دأبيَ النوح والانينْ !

فضلاً عن التغني بروحانية النفس البشرية وعدم ارتوائها من مناهل اللذات الزائلة ، وعطشها الاليم الى السعادة الدائمة ، قد عبّر نفر من اكبر شعرائنا تعبيراً بديعاً عن الحرب العوان بين الجسد المنقاد لشهواته الدنيئة والنفس التواقة الى اسمى الفضائل ؛ ولعل فوزي المعلوف صاحب قصب

(١) راجع مقالتنا عليه في الصفحة ١٠٩ وما يليها — (٢) في هذا الفعل همزة وصل .

السبق في هذا المضمار ؛ ها كم قصيدته « عبد وحُرة » :

بين روحي وبين جسمي الاسيرِ كان بُعدٌ ذقت مُرّهْ ؛
انا في الترب ، وهي فوق الاثيرِ ؛ انـا عبدٌ وهي حُرهْ !
انا عبد الحياة والموت ، امشي مُكرهاً من مهودها لقبورهْ !
عبدٌ ما تحتوي الشرائـع من جور يخط القوي كل سطوره
بيراع دم الضعيف له حبرٌ ونوح المظلوم وقع صريره !
انا عبد القضاء ، عبد هناه وشقاه ، بشيره ونذيره !
عبد عصر من التمدن ، نلهو ضلةً عن لبابه بقشوره ،
عبد مالي ، اسعى اليه فاحظى بعد طول العنا بوطأة نيره ؛
عبد إسمي اذيب نفسي وجسمي طمعاً في خلوده وظهوره ؛
عبد حبي ، جعلت قلبيَ مأواه ، فاحرقت اضلعي بسعيره ؛
ان جسمي عبد لعقلي ، وعقلي عبد قلبي ، والقلب عبد شعوره ؛
وشعوري عبد لحسي ، وحسي هو عبد الجمال ، يحيا بنوره !
كل ما بي تحت العبودية العمياء في ذا الوجود ، بين شروره ،
غير روحي ، فانها حرةٌ . تمشي بروض الخلود بين زهوره !

يطول بنا تفصيل الكلام على سائر ضروب شعرنا الغنائي العصري ، بيد اننا لا نستطيع السكوت عن نوع من اجمل انواعها ومن اسحرها للقلوب ، الشعر الوطني . انه لنجم جديد ، بديع السطوع في سماء قريضنا القومي . قبل الحرب العالمية الاولى كادت سيادة سلاطين تركية في انحاء الشرق العربي تحبس العاطفة الوطنية في اعماق الصدور ، فتمنعها عن السريان ، بسرعة الكهرباء وقوتها ، الى الالسنة والاقلام . ولكن بعدما وضعت الحرب الضروس اوزارها ، وكسرت تلك الاقطار نير العثمانيين الباهظ لها منذ مئات السنين ، وتكونت في مصر ، لبنان ، سورية ، العراق وشرق الاردن شعوب ودول مستقلة بدرجات متفاوتة ، قد اندلعت نيران

الوطنية من خفايا القلوب . فنشأت آداب وطنيـة محضة ، عديدة الالوان والنزعات ، وللشعر فيها مكانة سامية ، تكفلها له رنتـه الموسيقيـة المطربة وسرعة الهـابه لافئدة السامعين والقراء ؛ دونكم شيئـاً يسيراً من فرائده .

ينشد الياس فرحات معظماً لبنان في قصيدته « موطني » :

موطني يمتد من بحر المياهْ مُمعناً شرقاً الى بحر الرمالْ ،
بين طوروس[1] وبين التيه تاهْ بجمال فائق حد الجمالْ !
ذكره يُغري فتاهْ بالمعـالي ؛
انا لا ارضى سواهْ ، فهـو مالي !

ويصيح ميخائيل نعيمه من مهجره الاميركي باخيه اللبناني ، الثاوي في ارض الجدود ، وقد اهلكت الحرب والمجاعـة آلافاً من ابنائهـا من سنـة ١٩١٥ الى ١٩١٨ :

اخي ، قد تم ما لو لم نشأه نحن ، ما تما ،
وقد عم البلاء ؛ ولو اردنا نحن ، ما عما !
فلا تندب ، فأذن الغير لا تصغي لشكوانا ،
بل اتبعني لنحفر خندقاً بالرفش والمعول ،
نواري فيـه موتانا !

في « وقفة على البحر الميت » يحاول الشاعر اللبنـاني انيس الخوري المقدسي اثارة الوطنية في قلوب اهل بلاده بهذه الصيحة الشديدة :

الى كم نحن اموات ؟ فشعبٌ ذليلٌ او طلولٌ دارساتٌ ؛
كأن الارض لم تُنبت رجالاً ولم تظهـر عليهـا المعجزات ،
وفيهـا الذين سعوا نعيمٌ وجنّـاتٌ زواه طيبـات !
تجلبب غـيرنا بالخـز فيهـا ، ونحن لجهلنـا ابداً عُـراة ،
كسالى ، راضخون لكل خسف ، يطيب لنـا التراخي والسُبات !

---

(١) اسم سلسلة جبال واقعة في جنوب تركية .

قد اقتدى به رشيد سليم خوري في ختام القصيدة التي وصف بها فتح الجيش الانكليزي للقدس سنة ١٩١٨ :

ان الالى سجد الملوك لبأسهم سجدوا بسوريا[1] امام قبور[2] !
عجباً لسوري يحقّر نفسه ، والخلق يسجد للتراب السوري !

اذا القينا نظرة شاملة على اجمل انواع قريضنا العصري ، وجدنا فيها من بدائع الامثال ، الوصف ، الرموز ، الروايات والشعر الغنائي ولا سيما الوطني ، ما يدل على ان اصحابها النوابغ قد فاقوا اكثر اسلافهم في فهم كنه الشعر الحقيقي ، كما ادركه ارقى الشعوب القديمة والحديثة ، فصاغوا من قلائده ما خلد اسماءهم في تاريخ الادب العربي وفتن بجماله آلافاً من اهل اوربة[3] ناشري التمدن في كل انحاء العالم .

اجمل انواع نثرنا العصري

يحول ضيق مجال القلم دون الاحاطة باطراف موضوع واسع كهذا ، يقتضي استقصاؤه كتاباً غزير المواد . فلا مندوحة لنا عن حصر الكلام في دائرة ضيقة ، بذكر بعض الانواع الممتازة من نثرنا العصري ، التي شرع يجاري فيها آداب ارقى الشعوب على حداثة عهده . وايم الحق انها لنهضة ينثرنا فجرها المنبلج بمستقبل مجيد ، وقد لفتت انظار فئة من علماء الغرب المستشرقين .

المواضيع النثرية التي برز فيها ادبنا الحديث هي على الاخص وصف الاخلاق البالغ منتهى الدقة ، بل التحليل لخفايا النفس البشرية ، ثم

(١) قد عد الشاعر فلسطين من انظار سورية — (٢) اقدس تلك القبور قبرا السيد المسيح والعذراء مريم والدته — (٣) سيتضح ذلك للقراء في آخر مقالة من هذا الكتاب .

الخطابة ، ولا سيما الدينية والوطنية ، النقد الصحيح ، الشؤون الفكرية او الاجتماعية مسبوكة في قالب الخيالات والعواطف لتقريبها الى اذهان العامة .

قد اخذ ادباء جيلنا عن زملائهم الغربيين عادة الملاحظة المتواصلة الدقيقة لحركات الناس وسكناتهم ، ثم اقدموا على سبر غور النفوس لتعليل ظواهرها بالبواطن الكامنة ، فكشفوا لنا شيئاً من اقصى خفايا الروح البشرية ، بما انطوت عليه من افكار واشواق وشهوات ، ومن آمال وجهود وآلام ، بقدر ما يتسنى لضعف الانسان ان يغوص في لجة كيانه السامي .

بما انه يعسر التوغل في اعماق النفس ، ويسهل وصف مظاهرها المتنوعة ، البادية لكل ذي عينين ، لا بدع بان نرى في الفن الاصعب عدداً اقل من النوابغ . على كل حال قد مهدوا لخلفائهم طريقاً وعرة ، تؤدي بهم ، ان شاء الله ، الى ذروة ذلك الفن المعدود من اوعر انواع الادب مسلكاً .

دونكم نموذجاً من وصف يوسف غصوب للبناني المتفرنج :

« المسيو لبنان يلبس القبعة الافرنجية من آخر طراز ، آتية رأساً « من باريس . يشد وسطه بصُدرة مخصورة ، ويرسل على اعلى صدره من « جيب الصدرة طرف منديل حريري ، ويحمل خيزرانة يثبّتها في المعصم « بشرابة او قد من جلد ناعم . المسيو لبنان يُحفي شاربيه ولا يدع منهما « الا اثراً خفيفاً فوق شفة قد يطليها بالحمرة . يضع على اعلى انفه نظارتين « ذهبيتين لغير ما اضطرار ، ويرفع رأسه ويجري سريعاً . واذا لقي صديقاً « في طريقه ، احنى ظهره مراراً ، وادار هامته يميناً وشمالاً ، وقلب عينيه « وتبسم وضغط يد صاحبه ، واندفق في الآه (ah !) والايه (eh !) ؛ « والسلام باللغة الفرنسية يرسله عالياً ، وقد يلثغ في حرف الراء كما يلثغ الباريسيون على زعمه . »

حسبكم هذا المثال شاهداً جلياً على دقة تصوير الاديب العصري لما يراه

في محيطه من غرائب الاخلاق . نجد مثل ذلك الاتقان في تحليل الطبائع البشرية عند سليمان البستاني ، انطون الجميّل ، جرجي باز ، داود بركات ، الآنسة مي ، نجلا ابي اللمع وغيرهم .

كما اجاد اولئك تصوير ما تسوغ تسميته وجه النفس ، قد ابدع سواهم ، وان اقل عدداً ، في رسم داخل ذلك الهيكل المختفي وراء سجوف اللحم الكثيفة ، ذلك الهيكل الرائع ، الذي يحوي ، مع ظواهر صغره وحقارته ، الاله الجليل خالقه ، من ضاقت السماوات والارض عن عظمته . لقد وُفق نفر من ادبائنا الاماثل الى دخول ذلك المعبد ، فوصفوا لنا بعض ما شاهدوه في ظل حناياه ؛ وفي مقدمة هؤلاء النوابغ ولي الدين يكن ، ابرهيم المازني ، امين مشرق ، فليكس فارس ، نقولا فياض ، سلمى صائغ ، مي زياده ، لبيبة هاشم . اليكم شيئاً من وصف سلمى لعواطفها الوالدية نحو طفلتها الخارجة من ظلمات حشاها الى غياهب هذه الحياة الحافلة بالمتاعب والرزايا :

« يا حلاوتك عندما دببت وعندما شببت ، بل قبل ان وُلدت ! عندما « تململت لاول مرة قرب فؤادي ، فاحدثت في نفسي ثورةً قلبت بلحظة « كياني وحولتني من ولد خلي طيّار الى كائن مثقّل بالحنان والحب . « وعندما وثبت الى الحياة بيديك الورديتين وعينيك المغمضتين الجاهلتين معنى « الحياة والوجود . وعندما اتوا بك اليّ ، فاخذتك الى صدري ، على نور « الزيت الضئيل ، ناظرةً الى عينيك وجبينك وفمك وانفك وخديك وكل « اعضائك المتناهية في الدقة واللبان ، وقائلةً في نفسي : « هي لي ، هي لي ! » « وعندما كنت اسقيك مذوّب قلبي ، واراك تنمين يوماً فيوماً بما تمتصينه من « ماء حياتي . كم تلذذت في تلك الساعات الطويلة ، وسكبت نفسي امام « هيكل حبك ، متمنيةً لو اعطيك كل ما في نفسي من قوة وكل ما في كياني « من حياة ! وعندما فُطمت فبكيت صدري ، فلمست اول هموم الحياة ! »

هاكم وصف فليكس فارس ما هز نفسه من الافكار السامية والعواطف النبيلة بين خرائب هيكل بعلبك الشهير :

« قبالة هذه الآثار المتهدمة اقف كل يوم لاستقبل الشمس ، وهي « تضيف على الاعمدة الثابتة قُبلة جديدة الى الملايين التي لثمت بها جوانبها « من قبل . بازاء هذه الجدران الهائلة اقف مودعاً كوكب النهار ، وهو « يموه احجارها بنوره المصفر . عند هذا الهيكل ، ابن الاعصار الطوال ، « اقف انا ابن الامس ، وكلانا نشخص امام عوامل الطبيعة ، وهي تتابع « سيرها بنظام واحد وبحركة واحدة ، على الحي المنهزم امام السنين والجماد « الراسخ في وجه العصور . يلذ لي ان اناجي هذه الاطلال البوالي ، فاستعير « لها نفساً من انفس الشعوب التي فنيت بظلها ، واخاطب رسمها العافي باشرف « ما يخاطب الانسان بالانسانية والشاعر بالشعور . اخاطب بالذكر والتأمل « ذلك الجم الغفير الذي اصبح عفراً تطأه الارجل ، وقلما ينبض لذكره « قلب ! كثيراً ما وقفت على تلك الآثار المبعثرة المكسرة ؛ كثيراً ما احنيت « الرأس متأملاً في تلك الذرات المبددة ، وما هي الا رماد العصور البعيدة ... « لقد وُصف البناء من قبل هندسةً وقياساً ، وقد كُتب كثيراً عن تاريخه « ايضاً . اما انا فألج باب هذه الفخامة المدمرة ، ليس كالمهندس الحامل « مقاييس وحبالاً ، ولا كالمؤرخ ، تحت ابطه كتاب افتراضات غيره ، بل « كخليقة تعرف حقارتها امام عظمة الكون ومفاعيل الزمن . ادخل بنفس « تحب ان تمجد خالقها لدى آثار الزوال الكاتبة على العفر « وهو الباقي ! » « ادخل بقلب خفّاق ونفس تريد ان تشعر ، فاقف امام الخرائب كالحياة « المتجددة امام الموت الشامل ؛ امر امامها كمرور الاجيال امام هيكل الحب « الذي اخلفته الايام ولم تدمره ! اتأمل في كل سرداب وباحة ورواق ، فلا « افتكر بطول هذه ولا بعلو تلك ، بل اقابل ما بين هذا البنيان والطبيعة « الجامدة ؛ اقابل بينه وبين الجبال والامواه والاشجار . اقيس بمقياس

« التأمل بين كلمة الخلق ومحاولة البشر . اقابل هذه الضخامة بحقارة من شيدها وزال . . . »

اما وصف الاشياء ، ولا سيما مشاهد الطبيعة ، بما يقارب دقة التصوير ، فلا يزال نادراً عندنا . مع ذلك قد برع فيه خليل مطران ، عباس العقاد ، فليكس فارس ، لبيبة هاشم وغيرهم . هاكم وصف مطران للمكس :

« هي احدى ضواحي الاسكندرية ، قليلة المساكن حقيرتها ، تمتد « سلسلة ابنيتها مستطيلةً بين شاطىء البحر والرمل . الهواء فيها جاف نقي « والبحر شديد الخفوق ، لا يمل من مداعبة الصخور بمثل خشونة « الضواري في تداعبها . والمنظر على الجملة بديع في مطلع الشمس وفي مغربها ، « وللشمس فيها تجليات باهرة خلال الغمام ، وللغمام تشكل وتلون فاتنان ، « وللافق تأنق عجيب في ترتيب قدر المنطقة التي يتحزم بها ، وابرازها في « ابدع زينة ، بين الوردي فالبنسفجي فالفستقي فالزمردي فالازوردي « فالسنجابي فما بينها من الالوان التي تلطف اجتماعها وتزيده بهاء على « التنويع . ومن محاسن المكس ان الحكومة مهملتها ، فهي من اجل هذا « لم تزل قطعة من الطبيعة يعيش فيها الانسان كما يحب ان يعيش المتمتع طالب « الراحة . فاذا مر في طريق ، فالطريق غير ممهدة ولا مستقيمة ولا محفوفة « بصفين من الشجر يحجبان النظر ، كما تُحجب عيون الخيل التي تجر « المركبات . بل هي ضيقة فواسعة ، صاعدة فمنحدرة ، رملية فحجرية ، « ممتدة فمنعطفة ؛ فيها للسائر ما لا يألفه ، فيستجده في كل آن ؛ وفي ما حولها « من المسافات المفتوحة ما ينطلق معه النظر على مدى البحر الفسيح تارةً ، « وعلى مدى الرملة الوعساء طوراً . . . »

« اما الامر الثاني الذي استوقفني وشجاني فهو ما رأيته ، على كثيب « ممتد شبه القتب بين البحر وبين طريق الترام[1] ، من المدافع القديمة ،

(١) قد عنى الكاتب بهذه الكلمة الحافلة ، التي سماها الفرنسيون tramway او tram .

« ادوات الدفاع عن مدخل الثغر . تدل مراكز هذه المدافع على انها كانت
« منصوبة وراء القتب كما تنسّق الابر في ورقتها . وكلها من الطراز الضخم ،
« اذا اقبل عليها الناظر من بعيد ، ظنها بعض الوحوش الضارية من اسد
« ونمر وفهد . فاذا دنا منها ، لم تزل مهابتها من قلبه ، ولكنه رأى الموت قد
« مد عليها كفناً من اشعة النهار وانداء الليل ، ثم طبع عليها اصابعه ، فهي
« منقطة بنقط صفراء نحاسية وخضراء طحلبية على قشر عاتم صادىء .
« ومنها ما انكسرت له ساق فانقلب على جانبه ، ومنها ما اصابته ضربة في
« شفته فانشقت والتوت ، ومنها ما ادلى بعنقه الطويل الى التراب ، كأنه
« يعضه في احشائه . منظر موت وخراب وعار ! دنوت من هذه الاشياء ،
« وانا اسيف ، ارسل النظرة الى الغيب ، فارى بها امم الشرق كلها مجتمعة ،
« تدب دبيب الحشرات ، لاصقة الجباه بالارض من الضعف والجبن ودناءة
« المطالب . واطلق الزفرة من صدري ، فاؤبن بها مجداً عظيماً ملأ العالم زمناً ،
« ثم دفنه ذووه في بعض زوايا الترك والاهمال ، ووكلوا الى الذين ابتلوا به
« قديماً امر البحث عنه وجلاء آثاره التي غالها الصدأ وغشيها نبات النسيان ،
« حتى نخرها الى الصميم . واذرف العبرة فابكي سماء انطوت تحت الجلباب ،
« ونجوماً غارت في التراب ومعالم عامرة صارت الى تباب ! »

من فروع وصف الاخلاق والحوادث الروايات القصصية والتمثيلية . اكثرها معرب بتشويه الاصل في الغالب ، كتعريب مصطفى المنفلوطي لبعض روايات برنردان ده سان بيار (Bernardin de Saint-Pierre) وادمون روستان (Rostand) . اما الموضوع منها في لغتنا فلا يصور معظمه اخلاق اهل الشرق العربي المعاصرين ولا حوادث جيلنا ، كأنه على هامش حياتنا . مع ذلك نرى تباشير نهضة ذلك النوع من الادب في مؤلفات بعض النوابغ ، ومن ابرعهم محمود تيمور المصري ، الذي نجد في رواياته القصصية العديدة وصفاً دقيقاً لاخلاق اهل بلاده .

ترقي العلوم الاجتماعية في الشرق العربي ، ولا سيما في مصر ، قد اغرى فئة من نوابغ الناثرين بمعالجة مواضيعها ، ليس على الطريقة العلمية ، القائمة بسرد الافكار المجردة الجافة ، بل على اسلوب الادب ، الذي يستعمل الخيالات والعواطف بصفة اجنحة رشيقة ، تطير باسمى الافكار وابعدها منالاً الى عقول عامة القراء ، فتلجها من اقرب ابوابها .

ان اختلاف العناصر الجنسية والدينية والطائفية في الشرق الادنى ، مع دوام تصادم مصالحها ، وافاقة الطبقات المتوسطة بل السفلى من سباتها العميق الذي دام عصوراً ، قد اسفرا عن مشاكل اجتماعية ، شديدة الكثرة والتعقد ، فهبت لحلها طائفة من المفكرين اغنت ادبنا العصري بنوع جديد من اغزر انواعه وافيدها للمجتمع . وان تضاربت آراؤهم في هذا الميدان الذي قلما خاض اسلافهم معامعه ، فان نور الصواب هو ، كشرار الصوان او الكهرباء ، وليد الاحتكاك . في طليعة المتمازين بذلك الفن القشيب داود بركات ، سليمان البستاني ، جرجي زيدان ، عباس محمود العقاد ، فليكس فارس ، فيليب حتّي ، نقولا فياض ، الياس الايوبي ، فكري اباظه ، محمود ابو العيون ، امير بقطر ، سامي الجريديني ، توفيق حبيب .

من اصعب المشاكل الحيوية التي حاول حلها الادباء الاجتماعيون ترقية المرأة الشرقية ، ولا سيما المسلمة ؛ وقد وقف المفكران المقدامان قاسم امين وجرجي نقولا باز صفوة مواهبهما وجهودهما على نشر تلك الحركة النسائية ، وكان لبعض اشهر الاديبات قسط وافر في رواجها السريع ، ومن زعيماتهن ملك حفني ناصف وهدى شعراوي المصريتان ولبيبة هاشم اللبنانية .

اليكم نموذجاً بديعاً من ذلك الادب الاجتماعي الحديث ، وهو صفحة لفيليب حتّي ، من نوابغ مفكري الشرق العربي ، يعلل فيها عدم اتحاد اهل سورية تعليلاً جامعاً عمق الفكر وطلاوة التعبير ؛ قد عنى بكلمة سورية

سورية الحالية ولبنان وفلسطين ، لانه كتب هذه المقـــالة قبل الانقسام السياسي الحاضر :

« بفضل موقع البلاد الجغرافي بين القارات التي انشأت التمدن القديم ، « ولانها موطن الديانات اليهودية والنصرانية والاسلامية ، اصبحت سورية « مسرحاً للقتال وجسراً مرت عليه جيوش الغزاة الفاتحين ، من تحوتمس « المصري ونبوكدنصر البابلي الى الاسكندر المقدوني وبومبـاي الروماني « وتيمورلنك التتري ، فريموند الصليبي ونابوليون الفرنسي . ولذلك تعددت « فيها الشعوب والمذاهب وتبلبلت الالسن ، فقويت الروح الفردية وضعف « الميل الى التعاضد والوئام ، ولم تتمكن الامـة من مماشاة الامم الحديثـة « والسير بموجب مقتضيات التمدن الحديث . تلك هي المعضلة التي يجب على « كل طالب ان يدركها ويسعى ، متى كبر ، لحلها . فان لم تتعود احترام رأي « الغير ، ونحن صغار ، وتتمرن على الاشتراك في العمل والخدمة الاجتماعية ، « فلا امل لنا ، ونحن كبار ، بالقدرة على التعاون والرغبة في خدمة المجتمع . « ان لم نتعلم في المدرسة وفي العائلة امثولة التضحية في سبيل الغير والخـير « العام ، فلا يُرجى منا ذلك ، ونحن كبار . »

ها كم الآن قسماً من محـاضرة في غاية التربية ، القتهـــا الـكاتبة الاجتماعية الشهيرة لبيبة هاشم في الجامعة المصرية في القاهرة :

« نعم ان من الامراض ما هو موروث كبعض المنـاقب والشوائب ، « لا يمكن شفاؤه بمجرد العنـاية الجسدية ، على انه كثيراً ما يكون مرض « الاطفال وموتهم مسببين عن جهل الامهات قوانين الصحة ، فانه يُستدل « من الاحصاء الرسمي ان عدد الوفيات يزداد في الاطفال زيادة مطردة على « نسبة تأخر الامـة وجهلها قواعد التربية الجسدية . ويسوءنا القول ان « معدل موت الاطفال في القطر المصري اكثر منه في سائر اقطـار العـالم ، « وفي ذلك دليل واضح على ان فن التربية مجهول عندنا تماماً . ولا غرو ،

« فنحن نرى فتياتنا وشباننا يقدمون على الزواج ، وكلهم[1] يجهل الواجبات « الوالدية تمام الجهل . فالشاب المتعلم لا يعرف سوى العلوم التي التقطها في « المدرسة ، او الصناعة التي يشتغل بها للقيام باوده ؛ والفتاة اما ان تكون « امية جاهلة ، او عارفة بالتطريز والعزف على البيانو والتكلم بلغات الاعاجم . « فاذا ما رُزقا اولاداً ، حارا في كيفية تهذيبهم واخذا يخبطان في تربيتهم « خبطاً قد يودي بحياتهم ويفسد اخلاقهم ، حتى اذا مات احد منهم ، قالا « هذا عمره » ، ومن عاش مسقوماً ، سيء الخُلق ، رديء السيرة ، قالا « تلك قسمته » . وهكذا يقتل الآباء والامهات اجساد اولادهم ونفوسهم « وآدابهم ، لقلة اختبارهم وتعرضهم لمهنة لم يسبق لهم علم بها ولم يستعدوا لها . . . »

من اصعب المشاكل الاجتماعية التي لا تزال في انتظار الحل الجازم المرضي ، في كثير من اقطار الشرق العربي ، معضلة السيادة القومية المطلقة . وقد انتج اكباب نفر من اعلام ادبائنا على معالجتها فناً جديداً في ادبنا العصري ، وهو الخطابة الوطنية . لا مراء في انها من مبتكرات حضارتنا الحديثة ، التي سمت بعقول المصريين ، السوريين ، اللبنانيين ، والعراقيين وغيرهم من الشعوب الشرقية الى ادراك معنى الوطن ، وبقلوبهم الى التضحية والاستماتة في سبيله . فنهض بينهم خطباء مفوهون ، من امثال مصطفى باشا كامل وسعد باشا زغلول المصريين ، يلقون على الخاصة والعامة خُطبهم المشعلة في الصدور حب الوطن والتوق الحار الى التهالك على رفع شأنه ؛ وقد سجل التاريخ ان هذين البطلين قد وضعا بفصاحتهما الرائعة وعزمهما الفولاذي اساس استقلال ارض الفراعنة ذات العز التالد والطريف . ها كم نموذجاً من بلاغة مصطفى باشا كامل الآخذة بمجامع القلوب ، كأنها نيران مندلعة من فوهة بركان :

---

(١) في هذا التعميم مبالغة واضحة .

« مهما قال القانطون اني اعرض نفسي للدمار في سبيل امة لا يُرجى
« لها النجاة ، وان الخطيب بين المصريين انما يخطب في الصحراء ، لا
« يُسمع له قول ولا يُجاب له نداء ، فاني ارى ان اليأس من مستقبل مصر
« ضرب من ضروب الجنون ، واعتقد ان الامة المصرية لم تُخلق عبثاً في
« الوجود ، واعلم ان الوطنية الحقيقية تقضي على صاحبها ان يعمل لامته في
« وقت شقائها اكثر من عمله في وقت عزها ورخائها ، وان يضحّي بكل
« نفيس لاجل سعادتها ، لينال الشرف الحقيقي في حياته والمجد الابدي بعد
« مماته . ولذلك عاهدت نفسي امام الله وامام الناس ان اجعل حياتي هبة
« لبلادي ، وان ابذل في سبيل سلامة هذه الديار قصارى الجهد ، مهما لاقيت
« من المتاعب وصادفت من المصاعب . ويعلم الله انه ، لو انتقل فؤادي من
« الشمال الى اليمين ، او تحولت الاهرام من مكانها المكين ، لما تغير لي مبدأ
« ولا تبدل لي اعتقاد ، بل تبقى الوطنية رائدي ونبراسي ، ويبقى الوطن
« كعبتي ، ومجده غاية آمالي . . . نأخذ من المدنية الغربية زينتها وزخرفها
« ونترك الوطنية ، وهي اساس تقدمها ودعامة حياتها ووجودها . انترك
« فضائلنا الاولى وننسى مبادىء ديننا ، ونطوي صُحف التاريخ بما فيها من
« الحكم الباهرات والعظات البيّنات ؟ اتكون مصر وطناً لنا ، واللغة
« العربية لغتنا ، والاسلام ديننا ، ونكون آخر الامم واحط الشعوب ؟ . . .
« لقد آن لكم ، يا بني مصر ، ان تهبّوا من رقدتكم وتنتبهوا من غفلتكم
« وتجمعوا كلمتكم وتضموا اصواتكم ، وتأخذوا بيد الوطن الذي يسألكم من
« عميق هاوية المذلة ان ترفعوه الى اسمى مقام . اما ترون كيف يُعجب اهل
« الارض قاطبةً اشد الاعجاب باصغر الامم ، اذا اجتمع ابناؤها حول راية
« الوطن وصدوا عنه المعتدين ؟ . . . »

اسمعوا الآن هذه المقتطفات من خطاب سعد باشا زغلول ، عند عودته سنة ١٩٢١ من انكلترة ، حيث دافع اشد الدفاع عن دعوى استقلال وطنه

المصري العزيز :

« اريد في وسط هذه المظاهر الهاتفة ان اوجه شكري وثنائي الى « الذين اشتركوا في تأسيس مجدنا وتوفير سعادتنا وانعاش آمالنا . اتوجه ، « والخشوع يملأ جوارحي ، الى تلك الارواح الطاهرة ، ارواح اولئك « الابطال الذين نادوا بالحق ، والحق مُنكر ، ففاضت ارواحهم ، والسنتهم « تردد ذلك النداء ؛ فاضت وقد شرفونا باقدامهم ، والزموا الكل باحترام « مصر واسمها ، وبيضوا وجوهنا ! والآن فليناموا هادئين ، فقد انبلج فجر « الاستقلال مضمَّخاً بدمائهم ، وخلّفوا من بعدهم من يستحق ذلك الفداء ! « يبيّض الله برحمته اجداثهم ، واسكنهم جنات العلاء ، وارضى عن اعمالنا « ارواحهم ، واراحهم بتحقيق آمالنا ! لله در الشبيبة ما فعلت ، فانها قد « فتحت ما ضمت صدورها من كنوز الفتوة ، وملأت قلب البلاد عزةً « وحماسةً ، وملأت رؤوسها حكمةً ، وملأت حركاتها نظاماً . تلك الشبيبة « التي هي عماد الحركة الحاضرة ومبعث انوارها الساطعة ، اشكرها شكراً « جزيلاً ، وارتاح جداً لان المستقبل سيكون بيدها ، وهي يد ماهرة . « اشكر العلماء والقسس الذين باتحادهم ابطلوا حجة في يد الخصوم ، طالما « اتخذوها سلاحاً قاطعاً . ازالوا الفوارق واثبتوا ان الديانات واحدة تأمر « بالدفاع عن الوطن ، وانه ليس لها تأثير الا في عبادة الخالق ـ جل وعلا ـ « اما في الوطن فالكل سواء . واشكر ايضاً الامراء الذين حملهم ما ورثوه « عن آبائهم من المجد والفخار ان ينزلوا الى صفوفنا ، وينضموا الى التاجر « والصانع والزارع والعامل وكل من يخفي تحت تلك الثياب الزرقاء والبيضاء « نفساً كريمة وقلباً ابياً . انضموا الى هذه الصفوف لاجل ان يستحقوا « بعنوان آخر ذلك المجد الذي ورثوه عن الآباء ، فشكراً لهم ثم شكراً ! « والحق ان كل انسان من المصريين قد قام بالواجب عليه ، وكلٌ نافس اخاه « في القيام بهذا الواجب وزاد عليه ، ليكون ممتازاً على اقرانه بشيء في خدمة

« الوطن العزيز ؛ فكلكم شاكر وكلكم مشكور . ومن مجموع هذه المساعي
« سارت قضيتنا الى هذه النقطة الحاضرة ، فاننا لما قلنا ان الحماية لاغية ،
« اعلن الانكليز اليوم انها ليست باقية ، واظهروا استعدادهم لاستبدالها
« بعلاقة اخرى راضية . والفضل في هذا الفرق العظيم لسعيكم ، لا لسعيي ،
« وللتمسك بالمبادىء السامية ؛ فاهنأوا بما نلتم واثبتوا ، حتى تفوزوا
بالاماني الباقية ! »

بجانب ائمة الخطابة الوطنية قد نبغ بعض ادباء جيلنا ، من اعضاء الاكليرس الكاثوليكي ، بفصاحة مواعظهم الممتازة بعمق الافكار وكثرة الخيالات وحرارة التقوى ، والمزدانة بحلية العروبة المحضة ؛ في مقدمتهم الاسقفان الملكيان جرمانوس معقّد وغريغوريوس الحجّار . اليكم صفحة من عظة لاولهما على الموت :

« انظروا هذه الحفرة ، فهي مسكن زيد ، صاحب الاملاك الواسعة
« والثروة الوافرة التي تفانى في جمعها ، ثم تركها ورضي منها مُكرهاً بقيد
« ذراعين ! اترون هذا اللحد ؟ فهو مأوى عظام رجل شرير مات قتيلاً .
« وامامكم قبر رجل قبيح السيرة ، فاجأته المنية وهو منغمس في حمأة
« الشهوات . وهنالك رمس مُراب سلب كثيرين اموالهم بما اخذه منهم من
« الربا الفاحش ، ثم مات ولم يرد المسلوب وترك امواله لبنيه ، فانفقوه في
« وقت قصير على الملاهي والمسكرات . اترون ذلك الجدث الحقير ؟ فهو
« مسكن عظام رجل كان يعاقر المسكر ويلازم العشرة الرديئة ، فمات وهو
« سكران . انظروا تلك المدافن الضخمة ، فهي مأوى رفات الذين سادوا
« وشادوا ، وسلبوا ونهبوا ، وافرطوا في متابعة الشهوات واللذات ، ثم قضوا
« ولم يُقض لهم وطر ! هذه ارماس السادة وهذه اجداث العبيد ، وكلهم في
« الفناء متساوون ؛ ساوى بينهم الردى والغى الموت الامتياز بينهم . إلتفتوا
« الى هذا اللحد المفتوح ، وشاهدوا هذه العظام النخرة البالية ، فهي ما بقي

« من ذلك الهيكل الانساني البديع ؛ فالى مثلها انتم صائرون ! فكيف
« تفرحون بالدنيا ولذاتها ، وهذا مصيركم ؟ وكيف تركضون في طلبها ،
« وهذا محط رحالكم ؟ افتحوا عيونكم ، ايها الغافلون ، وابصروا . فالى
« متى تتناسون الموت ، والموت يجري وراءكم ، وتظنونه بعيداً ، وهو اليكم
« اقرب من الحاجب الى العين وادنى من قاب قوسين ؟ »

هاكم شطراً من العظة البديعة التي القاها الاسقف غريغوريوس الحجّار في كاتدرائية الملكيين في زحلة ، يوم ٨ حزيران ١٩٣٩ ، بعد ختام التطواف بالقربان المقدس في انحاء تلك المدينة :

« محبة الله تدفعه نحو خليقته الناطقة التي هي نحن ، لانه رأى فيها
« صورته واحبها ، كما قال الكتاب ، محبة ازلية . وقد خلقنا نحن ايضاً
« للاتحاد به ؛ لذلك يرينا الكتاب المقدس البارىء ـ جل وعلا ـ يتحدث في
« الفردوس بكلام رمزي مع آدم قبل السقطة . ولما جاءت الخطيئة وفصلتهما ،
« وحجبت الخالق عن خليقته ، بقيت الانسانية تتألم بوحشة هائلة ، وتعاني
« الم الجوع والظماء الى الهها ، وملأت الفضاء انيناً وصياحاً نحو السماء لتمطر
« الصدّيق ، ولم يُضعف جوعها وعطشها مرور الايام وتوالي العصور .
« فلم تكن الوثنية على قبحها الا مظهراً من مظاهر تلك الرغبة الشديدة ، اي
« شهوة اتصال الانسانية بخالقها . فلما تجسد ذلك الاله المنتظر ، اتحد
« بطبيعتنا اتحاداً فردياً ، فاصبح لنا اخاً نأنس به . اتظنون ذلك كافياً لنا
« ولله ؟ ان حب الله لم يقل كلمته الاخيرة !

« تألم ومات على الصليب فداءً للانسان الذي احبه : « هكذا احب الله
« العالم حتى بذل ابنه الوحيد ! » افترى الحب الالهي قال كلمته الاخيرة
« بذلك ؟ لا ، ايها الاخوة . ان الحب يريد اتصالاً اتم ؛ يريد الاتحاد بكل
« ما يستطيع المحب من الوسائل . فتصوروا الآن حباً غير متناه ، تخدمه قوة
« غير متناهية ، حباً يريد الاتحاد بمن يحب ، اي بنا ، وقوةً تستطيع ان

« تمهد له كل سبيل وتذلل كل صعب . فهل من عجب ان تكتسح تلك القوة
« كل شرائع الطبيعة بما تعجز عنه مداركنا الضعيفة ؟ لذلك عمد الحب
« الالهي الى تجسد آخر يزيد به تنازلاً ، مُفرغاً ذاته كما يقول الرسول ،
« لا ليأخذ صورة عبد ، له جلاله وجماله وكماله وحركاته الفتانة ، بل ليكون
« جامداً ، لا حراك ولا مظهر له من مظاهر الحياة ! في ذلك العشاء السري ،
« بينما كان بنو البشر يكيدون له المكايد اللئيمة الخبيثة لكي يميتوه ، كان
« هو يفكر بان يهبهم الحياة ويهبهم اياها بوفور اشد ، كما قال الكتاب وكما قيل
« اريد حياته ويريد قتلي ! » لذلك عمد الى كسرة من الخبز والى قليل من
« الخمر ، وبذلك الصوت وتلك القوة اللذين قالا للكائنات « كوني » ، فكانت ،
« امر بان يصير الخبز جسده والخمر دمه ، وشاء ان يبقى على تلك الصورة ،
« ليذكرنا محبته الدائمة ، اذ قال : « اصنعوا هذا لذكري . »

النقد الادبي الذي لا يرتكز على اساس واه من التأثيرات الشخصية المختلفة باختلاف اذواق الافراد ، بل على قاعدة راسخة من اصول الادب الصحيح ، الثابتة بجوهرها عند كل الشعوب المتمدنة ، القديمة والحديثة ، ذلك النقد الجامع حقيقة العلم وجمال الادب لا يزال عندنا في دور الطفولة . مع ذلك قد برّز فيه فريق من جهابذتنا المعاصرين ، وفي طليعتهم طه حسين وعباس العقّاد وابرهيم المازني في مصر ، سليمان البستاني ، ميخائيل نعيمه ، انيس الخوري المقدسي ، انطون الجميّل والآنسة مي بين ابناء لبنان ، قسطاكي الحمصي وشفيق جبري وخليل مردم في سورية . ها كم صفحة نفيسة من نقد طه حسين لنثرنا في العصر الاخير :

« في الحق انك حين تقرأ هذا النثر الذي كان يُكتب في الشرق
« العربي في اول القرن الماضي ، لن تشعر بالفساد الفني الادبي وحده ،
« ولكنك ستشعر قبل هذا بخلو ما تقرأ من المعنى القيّم وباعدام هذه العقول
« التي يترجم عنها هذا النثر . وستشعر بعد هذا بما ينتج عن إعدام هذه

« العقول وفقرها من الفساد الفني الذي يتصف به النثر العربي في كل العصور
« التي ضعفت فيها الحياة العقلية الفلسفية . لا يخدعنك ما ترى من هذه
« الزينة اللفظية والبهرج البديعي والبياني ، من سجع وتكلف في الاستعارة
« والمجاز ، وفي التشبيه والكناية والتورية وما اليها . فليس هذا كله الا
« تكلف المعدم البائس ، يريد ان يظهر مظهر الغني المثري . انما مثل هؤلاء
« الكتّاب الذين يتكلفون الوان البديع والبيان في غير فائدة ولا جدوى ،
« مثل هذه المرأة ، اعوزها الجمال الفطري ، فهي تتكلف الزينة ، واعوزها
« حُسْن الحُلى ، فهي تخدع الناس ببهرجة زائفة . ومن هنا تستطيع ان
« تلاحظ ان النتيجة القيّمة التي جاء بها القرن الماضي في النثر العربي ، انما
« هي اطلاق النثر من هذه القيود البديعية والبيانية . وهو لم يطلقه من هذه
« القيود عبثاً ، وانما اطلقه منها ليمنحه هذا الروح القوي الذي مكّنه من
« ان يستقل بنفسه ويستهوي العقول والالباب قليلاً قليلاً . وهذا الروح
« القيم الذي بث الحياة في النثر العربي ، والقى عنه هذه اللفائف البالية التي
« كانت تثقّله وتعوقه عن الحركة ، انما هو المعنى ، وهذا المعنى انما جاء من
« الحياة العقلية التي انشطها العلم والفلسفة في القرن الماضي . وليس ادل على
« صدق ما نقول من انك تنظر فترى انطلاق النثر من هذه القيود وبراءته
« من هذه الاغلال لم يأتيا عفواً ولم يتما فجأةً ، وانما كانا رهينين بوجود
« الصلة ونموها بين الشرق والغرب ، اي بين العقل المعدم والعقل الغني . »

إسمعوا الآن نقد قسطاكي الحمصي المتبّل بالفكاهة لتقفية اكثر شعراء جيلنا آثار اسلافهم النوابغ في القريض ، بدون ادنى ابتكار وطبيعية :

« ليس قصدي الحط من قدر الشعر القديم او طريقته ، فذلك مما لم
« يدُر في خلدي ، وقدره فوق ذلك ، غير انه من حقه ان يصبح كسائر
« العاديات النفيسة ، فيُحتفظ به ويتنافس فيه تخليداً لفضل قائليه وتأريخاً
« لاحوالهم في تلك العصور . واما نهج منهاجهم بعينه وتحدي كناياتهم

« وتعبيراتهم فمما يمجه الذوق في هـذا العصر . واقرب منه تكليفك احـد
« الشعراء العصريين اللابس آخر زي من لبـاس اهل باريس البـالغ منتهى
« الرشاقة ، ان يتزيا بزي البُحتري مثـلاً ، فيضع على رأسه عمامة كأنهـا
« غمامة ، ويلبس سراويل تسع جثة فيل ، ويرتدي جُبة تدخل في احد
« اكمامهـا قبة ، اذ ما الفائدة او اللذة من اتيان الشاعر المصري او الحلي
« بذكر الاظعان والهوادج ، والتشبيب ببنت الحي وربعها والتغزل بخمارها
« وخلخالها ، والبكاء على رسم طلولها الدارسة ، والتشوق الى المياه والمناهل ،
« وتذكر الاحبة عند خفوق البرق ، الى ما اشبه ذلك من الامور الـتي
ذهب زمانها . . . »

قلنا ان اجمل انواع نثرنا الوصف ، ولا سيما وصف الاخلاق وتحليل بواطن النفوس ، المباحث الاجتماعية ، الخطـابة الوطنية والدينية ، النقد السديد الجسور . يلوح اول وهـلة ان تلك الانواع لا رابطة بينها سوى انتمائها الى الادب ، بيد ان من امعن النظر فيها لا يلبث ان يكتشف بينها قرابة وثيقة . وهي كونهـا ، على اختلاف اساليبها ومراميها ، مرتكزة كلهـا على مراقبة الاشخاص والاشياء والاحوال ، بقصد التعمق في فهمها والتمييز بين خلهـا وخمرهـا . وغاية ذلك التقصي هي واحدة ، نعني ترقية مستوى الشرق العربي في احواله الدينية ، الخُلقية ، الادبية ، الاجتماعية والسياسية . فيسوغ التصريح بان الادب العربي دائب في عصرنا على اقتباس مادته من صميم الحياة ليستطيع اصلاح الحياة ، بعدما ظل في دور الانحطاط الطويل ميتاً ، ملفوفاً بكفن التقليد والانتحال للادب الحي القديم ؛ فحسبه الآن مجداً يبشرنا بقرب قدوم دور ذهبي من اجمل ادوار آدابنا .

انحطاط النقد الادبي عندنا

قد بلغ فن النقد من عهد عهيد اوج الكمال بين ارقى الشعوب الغربية ، فاصبح لآدابهم بمثابة رقاص الساعة ، ينظم سيرها تنظيماً مطرداً . فلا يظهر مؤلف ذو شأن الا تناوله الناقدون وحللوه تحليلاً موضوعياً دقيقاً ، مميزين غثه وسمينه ، ومقدمين للجمهور نتيجة فحصهم في اشهر الجرائد والمجلات . على هذا الاسلوب يظل الغرب في مستواه الرفيع وتتثقف الناشئة المتأدبة تثقفاً قويماً ، يؤهلها لاخذ قسطها في المستقبل من الادب العالمي العالي .

اما عندنا في الشرق العربي ، فلا يزال النقد وليداً مقمّطاً . ناقدونا البارعون من امثال ميخائيل نعيمه في لبنان وطه حسين والعقاد والمازني في مصر ، يكادون يُعدون على الاصابع ، بل كثيراً ما نراهم كالصارخين في البرية ، فان معظم ادبائنا يُصمون آذانهم عن سماع انتقادهم السديد ، ناقمين عليهم احتقارهم للادب الزائف ، الكثير الرواج في بلادنا ، ورامين اياهم بالتفرنج والتطرف والميل بالادب العربي البحت عن منهجه القويم الذي سلكه منذ اقدم العصور . انما الطامة الكبرى كثرة المتطفلين في مجالس النقد ومكاتبه ، المدعين التضلع من اصوله ، وهم يجهلونها جهلاً مركباً ، الجاعلين ذواتهم قضاةً في دولة الادب ، وهم احرى الناس بان يقفوا في محاكمها ناكسين رؤوسهم ، لسماع حكم الثقات الجازم على عمايتهم .

ما الذي سبب للنقد العربي تلك العثرة الشائنة ، وبأي ذريعة يسوغ امل اقالته منها ؟ نرى ان علة هذا الزلل الجوهرية ضعف شديد مزدوج في العقل والارادة ؛ اليكم بيان ذلك ببعض الاسهاب .

الضعف العقلي هو جهل اكثر ادبائنا العصريين ، حتى المشاهير ، قواعد الادب الصحيح ، التي خضعت لها ارقى آداب العالم المتمدن ، من اليونانيين والرومان القدماء الى اسمى الامم الحديثة حضارةً ، كالفرنسيين ،

الانكليز ، الالمان ، الايطاليين ، الروس وغيرهم . تلك القواعد ثابتة في جوهرها ، لا يمسها انقضاء الزمان وتنوع المكان بادنى تغيير ، فهي من هذا القبيل شبيهة بنواميس الطبيعة التي سنها وثبتها الخالق القدير . يسوءنا التصريح بان ادبنا العصري لا يزال في جُملته حائداً كل الحياد عن تلك السُنن الدولية القويمة ، بل منكراً اياها كل الانكار ، ومدعياً بسذاجة الاطفال المضحكة ان له سنناً اخرى مختصة به ، فيتقيد بها سائراً في طريقه بمعزل عن امدن الشعوب .

ما هو دستور هذا الادب الشاذ ، كأن اربابه من غير بني آدم ، بل جُبلوا جبلة وحيدة في نوعها ، فلا نظير لها على الكرة الارضية ؟ يسوغ لنا تحديده بكلمتين ، لا غير : ادبنا العصري على وجه الاجمال ادب لفظي ، تقليدي ، ولا مندوحة عن ايضاح ما انطوى في ذينك النعتين .

هو ادب لفظي . نعني بذلك ان جُل اهتمام اكثر ادبائنا محصور في تنميق جُملهم ، لا في سداد المعاني وجدتها وجمالها . حسبنا دليلاً على ذلك ان العُدة التي يُعدونها لدخول ميدان الادب لا تقوم في الغالب الا بدرس النحو والصرف وعناصر اللغة ، فيتوهمون انهم على اتم التأهب لاحراز قصب السبق في النثر والشعر . لم يدركوا ان كل مقتناهم هو مادة الادب ، لا روحه ، فهو بمثابة الريشة في يد المصور او العود بين انامل العواد ، هيهات ان يغنياهما عن التضلع من اصول التصوير او الموسيقى .

ليت شعري من من اولئك الادباء اكب على درس قواعد الادب ، كما يفعل رصفاؤهم الغربيون في الكليات ، بل في المدارس الثانوية ، فقد وُضعت لتلاميذها مئات من الكتب النفيسة لتلقينهم ، على اسلوب نظري وعملي ، اصول فن الادب العسير ؟ اما نحن فنجتزىء بتعليم طُلابنا في بعض المعاهد اصول البيان والبديع ، التي لا تكاد تتجاوز حدود المحسنات اللفظية ، فلا توقف الطالب على لباب الادب المغذي للنفوس ، بل على قشره الذي يروق

العيون بالوانه الزاهية .

فلا بدع ، وحالتنا هذه ، بان نرى كثيراً من نُقادنا ينعمون النظر على الاخص في المبنى دون المعنى . ينتبهون كل الانتباه لصحة التعبير وحظه من العروبة المحضة ، وقلما يميزون الرغوة عن الصريح في جوهر منتقداتهم ، نعني الافكار والعواطف ، المبادىء والنزعات ، كأنها جديرة بان تُلقى في زوايا الاهمال . اسمعوا ما قاله ابرهيم عبد القادر المازني ـ وهو من ائمة النقد في جيلنا ـ عن عُباد صنم اللفظ اولئك : « اليس احدنا بمعذور ، ان هو « صرخ ، وبه من سانح اليأس خاطر : يا ضيعة العمر ! اقص على النـــاس « حديث النفس ، فيقـولون « ما اجود لفظه او اسخفه » ، كأني الى اللفظ « قصدت ، وانصب امام عيونهم مرآةً للحياة تريهم ، لو تأملوهـا ، نفوسهم « بادية في صقالها ، فلا ينظرون الا الى زخرفها والى اطارها ، هل هـــو مفضض ام مذهَّب . »

من ذلك الشغف المفرط باللفظ دون المعنى قد نجمت فيلولة آراء اكثر الناقدين في نقدهم . الكلمات البسيطة المأنوسة لا تروقهم مهما شفّت عنه من اسد الافكار واعمقها واجدّها ، او من اسمى العواطف واشدهـا وارقها . اما رنة الالفاظ الحوشية بل المماتـة ، وان كانت افرغ من يد القـابض على الهواء ، فانها تشنف آذانهم وتسحر البابهم ، كأن كلمات اللغة قـد وُضعت لذاتها ، لا لتأدية ضمير الكاتب الى القارىء على اوضح الطرق واسرعهـا ، او كأن الكتابة الادبية المثلى ضرب من الالغاز الغامضة ، لا يدرك فحواها سوى المُلغز .

يضلون ايضاً ضلالاً فاحشاً اذ يعدون الحشو بكل انواعـه من اجمل حُلى الانشاء ، جاهلين ان التعبير ثوب المعاني ، فلا بد ان يفصَّل على قدرها ، بدون اطالة ولا تقصير ؛ لولا ذلك لبات الـكلام الادبي ثرثرة باطلة ، مما لا يطاق في الحديث اليومي المبتذل ، حتى بين الاميين . اليس عاراً كبيراً على

ادبنا الناهض ان يلقّب مصطفى لطفي المنفلوطي بامير النثر ، وذلك في مصر ، مركز هذا الادب في العالم العربي ، مع ان انشاءه قد بلغ من فرط الحشو الممل ما لا يترك زيادة لمستزيد ؟ فتحنا الجزء الثالث من كتابه « النظرات » ، لنورد برهاناً على صحة رأينا . وقع نظرنا على الصفحة ١٨ ، فوجدنا الحشو لحمتها وسداها ؛ دونكم نموذجاً منه : « احب ان يمر بجميع الطبقات « ويخالط جميع الناس ، ويذوق مرارة العيش ويشاهد بعينيه بؤس البؤساء « وشقاء الاشقياء ، ويسمع باذنه انات المتألمين وزفرات المتوجعين . . . لتنمو « في نفسه عاطفة الرفق والرحمة ، فيعطف على الفقير عطف الاخ على الاخ ، « ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم . » في بلاد الغرب لا يُغض النظر عن مثل هذا الذوق الفاسد في فرض تلميذ صف متوسط ، حتى في المدارس الابتدائية .

من اكبر الشوائب الناتجة عن ايثار الالفاظ على المعاني ، المبالغة الفاحشة في التعبير ، والحال ان اكثر نُقادنا لا يرونها وصمة شائنة ، بل زينة فاخرة ، يُعجبون بها ويطرئون صاحبها ، مع انها كافية ، هي وحدها ، لتُسقطه من عين ادباء الغرب ونقدتهم . ها كم بعض الامثلة على تلك المغالاة الطفلية في انشاء طائفة من اشهر كتابنا المصريين . قال حافظ ابراهيم في رثاء مصطفى باشا كامل ، منشىء الحزب الوطني المصري :

فيا نيل ، ان لم تجر بعد وفاته دماً احمراً ، لا كنت يا نيل جاريا !

يصف نجيب الحداد قطار السكة الحديدية هذا الوصف المستهجن :

فطيرٌ بلا جنح[1] وطودٌ بلا بقا وبرقٌ بلا جو وهاد بلا فكرِ .

يصور لنا مصطفى الرافعي فرط حزنه منشداً :

ولي زفراتٌ لو تجسم حرها ، لاصبح شمساً في الفضاء تُنير .

لقد اوضحنا ان عامة نقادنا ، ما عدا بعض النوابغ ، ينحرفون بنقدهم

---

(١) ليست هذه الكلمة بمعنى جناح كما توهم الشاعر .

عن مهيع الصواب لان جوهر الادب في نظرهم هو اللفظ المزخرف ، المحض العروبة ، لا المعنى السديد العميق المبتكر الجميل . فضلاً عن ذلك يخطأون خطأ كبيراً بزعمهم ان الادب فن تقليدي ، لا محيص له عن التقيد المطلق باساليب ائمته القدماء في اللغة وانواع الادب وكيفية معالجتها . ذلك رأي فائل عقيم ، ينكره جهابذة الغرب كل الانكار ، فانه يحول الادب الى شبه مومياء محنطة ، فيقتله قتلاً ، مع انه في الحقيقة فن حي ، نام كسائر الاحياء ، يتحتم عليه ان يماشي اهله في كل عصر ومصر ، ويترقى بترقي حضارتهم ، ويتكيف بتكيف مميزاتها ، فيصبح صورة صادقة دقيقة ، يستشف من ورائها الخلف ما اضمره السلف من افكار ، واهتز به من عواطف ، ورمى اليه من مقاصد .

بعكس ذلك الرأي الصائب في كنه الادب نرى اكثر نقادنا يُجلون الاديب المقلد المنتحل ، الجاعل مثله الاعلى في حذوه حذو الاقدمين ، كأن الادب ضرب من النسخ مع بعض التصرف الزهيد ، لا ابتكار في المعاني والمباني .

عامة نُقادنا يعنّتون الكاتب العصري في شأن اللغة ، فلا يأذنون له في زيادة ادنى شيء على عناصرها القديمة ، المسجلة في القواميس . يجهلون - وبعض الجهل اثم - ان اللغة كائن حي ، يولد كبقية الاحياء ، ثم يترعرع الى ان يبلغ اشده ، وفي الختام يشيخ ويهرم ، فيموت بموت الشعب الناطق به او بغير ذلك من عوامل الزوال . لم يخطر البتة ببال اولئك الجامدين المتحذلقين ان العرب ، الذين لا يفتأون يفتخرون بالانتماء اليهم ، لم يروا رأيهم هذا الفائل ؛ ولولا ذلك لما اغنوا لغتهم الاصلية بآلاف من الكلمات والتعبيرات المبتكرة اللبقة ، فجعلوها من اغنى اللغات . اذا سلّم نُقادنا - ولا مندوحة لهم عن ذلك - بما طرأ عليها من التطور الشديد في القرون الخالية ، فبأي منطق يُنكرون عليها مثله في عصرنا ، وهو عصر

انبعاث ادبها وترقي حضارة العالم العامة الى مستوى لم يحلم به اسلافنا ؟ كيف يُجيزون للعربي البدوي ، الذي عاش ومات منذ مئات الاعوام ، ما لا يجيزونه لابن جيلنا من التصرف المعتدل في اللغة العربية ، مع المحافظة على جوهرها وقواعدها ؟

قد احتج اللغوي الشهير جبر ضومط على ذلك الضلال الشائن والتعنيت المنكر بقوله ؛ ونعم القول : « الذين يحاولون ابقاء اللغة العربية على ما كانت « عليه في الفاظها وعباراتها وهيئات تراكيبها ، لا يسمحون بزيادتها بوجه « من الوجوه ، لا بالاستعارة ولا بالاشتقاق ، هؤلاء ينادون بان اللغة العربية « قد ماتت او شاخت . وان انكروا ذلك وسلّموا ، كما هو الواقع ، بان اللغة « العربية لغة حية نامية ، فعدم رضاهم بزيادة مفرداتها ، لا بالاستعارة ولا « بالاشتقاق ، تصريح واضح بانهم يسعون بكل مُكنتهم الى اماتتها . ولا نعلم « اذلك من محبتهم لهذه اللغة الشريفة ام من بغضهم لها . »

محافل الغرب الادبية واللغوية تُعنى اشد العناية بمجاراة اللغة في تطورها البطيء المتواصل ، فتجعل في معاجمها ، المتجددة طبعاتها بين آونة واخرى ، مكاناً رحيباً لما جرى على السنة القوم او اسلات الاقلام الفصيحة من مبتكر الالفاظ والتعبيرات ، وتهمل ما اضحى مُماتاً منها في انشاء النوابغ. اما مؤلفو قواميسنا الحديثة فانهم ، بعكس ذلك ، يحرصون اشد الحرص على تدوين كل شوارد اللغة القديمة ، ولو اصبحت الآن نسياً منسياً ـ وفي ذلك ما فيه من الفائدة لاستجلاء غوامض اقدم الآثار الادبية ـ على انهم لا يراعون حقوق التطور ، فيأنفون من تسجيل العناصر الجديدة في لساننا ، ولو حفلت بها مؤلفات خيرة كُتابنا العصريين . اين الصواب من ذلك التعنيت المفرط ؟ الم نُخلق في القرن العشرين الا لنحذو حذو القدماء ، فيُحظر علينا ان نتصرف في اللغة تصرفهم المعتدل فيها ؟

فضلاً عن حصر اللغة الحالية ضمن حدودها العهيدة ، يدعي اكثر نقدتنا

تقييد قرائح ادباء جيلنا بالوان الادب التي عالجها القدماء، وذلك تضييق بل اسر مُذل، يخنقها خنقاً. هنا ايضاً، لو تبصروا في الامر، لايقنوا ان العرب كانوا ارحب منهم صدراً، فقد توسعوا في مذاهب الادب، وزادوا تفسحاً فيها بعدما خالطوا فئة من ارقى الشعوب، فمهدوا له عدة مناهج جميلة لم يسلكها جدودهم قط. فلماذا ينقم النقاد على ادباء هذا العصر إقدامهم الحميد على شق طُرق جديدة لادبهم؟

نظم القدماء جُل شعرهم في المدح، الرثاء، الغزل، الهجو، الحماسة، الزهد، الحكم وبعض انواع الوصف، ونرى التطور بادياً للعيان في تلك المواضيع وكيفية معالجتها. فبأي حق يقيد النُقاد شعراء جيلنا بتلك الانواع من القريض دون سواها، غير آبهين لما طرأ على محيطنا وثقافتنا، ومن ثم على افكارنا وخيالاتنا وعواطفنا، على اشغالنا وهمومنا ونزعاتنا، من الطوارىء العديدة، التي لا بد ان ينطبع ادبنا، ولا سيما شعرنا، بطابعها الخاص، ليكون ادباً مقتبَساً من صميم الحياة، لا من صفحات الكتب، بحيث ترتسم فيه، بكل الوضوح والدقة، ملامح نفوسنا للاجيال المقبلة، كارتسام ارواح الغابرين في ادبهم؟

لقد بلغت العاطفة القومية الوطنية في الاقطار العربية، على عهدنا، مبلغاً من الحرارة لا مندوحة عن ظهور اثره في آدابنا؛ ذلك ما نراه في كثير من قصائد فحول شعرائنا: خليل مطران، حافظ ابراهيم، عباس العقّاد، ميخائيل نعيمه، الياس فرحات وغيرهم. افيُعد ابتداع الشعر الوطني خروجاً على الادب القديم، ام بالاحرى تكملةً له وتوسيعاً لمناهجه؟

قد اهمل الاقدمون من ضروب الادب الرواية التمثيلية، التي برع فيها الرومان واليونانيون، رواد التمدن الحديث وقادته، فاقتفى آثارهم مئات من صفوة ادباء الغرب في القرون الاخيرة. افيحول إحجام العرب دون طرقنا هذا الباب من ابواب الادب الراقي، مع ما فيه من جليل الفائدة لتثقيف

الاخلاق وبث المبادىء السديدة والعواطف النبيلة ، فضلاً عن كون تصويره للاشخاص والحوادث بالغاً من الدقة والحيوية ابعد حدودها ؟

نكتفي بذينك المثلين لبيان شطط اكثر نقادنا في اصرارهم على تضييق نطاق الادب العصري وحبسه في دائرة المواضيع القديمة ، فنباشر وصف تعنيتهم القاسي في شأن التعبير الادبي .

قد اعلن اولئك المحافظون الغلاة وجوب التقيد ، ليس بلغة الاقدمين فقط ، بل باساليب تعبيرهم ايضاً ، وعلى الاخص بما الفوه من ضروب التشبيه والاستعارة ، فرموا الكلام على عواهنه ، وادعوا تحويل قريحة الكاتب العصري الى شبه آلة نسخ او تصوير لما فاضت به قرائح اسلافه من آلاف المبتكرات الرائعة في الافصاح عن مكنونات صدورهم بأتم الحرية .

وصف النسيم بكونه عليلاً هو بلا مراء ابتداع كاتب قديم ، شبه ضعف هبة النسيم وبطء سيره بخور قوى مريض وتمهله في مشيته ، فراج ذلك التعبير الجديد اشد الرواج لما فيه من حسن الابتكار وكمال الطبيعية ، فتداولته الالسن والاقلام ، ثم اندمج في مُعجم لغتنا ، ولم يخطر ببال معترض متحذلق ان يعيب ذلك الكاتب الجسور لاضافته الى العربية تعبيراً غير مألوف . من البديهي ان آلافاً من التعبيرات الشائعة عندنا منذ قرون ، لم تكن حين نشأتها سوى مواليد قريحة راو سريع الخاطر او كاتب ميّال الى تجديد المعاني والمباني ، فراقت السامعين او القراء ، وامتزجت بسائر عناصر اللغة امتزاج الماء بالراح . بذلك الابتكار الصادر عن الجرأة وسلامة الذوق قد اغنى اسلافنا القاموس العربي بآلاف التحف . فكيف يسوغ لنقادنا الجامدين ان يوصدوا في وجهنا باب الابتكار بمصراعيه ، ويرمونا بتهمة التفرنج الكاذبة ، اذا عن لنا ان نقول « النسيم الكسول او الطائش او المرح » ، كما قال احد القدماء « النسيم العليل » ؟ نسبة العلة الى النسيم ما هي الا استعارة ؛ فلماذا لا يحق لنا ان نعزو اليه الكسل او الطيش

او المرح ، على الوجه ذاته ؟

الا يفهم النقدة ان الصاق العلة بالنسيم على الدوام دون سواها ، كأنها داء عضال او ضربة لازب ، يُفقد ذلك التعبير صبغته الادبية ويشينه بالابتذال ؟ اما حان لنا ، نحن ابناء القرن العشرين الموسوم بسمة اعجب الاختراعات كالطيران والاذاعة والتلفزة ، ان ننفخ نفخة الابتكار المنعش في آلاف من التعبيرات المبتذلة ، كالجبال الشامخة ، الحدائق الغناء ، الزهور النضيرة ، الحلل السُندسية ، الجرائد الغراء ومئات امثالها المحنطة البالية ؟ اما آن لنا الاعراض عن تشبيه المصائب بالسهام ، وعمل المنية بنشوب اظفار السباع ، والقامة الهيفاء بغصن البان ، والغواني بالبدر او الظبية او المهاة ؟

الا يرى نقادنا الطغاة ان جعل التقليد سُنة للادب ، تعم انواعه وعناصر اللغة بل اساليب التعبير ذاتها ، هو الحكم المبرم على الادب بالموت الزؤام ؟ فلله در شاعر النيل حافظ ابراهيم حين انشد في احتجاجه على جمود اكثر شعرنا ـ ورأيه صائب ايضاً في شأن جُل نثرنا ـ هذه الابيات الجميلة :

حمّلوك العناء في حب ليلى ... وسُليمى ووقفة الاطلالِ ،
وبكاءً على عزيزٍ تولى ، ... ورسومٍ راحت بهن الليالي ؟
واذا ما سموا بقدرك يوماً ، ... اسكنوك الرحال فوق الجمال !
آن ، يا شعر ، ان نفك قيوداً ... قيدتنا بها دُعاة المحال ؛
فارفعوا هذه الكمائم عنا ... ودعونا نشم ريح الشمال !

لقد اوضحنا ان اول عوامل انحطاط النقد عندنا هو جهل عامة اصحابه اصول الادب الصحيح ، التي تجاهر وتعمل بها ارقى الشعوب . يرون معظم ادبنا العصري لفظياً تقليدياً ، فيرضون عنه ويعظمونه ، عادين شينه زيناً ونقصه الفاحش كمالاً . واذا تجاسر ناقد حصيف على دك صروحه المتداعية لانها مبنية على الرمل ، لا على الصخر الراسخ ، نسبوه الى التفرنج واوسعوه ذماً وشتماً . ذلك ما سميناه ضعف العقل ، والطامة الكبرى انه

يزيد في الغالب وبالاً باقترانه بضعف آخر ، وهو ضعف الارادة ؛ اليكم بيان ذلك بغاية ما يُستطاع من الايجاز .

اذا صح ان كل كاتب مقيَّد بواجب سام ، وهو ان يقوت العقول والقلوب ويُنمي قواها الغريزية بغذاء صحي سائغ كامل ، فذلك الفرض المقدس اشد تحتماً على الناقد ، لان وظيفته تحليل تلك الاطعمة الروحية تحليلاً صائباً دقيقاً ، يُبعد الجمهور عن فاسدها ويحثه على تناول اجودها . فهو يقترف اثماً كبيراً نحو عامة الناس ، اذا خان ضميره ولم يقم بتلك المهمة سعياً وراء مصالحه الشخصية السافلة .

يعز علينا التصريح بان مئات من نقادنا يرتكبون بتعمد تام وعلى سبيل العادة تلك الجريمة الشائنة ، لان غايتهم الوحيدة وكعبة مطامعهم ليستا رفع شأن الادب الحقيقي العالي ، وتأمين تغذية النفوس الجائعة الى الحقيقة الصرفة والجمال المحض ، بل المتاجرة بالادب ليربحوا وراء ستاره الركيك الشفاف كل ما يتسنى لهم ربحه من الاصفر الرنان والشهرة الزائفة ؛ فبئست التجارة !

كساد الادب في الشرق العربي ـ وهو من الامور الاكيدة التي لا يختلف فيها اثنان ـ يفضي بكثير من كتّابنا الى حصر همومهم في المتاجرة باقلامهم . اما الناقد منهم فهو اشد زللاً في ذلك المزلق ، لان مادته في الغالب جافة ، مجردة ، قليلة الجاذبية لعامة القراء . فاذا كان رائده المال والشهرة ، سلّط على نقده الشهوة الجامحة العمياء ، لا العقل السديد والارادة الشريفة النزيهة ، فجاء نقده مصاباً في جوهره بداء عضال ، هيهات ان يُرجى له شفاء .

مظاهر تلك التجارة النقدية عديدة ، فنخص بعضها بالذكر لكونها اوسع انتشاراً واوخم عاقبةً من غيرها . المظهر الاول هو الاكثار الى حد الافراط الفاحش من النقد السطحي ، الذي لا يقتضي وقتاً طويلاً ولا جهداً متعباً في فحص موضوعه والتمييز الدقيق بين غثه وسمينه . تلك الطريقة حيلة

يتذرع بها الناقد التجاري لايهام الجهال السُذج ان علمه وافر وخاطره سريع ، بيد ان هذه الحيلة لا تجوز على الخبراء المتضلعين من اصول الادب المحض والنقد الصحيح .

اذا عمد الناقد التجاري الى نقد احد الادباء الاقدمين ، فانه يربأ بنفسه ان يقضي النهار ويحيي الليل طول عدة اسابيع في قراءة مؤلفاته وسبر غور معانيها ومبانيها ، بحيث لا تخفى عنه خافية من حسناتها وسيئاتها ، فيتسنى له ان يرسم للعامة ، فضلاً عن الخاصة ، صورة صادقة لمميزات ادب ذلك الكاتب . بل يكتفي بالمطالعة السطحية لجزء يسير من تلك المصنفات ، ربما لم يتجاوز عُشرها ، ويُبدي رأيه في فن ذلك الرجل منتحلاً اقوال بعض الشرقيين او المستشرقين فيه ، مختاراً منها ما راقه ، اذا وجدها متناقضة ، فيأتي نقده سخيفاً ، مشوهاً ، بعيداً عن الحقيقة ، عاجزاً كل العجز عن انارة الاذهان ورفع مستوى الادب الصحيح في اقطارنا .

اذا توخى نقد اديب معاصر ، فانه يتحاشى ايضاً عن الاكباب على مطالعة كتبه والتنقيب عن مزاياها ومعايبها ، لما في ذلك من وعورة المسلك وبذل الجهد المضني ، الذي لا يؤول به الى كسب مال اوفر ولا شهرة اوسع في نظر عامة الناس . فضلاً عن ذلك الكسل الذميم والاستخفاف بواجبه السامي ، يرى ان الاوفق لتأمين مصلحته الشخصية الدنيئة ، ان يتقيد برأي الاكثرية ، ليملقها ويحظى برضاها ، فيحذو حذوها جُبناً وطمعاً ، ويلقب احمد شوقي بامير الشعراء ومصطفى المنفلوطي بامير الناثرين ، مجاراةً للجمهور ، وان ثبت لديه انهما بعيدان عن الجدارة بذلك التعظيم .

من جهة اخرى لا يتجاسر على كشف اكبر النقائص في مؤلفات اديب عصري ذي نفوذ وسطوة ، وان اختلفت فيه آراء الناس ، لئلا يكون عُرضة لسخطه وانتقامه ، فيصبح في موقف الجندي الهلوع ، الذي لا يجرؤ على مهاجمة عدو شاك السلاح ، بل يلوذ بالفرار من وجهه ،

مفضلاً الاستئساد السهل بازاء خصم بعيد او ضعيف ، لا يخشى منه ادنى ضرر او مقاومة .

ربما قسرته جبانته التجارية ، في نهاية الامر ، على تقريظ كل كتاب جديد والاغضاء على اكبر عيوبه ، من باب الاحتياط التام ، اتقاء لما قد يجره عليه النقد الصادق الجسور من المضار ، ولا سيما ان هذا النوع من النقد الخليق وحده باسمه ، بضاعة شرعنا نستوردها من الغرب منذ نحو اربعين سنة ، وهي لا تزال نادرة وقليلة الرواج في اقطارنا . نستشهد على صحة قولنا هذا ما كتبه جرجي زيدان عن ارباب الصحافة : « اذا ورد عليهم « كتاب ، وان كان موضوعه تافهاً ، فانهم يشعرون بوجوب مدحه ، « خصوصاً اذا جاءهم صاحب الكتاب بنفسه وحرضهم على مدح كتابه ، « التماساً لرواجه . وقد يكتب اليهم في هذا الشأن ، يستحثهم ويستنهض « همتهم لتقريظ الكتاب ، تنشيطاً للمؤلف . والغالب في الصُحف ان « تجيب الطلب حياءً من المؤلف وتنشيطاً له وجرياً على عادة المجاملة في كل « شيء . وقد عرف القراء ذلك ، فاصبحوا لا يعتمدون على اقوال الجرائد « في تقريظ المطبوعات . وعذر ارباب الصُحف في تلك المجاملة ان المؤلفين « لم يتعودوا الصبر على سماع الانتقاد ؛ واكثر ما يظهر من المؤلفات قابل للنقد « بالنظر الى حداثة عهدنا في التأليف . فاذا اراد صاحب الجريدة انتقاد كل « كتاب يرد عليه ، ضاق وقته واثار عليه العداء ، حتى من اعز اصدقائه ؛ « وما من صاحب جريدة او مجلة الا وقد وقع في ذلك . »

قد تبلغ المداهنة وخيانة الواجب في الناقد التجاري حد التزلف المذل وتعفير الجبين امام اساطين عالم الادب او غيره ، لاستعطاء حمايتهم القديرة ترويجاً لبضاعته الحقيرة وخدمةً لمصالحه الشخصية التي تفوقها حقارةً . فيأتمر بامرهم ويتقيد صاغراً بنهيهم ، مضحياً برأيه ، بل بالصواب الساطع لعينيه وبحقوق الادب الصحيح ، مع ادعائه بذل ذاته في المناضلة عنها ،

منادياً كالببغاء بما يرونه سديداً ، وان كان في نظره بعيداً عن السداد بعد الثريا عن الثرى .

تلك اشواط التزلف والتذلل الشائنين التي يجريها الناقد التجاري ، لفرط حرصه على الاصفر الرنان والشهرة الزائفة ، واطئاً تحت قدميه الواجب المقتضي منه ان يكون في ميدان الادب رائداً يُهتدى بهديه ونبراساً يُستضاء بنوره ، وغير حافل بالآمال المعقودة عليه في هذا الشأن الخطير . ولا بدع بذلك ؛ فكيف يستطيع عبد شهوتي المال والمجد الباطل ، الامّارتين بالسوء ، ان يقود الناس ، وهو هائم على وجهه في مجاهل الغواية ؟

قال السيد المسيح – عز وجل – ان الاعمى اذا قاد مثيله ، فكلاهما يسقط في حفرة ؛ هذه الآية الكريمة قد تحققت في كثير من نقادنا . قد عموا او تعاموا عن اصول الادب والنقد المحضين – وهذا ضعف في العقل – ثم امالوا نظرهم عن واجبهم العظيم الى إشباع اهوائهم الدنيئة النهمة ؛ وذلك ضعف في الارادة اشنع جداً من الاول . فماذا يتوقع الادب العربي المصاب بتلك الداهية المزدوجة الدهياء ، من اولئك القادة العميان غير حيبة آماله المعلقة بالذين كان يحق له ان يرجو من مساعيهم النزيهة الحثيثة اقالة عثراته العديدة ورفعه شيئاً فشيئاً الى مستوى ارقى الآداب ؟

واجب ابراز تحف ادبنا العصري للغرب

قد تشكى غير مرة بعض نوابغ المستشرقين الغربيين من كون ادباء الشرق العربي لا يهتمون البتة باطلاعهم على جواهر ادبنا الحديث . هاكم ما قاله في هذا الشأن العلامة الالماني الشهير كمبفماير (Kampffmeyer) سنة ١٩٢٨ ، في مجلة مدرسة اللغات الشرقية في برلين : « لا نكاد في بلادنا « نسمع اسماء مشاهير من امثال احمد شوقي وحافظ ابراهيم . . . وكثيرين « غيرهم من اعلى قادة الرقي العقلي في الشرق العربي العصري ، على ان هذا « العالم العربي هو من زمن بعيد ، وبدرجة لا تقل عما هي عليه في تركية ، « في تطور شديد ، مندفعاً الى الامام ، وهو الآن على الاخص في اشد « اختمار ، في توتر وجهاد القوى القومية والحضارية التي تعبّر عن ذاتها في « الادب اكثر التعبيرات تنوعاً وخطورةً . ارى اننا نجد اوفر اللذة « والفائدة بالتعمق في درس تلك القوى وذلك الادب ، في تفهم وتقدير تلك « النزعات الشديدة ، القومية والحضارية ، التي تنشىء عصراً جديداً . »

قال المستشرق المجري الذائع الصيت يوليوس جرمانس[1] المجري : « من « تتبع ما يُنشر اليوم من المؤلفات الادبية باللغة العربية ، لا يسعه الا « التسليم بوفرة الثروة الادبية التي اضافها ادباء هذا العصر ـ ومعظمهم من « المصريين ـ الى اللسان العربي . وكيفما قلّبنا الطرف في المؤلفات الادبية ، « نجد كلمات جديدة قد حلّت محل الفاظ قديمة واخذت مكانها من اللغة . »

الا يجب علينا ، معاشر الناطقين بالضاد ، بعد الاصغاء الى هذه الاقوال التي فيها ما فيها من التعظيم لنهضتنا الادبية الحديثة ، ان نأسف كل الاسف لكوننا قد اهملنا حتى الآن ايقاف ادباء الغرب وعلمائه على شيء من بدائعها ، لنرفع عندهم مقام الشرق العربي ولغته ، ونقوض اركان الوهم

(١) راجع جزء مارس (آذار) ١٩٣٤ من مجلة « الهلال » .

الراسخ في اذهانهم اننا عظاميون ، لا عصاميون .

في الحقيقة لا شهرة للشرق العربي في نظرهم سوى انه كان في ابعد العصور مركزاً لاقدم المدنيات العالية ، وانه الآن بمثابة متحف عظيم لآثارها . حتى من اقصى البلاد ، كالولايات المتحدة ، البرازيل ، الارجنتين ، الهند ، الصين ، اليابان ، استرالية ، يتقاطر آلاف السُياح لزيارة ذلك المتحف العادم النظير ، فيقضون العجب من بدائعه التي لا يفي بها احصاء . اما الذين لم يُسعدهم الحظ بمشاهدة الشرق بعيني الجسد ، فقد رأته نفوسهم بقراءة تواريخه او روايات جوّابي الآفاق او مقالات الاختصاصيين في الصُحف .

كما جرت الامور في شأن حضارة الشرق الادنى عموماً ، هكذا مجراها في شأن آدابه العربية خصوصاً . نعني ان الادباء الاوربيين والاميركيين وغيرهم يعدون اقطارنا العزيزة متحفاً للعاديات ، لا غير . منذ اعصار يطوف علماؤهم المستشرقون في كل انحائه ، وبعد الابحاث الطويلة المضنية قد اكتشفوا في ابعد زواياه ربوات من المخطوطات النفيسة ، الغائصة عدة قرون في سبات عميق ، مختفيةً عن الانظار في ردائها الغباري الكثيف . فقرأوها مراراً ، بل نشروها واعادوا طبعها مضيفين اليها حواشي ضافية ، وترجموها ادق الترجمة الى اشهر اللغات ، فنرى وابلاً من تلك المصنفات يتدفق بدون انقطاع من مطابع اوربة واميركة ، وفيها من الدقة والاتقان ما يُثير اعجاب الخبراء .

لا مراء في ان شغف الغربيين بادبنا القديم مجد عظيم لشرقنا العربي ، على انه لا يخلو من آفة وخيمة العواقب لنا ، وهي قلة اهتمامهم بدرس ادبنا العصري والغوص على لآلئه اليتيمة . خلاصة القول ان هيامهم بمآثر اسلافنا قد شغلهم عن السعي وراء معرفة كنوزنا الحاضرة . بيد ان الصدق يلجئنا الى الاعتراف بكوننا ، نحن اصحاب لغة الضاد ، حاملين عبء معظم

المسؤولية عن جهلهم ذلك الشائن ، فاننا ، على وجه التعميم ، لم نحرك ساكناً لتعريفهم بعض جواهر ادبنا العصري الناهض . كيف يسهل عليهم الاهتداء اليها بدون مؤازرتنا ، وقد قال المثل السائر ان صاحب البيت ادرى بما فيه ؟ ان الاعجاب الشديد الذي ابداه ائمة المستشرقين بالنزر اليسير الذي تسنى لهم العثور عليه من بدائع ادبنا الجديد ليشجعنا على بذل تلك المؤازرة السهلة . قد سُئل كمبفماير السابق ذكره عن رأيه في ذلك الادب ومستقبله ، فاجاب : « ان رأيي في الادب العربي الحديث كثيراً ما اوضحته في « مؤلفاتي العديدة التي نشرتها على البلاغة العربية العصرية ، وعلى الاخص « في مقدمتي للكتاب Leaders in contemporary Arabic literature « اي « زعماء الادب العربي العصري » ، فان للامم العربية الحاضرة « نزعات راقية وقوى نفسية سامية ، ولادبها الجديد نهضة مباركة ، وللادباء « الناطقين بالضاد اليوم من ثمار سعيهم ما يجاري احسن ثمار الآداب « الغربية . انا موقن ان الادب العربي الحديث سيكون له رقي جديد ، « يعادل مجد الادب العربي القديم . ولا شك في ان مجد الادب العربي في « المستقبل لن يقام على الجديد ولا على القديم ، بل على اساس الصالح من « الجديد مقترناً بالصالح من القديم ؛ وما من صالح الا ما نفع الامة وطابق الفطرة التي جُبلت عليها . »

قصدنا زمن بعيد تعريف الادباء في كل اقطار العالم المتمدن ، ولا سيما الاوربية والاميركية ، بعض المختارات الرائعة من شعرنا الغنائي العصري ، فترجمناها الى اللغة الدولية الايدية (Ido) ، وهي لسان اصطلاحي شديد الشبه للغات اللاتينية ، قد ابتدعه المركيز ده بوفرون (de Beaufront) الفرنسي لتسهيل العلائق بين كل الشعوب المتمدنة ، فصار آلاف من ادبائها يفهمونه ويستعملونه في مراسلتهم للاجانب . قد طُبعت ترجمتنا سنة ١٩٢٦ في ستوكهلم (Stockholm) بهمة احد اصدقائنا من زعماء الناطقين

باللغة الايدية ، فما لبثت ان ذاعت آلاف نُسخها في الخافقين ، من اوربة الى الاميركتين ، بل الى اليابان في الشرق الاقصى . وكان لها صدى اعجاب شديد بنبوغ شعرائنا المفلقين ، مع ان الكُتيّب لا يحوي سوى ثلاث وثلاثين صفحة وترجمة اثنتين واربعين قصيدة ، ولم يكلفنا من العناء شيئاً يُذكر ، فضلاً عن كون ترجمة الشعر العربي الى النثر الايدي قد ازالت حتماً حصة وافرة من جمال الاصل ، لما في اوزاننا المتنوعة وقوافينا من الموسيقى المطربة .

لم يمض ردح من الزمان على نشرنا تلك المجموعة الزهيدة الحجم حتى انهالت علينا رسائل التقريظ الحار لفرائد شعرنا العصري ، مخطوطةً باقلام علية الايديين في البلاد الآتية : فرنسة ، المانية ، ايطالية ، اسبانية ، روسية ، اسوج ، المجر ، فنلندة . بل قد ادرج المستشرق الروسي الشهير اغناطيوس كراتشكوفسكي (Kratchkovski) ، في مجلة المستشرقين الصادرة في لنينغراد ، مقالة طويلة على مجموعتنا ، فعبّر فيها عن شغفه الشديد بشعرنا العصري وصرح بانه تكلف عناء درس اللغة الايدية ليتمكن من قراءة كُتيّبنا ، وقد ثار فيه التوق الى بدائع قريضنا الحديث .

يتضح اذاً مما سبق انه يجب علينا ، نحن ادباء الشرق العربي ، ألا نكتفي بتعريب صفوة الآداب الغربية ، لنقتبس شيئاً من محاسنها الفاتنة ، بل ان نترجم الى اشهر لغات الغرب خيرة ادبنا الجديد النثري والشعري ، لرفع مكانتنا في عيون الافرنج ، فيوقنون ان الشرق العربي ليس متحفاً للعاديات فقط ، بل منجماً من مناجم الجمال الفني ، حديث الانتاج ، كثير الكنوز ، باهر المستقبل .

الفهرس الاول

الحاوي مقالات الكتاب وفقاً لترتيبها

القسم الاول : نقد بعض الادباء المعاصرين

حافظ ابراهيم ١
احمد زكي ابو شادي
في « اطياف الربيع » ٨
معروف الرصافي ١٧
سعيد ابو بكر ٢٥
خليل مطران ٣٠
بشارة الخوري ٣٩
شبلي الملاط ٤٧
حليم دموس
في « المثالث والمثاني » ٥٢
الياس ابي شبكه
في « القيثارة » ٦٠
الياس فرحات ٧٠
ايليا ابو ماضي ٨٠
رشيد سليم خوري ٨٥
نعمه قازان
في « معلقة الارز » ٩٢
اسعد رستم ٩٧
ميخائيل نعيمه
ناقد الادب العربي العصري ١٠٣
ميخائيل نعيمه الشاعر ١٠٩
احمد شوقي ١١٧
جبران خليل جبران ١٢٧
راجي الراعي
في « قطرات ندى » ١٤٤
سلمى صائغ في « النسمات » ١٥١

القسم الثاني : مقالات عامة على ادبنا العصري

تنبيه : قد ذكرنا تحت كل عنوان الادباء الذين ادرجنا شيئاً من مؤلفاتهم .

اجمل انواع شعرنا العصري ١٦٣

احمد شوقي ١٦٤ - الياس فرحات ١٦٦ و ١٧٥ - ايليا ابو ماضي ١٦٧ - اسعد رستم ١٦٨ - الياس فياض ١٦٩ - خليل مردم ١٧١ - رشيد

ايوب ١٧١ - نسيب عريضه ١٧٣ - رشيد سليم خوري ١٧٣ و ١٧٦ - فوزي المعلوف ١٧٤ - ميخائيل نعيمه ١٧٥ - انيس الخوري المقدسي ١٧٥ .

اجمل انواع نثرنا العصري ١٧٦

يوسف غصوب ١٧٧ - سلمى صائغ ١٧٨ - فليكس فارس ١٧٩ - خليل مطران ١٨٠ - فيليب حتّي ١٨٣ - لبيبة هاشم ١٨٣ - مصطفى باشا كامل ١٨٥ - سعد باشا زغلول ١٨٦ - الاسقف جرمانوس معقّد ١٨٧ - الاسقف غريغوريوس الحجّار ١٨٨ - طه حسين ١٨٩ - قسطاكي الحمصي ١٩٠ .

انحطاط النقد الادبي عندنا ١٩٢

جبر ضومط ١٩٧ - حافظ ابراهيم ٢٠٠ - جرجي زيدان ٢٠٣ .

واجب ابراز تحف ادبنا العصري للغرب ٢٠٥

كمبفماير (Kampffmeyer) ٢٠٥ و ٢٠٧ - يوليوس جرمانس ٢٠٥ .

الفهرس الثاني

الحاوي بترتيب ابجدي اسماء الادباء الذين نشرنا عليهم مقالات نقد - قد اشرنا اليها بنجمة - او ادرجنا نموذجات من مؤلفاتهم .

* ابراهيم (حافظ) ١ ، ٢٠٠
* ابو بكر (سعيد) ٢٥
* ابو شادي (احمد زكي) ٨
* ابو ماضي (ايليا) ٨٠ ، ١٦٧
* ابي شبكه (الياس) ٦٠
الحجّار (الاسقف غريغوريوس) ١٨٨
الحمصي (قسطاكي) ١٩٠
* الخوري (بشارة) ٣٩
* الراعي (راجي) ١٤٤
* الرصافي (معروف) ١٧

المعلوف (فوزي) ١٧٤
المقدسي (انيس الخوري) ١٧٥
* الملاط (شبلي) ٤٧
ايوب (رشيد) ١٧١
* جبران (جبران خليل) ١٢٧
حتّي (فيليب) ١٨٣
حُسين (طه) ١٨٩
* خوري (رشيد سليم)
٨٥ ، ١٧٣ ، ١٧٦
* دموس (حليم) ٥٢
* رستم (اسعد) ٩٧ ، ١٦٨
زغلول (سعد باشا) ١٨٦
زيدان (جرجي) ٢٠٣
* شوقي (احمد) ١١٧ ، ١٦٤
* صائغ (سلمى) ١٥١ ، ١٧٨
ضومط (جبر) ١٩٧
عريضه (نسيب) ١٧٣
غصوب (يوسف) ١٧٧
فارس (فليكس) ١٧٩
* فرحات (الياس) ٧٠، ١٦٦، ١٧٥
فياض (الياس) ١٦٩
* قازان (نعمه) ٩٢
كامل (مصطفى باشا) ١٨٥
مردم (خليل) ١٧١
* مطران (خليل) ٣٠ ، ١٨٠
معقّد (الاسقف جرمانوس) ١٨٧
* نعيمه (ميخائيل) ١٠٣، ١٠٩، ١٧٥
هاشم (لبيبة) ١٨٣

الفهرس الثالث

الحاوي اهم المواد مرتبة ترتيباً ابجدياً .

العدد الاول التابع لكل مادة يدل على الصفحة ، والثاني على السطر .

لم نعد الخط الواقع بين المقالات سطراً .

ابتذال ٧ : ٦ - ٥١ : ٣ - ٥٨ : ١٣ - ١٠٢ : ١٠ - ١٢٤ : ١٧ - ١٩٩ : ٦ .
ابتكار ٣٣ : ٦ الى آخر المقالة - ٤٥ : ١٥ - ٥٧ : ١٢ - ٦٧ : ١٤ - ٦٨ : ٧ - ٧٨ : ٤ - ٨٩ : ١٩ - ١١٦ : ١٢ - ١٢٤ : ٧ - ١٤٣ : ٤ - ١٦١ : ٩ - ١٨٠ : ٥ .

ابراز تحف ادبنا العصري للغرب ٢٠٥ .
ابهام ١٢٥ : ٢٢ - ١٤١ : ٢ - ١٤٣ : ١٨ .
اجمل انواع شعرنا العصري ١٦٣ .
اجمل انواع نثرنا العصري ١٧٦ .
ادب اجتماعي ١٥٦ : ١٨ - ١٥٧ : ٢٠ - ١٨٢ : ١ .
ادب تقليدي ١٩٦ : ٢ - ١٩٧ : ٢٤ .
ادب لفظي ٩٣ : ١٦ - ١٠٦ : ٥ - ١٣٩ : ١٤ الى ١٤٣ - ١٩٣ : ١٢ .
اغلاط لغوية ٤٦ : ٥ - ٦٨ : ١ - ٩٧ : ٥ - ١٠١ : ٢٢ - ١١٦ : ٩ - ١٢٦ : ٨ - ١٤٤ : ٣ - ١٦١ : ١٥ .
اقرار الكفار بتعاستهم ١٠ : ٢٤ - ١٧ : ١٦ - ١٨ : ١٦ - ٦٠ : ١٩ - ٧٢ : ١٣ - ٧٤ : ١٣ - ٩٥ : ١٢ - ١١٠ : ١٤ - ١٣٤ : ٤ .
امثال على السنة الحيوانات ١٦٣ : ١٦ .
انكار تطور العربية في جيلنا ١٩٦ : ١٥ .
تأنيس الجمادات ٩٠ : ١٩ .
تجديد العروض ١٦ : ١١ - ٢٦ : ١ - ٦٩ : ١٧ - ٧٨ : ٢١ .
تصنع ٦ : ٨ - ١٤ : ٦ - ١٦ : ٨ - ٢٢ : ٨ - ٢٤ : ٢ - ٤٤ : ١٢ - ٤٦ : ٢٠ - ٥٨ : ١٧ - ٦٩ : ٢ - ٩١ : ١٥ - ١٢٠ : ١١ - ١٢٥ : ١١ - ١٤٣ : ١١ - ١٥٠ : ٦ .
تعظيم السيد المسيح ١٢٢ : ١٠ .
تعظيم الله تعالى ١٥ : ١٨ - ٦٥ : ٢ - ١١١ : ١٦ - ١٢٤ : ٨ - ١٧٠ : ١٧ .
تهذيب الاخلاق ١٩ : ٥ - ٥٤ : ٧ - ٦٦ : ١١ - ٨٧ : ١٦ - ٩٨ : ٩ - ١٢١ : ٦ - ١٤٥ : ١٦ - ١٤٧ : ٣ - ١٥٨ : ٥ .
حب الشرق العربي ٢٨ : ١٢ .
حب اللغة العربية ٥٥ : ٢٠ - ١٥٧ : ٦ .
حب الوطن ٤ : ١٣ - ٥ : ٩ - ١٤ : ١٦ - ٢١ : ١١ - ٢٦ : ٢٠ - ٤٣ : ٩ - ٤٨ : ١٦ - ٥٤ : ٢٠ - ٦٤ : ٦ - ٨٥ : ٢٠ - ٩٤ : ١١ - ٩٦ : ١٧ - ١١٩ : ٢٣ - ١٣٨ : ١٧ - ١٤٨ : ٢٠ - ١٥٥ : ٢ .

حشو ١٤٣ : ٢٢ - ١٩٤ : ٢١ .
خطابة دينية ١٨٧ : ٧ .
خطابة وطنية ١٨٤:١١ الى ١٨٧ .
خلاعة ٩ : ١٠ - ٦٢ : ٢٢ - ٧٤ : ٨ - ١٢٩ : ٨ - ١٤٦ : ١٧ - ١٤٧ : ١٣ .
خيالات فارغة ١٤١ : ١٩ .
روايات تمثيلية ١٨١ : ١٧ - ١٩٨ : ٢١ .
روايات قصصية ١٨١ : ١٧ .
شعر رمزي ٨١ : ١٧ - ٨٨ : ١٥ - ١١٤ : ١ - ١٦٧ : ٤ .
شعر روائي ٣٢ : ١ - ٣٩ : ١٤ الى ٤٢ - ٤٩ : ١٨ - ١٦٩ : ١٠ .
شعر غنائي ٥ : ١٥ - ١٧٠ : ١٠ .
شعر فكاهي ٩٧ : ١٤ الى ١٠٢ - ١٦٨ : ٤ .
شعر وصفي ١٦٥ : ٤ .
شعر وطني ١٧٤ : ١٦ - ١٩٨ : ١٦ . (راجع « حب الوطن »)
شفقة على آلام البشر ١٥١ : ٢٠ .
فرط استعمال كلمات مماتة ٧ : ١٥ - ٢٣ : ٢١ - ١٢٦ : ٩ - ١٩٤ : ١٣ .
قواعد الادب الثابتة ١٠٣ : ١٦ - ١٠٦ : ١٤ - ١٩٢ : ٢١ .
كفر ١٠ : ١ - ١٨ : ٣ - ٦٢ : ٢٢ - ٦٥ : ٧ - ٧٥ : ٥ - ١٢٧ : ١١ الى ١٣٢ .
مادية ١٢ : ١٣ - ١٧ : ٩ - ٦٣ : ٤ - ٨٢ : ١٨ الى آخر المقالة - ١٠٩ : ١٧ - ١٢٨ : ٣ .
مبالغة ٦ : ١٦ - ٢٤ : ١٠ - ٥١ : ١٦ - ٥٨ : ٢ - ٩١ : ١٨ - ١٠١ : ١٢ - ١١٧ : ١٧ - ١٢٤ : ٢٢ - ١٩٥ : ١٢ .
موسيقى الشرق ١٥٩ : ١٧ .
نقد الادب ١٠٣ الى ١٠٩ - ١٨٩ : ١٢ - انحطاطه عندنا ١٩٢ - نقد تجاري ٢٠١ : ٣ الى ٢٠٤ .
نهضة الشعر العربي في جيلنا ٣٠ الى ٣٩ - ١٠٧ : ١٨ .
وصف احوال النفس ٤٢ : ١٨ - ٥٣ : ١١ - ٨٩ : ٦ - ١١٣ : ٦ - ١٢٣ : ٢٢ - ١٢٤ : ١٢ - ١٣٤ : ١٩ - ١٥٢ : ٢ - ١٥٤ : ٦ - ١٥٥ : ١٣ - ١٧٢ : ٦ - ١٧٨ : ٤ الى ١٨٠ .
وصف الاخلاق ٣ : ٥ - ١٢٠ :

١٧ - ١٣٦ : ٢٢ - ١٤٥ : ٧ -
١٥٢ : ٢٢ - ١٧٧ : ١٣ .
وصف الاشخاص ٤٢ : ٨ .
وصف الاشياء ٥٣ : ٤ - ١٨٠ : ٣ .

وصف الحوادث ٢ : ١٠ - ٣٢ :
١٥ - ٤٨ : ١ - ١١٨ : ١٧ -
١٥٤ : ١٦ .
وصف الطبيعة ١٤ : ١ .

تنبيه للقراء

قد وقعت اغلاط قليلة في طبع هذا الكتاب ، لم نشر الى جميعها لانها لا تخفى عن الادباء الذين الفناه لاجلهم دون سواهم . ها كم بعضها :

٦١ : ٥ - « عداب » خطأ ؛ صوابه « عذاب » .
٨١ : ٣ - « الاوران » خطأ ؛ صوابه « الاوزان » .
١٨٠ : ١٢ - « بنسفجي » خطأ ؛ صوابه « بنفسجي » .
٢٠٧ : ١٨ - « قصدنا زمن » خطأ ؛ صوابه « قصدنا من زمن » .

رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس